

تطور الرواية العربية في البحرين بالتركيز الخاص على روايات عبد الله خليفة

دراسة تحليلية انتقائية

بحث جامعي للحصول على شهادة الدكتوراه

إعداد

ضياء الحق

تحت إشراف

أ. د. رضوان الرحمن



مركز الدراسات العربية والإفريقية
مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة
جامعة جواهرلال نهرو، نيو دلهي

110067

2019



مركز الدراسات العربية والإفريقية

Centre of Arabic and African Studies

School of Language, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110 067

जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली - 110067

Gram: JAYENU Tel. : +91-11 2670 4253, Fax : 91-11-2671 7525

DECLARATION

July 3, 2019

I declare that the thesis entitled "**Development of Arabic Novel in Bahrain with special focus on the novels of Abdullah Khalifah: An analytical study of selected novels**" submitted by me is in the partial fulfilment of the requirement for the award of the degree of **Doctor of philosophy** of this university. This thesis has not been submitted for any other degree of this university or of any other universities and is my own work.

Ziaul Haque

(Research Scholar)

Prof. Rizwanur Rahman

(Supervisor)

Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Prof. A. Basheer Ahmad

(Chairperson)
Centre for Arabic and African Studies
SLL&CS, Annex Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلوة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد!

يعد تاريخ البحرين بصفة عامة وتاريخ البحرين الحديث والمعاصر بصفة خاصة من أخصب التواريخ في منطقة الخليج والجزيرة العربية، نظرا للعلاقات السياسية والروابط التجارية بين البحرين وبين الحكومات المجاورة لها، وكذلك لأطماع بعض الدول والأقاليم في مد نفوذها إلى البحرين مثل: البرتغال وبريطانيا وإيران وغيرها. وقد شهدت البحرين في عصور مختلفة، بسبب ذلك، نشاطات سياسية وعلاقات تجارية، ونتج عن هذه النشاطات والعلاقات رصيد كبير من المعلومات من الوثائق والمصادر المكتوبة التي أرخت لهذه البلاد، إلا أن التواريخ المحلية تتميز عن المصادر الأجنبية بكونها تمثل وجهة النظر الرسمية والشعبية - إلى حد ما - تجاه الأحداث، كما أنها تنفرد بتوثيق تفاصيل الأحداث الداخلية، بالإضافة إلى تميزها في نقل المظاهر الحضارية والاقتصادية والعلمية في الداخل، كما أن كثيرا من الأحداث التي تتم كتابتها في مصادر محلية متعددة قد يكون بعضها متطابقا وبعضها الآخر متباينا أو يشار إليها بإيجاز أو بإسهاب وفقا للمصدر، وهذه الظاهرة تتيح للباحث فرصة الربط بين الأحداث وإثارة التساؤلات للوصول إلى نتيجة حتمية ورؤية واضحة للأحداث والوقائع.

وأما فيما يخص بظهور الأدب الروائي في البحرين والدول الخليجية، فقد وردت الرواية إلى الساحة الأدبية متأخرا عن الشعر والقصة. هبت على المنطقة الخليجية رياح التغيير العاتية من أركان وزوايا الرواية رغم مرور سنوات عجاف على (عاصفة الصحراء)، تلمس فيها تغييرا في البنية

والمفردات والخطاب والرؤية الخاصة للمكان. ونحن أيضا في معاقل رواية
مصرية ومغربية حيث ما تزال قضايا الواقع الشائك تزرع نباتات تائهة في
دوائر الفساد الإداري والاجتماعي والسياسي. وبكل هذا وذلك ما يزال
الروائيون العرب في مفترق طرق ما بين هيمنة غربية في اللغة والتقنية،
وما بين الموروث وجذور الفن العربي، وما تزال قضية ومعادلة الأصالة
والمعاصرة تؤرق وجدان الجميع.

المتغيرات تتسارع في عناصر البناء وتصوير الشخصيات وخلق الصورة
الفنية في إطار السرد الوصفي. أما البحرينيون فوعوا بالواقع ما يزال
يرواح مكانه، ومن هنا كانت قضايا الواقع عبر الرواية العربية أهم ما يجب
أن يشغلنا. ومن الضروري أن نكون منصفين حينما نقول إن الرواية في
بعض الدول العربية قد سعت لتجاوز الواقع بالسؤال عن واقعها وهويتها لا
سيما الرواية الخليجية رغم حداثتها، إلا أنها ما تزال تقبض على جمر
الموروث الشعبي، واستلهاهم معظم مضامينها من بيئتها المحلية.

جاءت الرواية الخليجية بعد الشعر، فقد وجد الشعراء في الخليج منذ مئات
السنين كل الدعم والاهتمام والرعاية. أما الرواية فعلى العكس من ذلك، وقد
عزا بعضهم ذلك إلى بيئة وتقاليد المجتمع في هذه المنطقة حيث مجموعات
معرفية تتعلق بالتراث والعادات والتقاليد التي اعتبرت من الثوابت الراسخة
ولا يمكن أن تمتد إليها يد التغيير حتى أن القصة القصيرة التي تسالت إلى
الساحة قبل الرواية الطويلة، نمت باتجاه احترام المفاهيم العريقة التي
تقترب بشكل أو بآخر من تقاليد المكان.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرواية الخليجية لا تشكل وحدة متجانسة في
نشأتها وتطورها، بالرغم من التجانس الجغرافي والثقافي والديني واللغوي
والتاريخي النسبي لدول الخليج العربي السنة (المملكة العربية السعودية -

الكويت - الإمارات العربية المتحدة - قطر - عمان - البحرين)، وهذا التفاوت يشمل الجانب التاريخي (النشأة والتطور)، والجانب الفني، والجانب الكمي، كما ينبغي أن نشير أيضا إلى أن ملابسات نشأة وتطور الرواية الخليجية تختلف نسبيا عن ملابسات نشأة وتطور الرواية في سائر الأقطار العربية الأخرى.

فإذا كانت الرواية في مصر وبلاد الشام والمغرب العربي قد نشأت متأثرة بالسرود التراثية من جهة، وبالرواية الأوروبية من جهة أخرى، فإن الرواية الخليجية لم تتأثر في نشأتها بالرواية الأوروبية بقدر ما تأثرت بالتجارب الروائية العربية والسرود التراثية. ولكن الرواية الخليجية، شأنها شأن الرواية العربية في الأقاليم الأخرى، كانت تعبيراً عن الطبقة الاجتماعية البورجوازية المدنية (نسبة إلى المدينة). ذلك لأن الشعر لم يعد يستطيع أن يعبر عن حياة هذه الطبقة الاجتماعية التي كانت متوجسة من رياح التغيير التي أصابت هذه المدينة المتعلقة التي كانت تشكل ظاهرة من ظواهر اكتشاف النفط واستثماره منذ خمسينيات القرن الماضي أو قبل ذلك بسنوات.

لا أحد يستطيع أن ينكر أن التحول الاقتصادي الذي أصاب منطقة الخليج بعد اكتشاف النفط قد أثار الكثير من أوجه التغيير في مناح عديدة ومنها الفكرية والأدبية.

كما أن سبل الاتصال والتنقل والتعرف على ثقافات وإبداعات الشعوب قد أسهم في نمو طبقة مثقفة سعت إلى تغيير الوجه الفكري لدول الخليج. وقد تتبعنا وشاهدنا ظهور الكثير من التيارات الفكرية، واتحادات الكتاب وجمعيات الإبداع الفكري على نحو ما هو موجود في إمارة الشارقة في دولة الإمارات. تزامن كل ذلك مع تنامي تطور الرواية حتى مع ظهور أول

روايات ناضجة في بعض بلدان الخليج مثل رواية (شاهنده) لراشد عبد الله في الإمارات العربية المتحدة، ورواية (الجدوة) لمحمد عبد الملك، في البحرين، ورواية (البقعة الداكنة) لإسماعيل فهد إسماعيل، في الكويت، مما يشير أيضا إلى أن زمن الرواية جاء بدوره متأخرا عن فن الشعر.

هكذا برزت الرواية البحرينية أيضا متأخرا في الساحة الأدبية بالقياس إلى بقية الأشكال الأدبية الأخرى المتواجدة معها على نفس الساحة. إذ إن الكم الروائي الذي صدر حتى الآن لا يتجاوز عدد أصابع اليد، مما يعطي انطبعا على قلة عدد المبدعين الذين دخلوا هذا المجال. ويعود هذا التأخر في ممارسة الإبداع الروائي عند أدباء البحرين إلى تأخر المجتمع البحريني في الانفتاح على مظاهر الحياة العصرية وعلى الأشكال الثقافية الحديثة. وقد نشط الإبداع الروائي في مطلع الثمانينيات في هذه المنطقة من الخليج العربي. إذ لم تكن الساحة الأدبية في البحرين قبل هذا الوقت إلا مسرحا لقصائد الشعر والقصة القصيرة والمقال النثري، ولم تكن الرواية بزخمها المتشابك ونسيجها السردي المعروف، وخصوصياتها في سبر أغوار العالم والحياة إلا مطمحا عاليا للمبدعين في هذه المملكة.

فتشير التحليلات النقدية للرواية البحرينية إلى أنها حديثة العهد، وأنها في معظم ما رصدته إلى الآن لا تزال محلية الطرح والمضامين والأساليب، وأنها لم تصل إلى مستوى ما يصدر من روايات في المحيط العربي، وذلك لعدة أسباب موضوعية منها: تأخر تعاطي مفاهيم الحداثة في المجتمعات الخليجية، بما فيها البحرين. فجاءت الرواية الأولى في البحرين إلى حيز الوجود على يد الكاتب البحريني فؤاد عبيد الذي يعتبر أحد الكتاب الرواد في مجال القصة القصيرة، والرواية، والذي أصدر روايته الأولى "ذكريات على الرمال" في عام 1966م، التي تعتبر بالفعل ذات قيمة تاريخية، ونقطة

بداية لا يمكن القفز عليها. أتبعها فؤاد عبيد بمجموعتين قصصيتين هما:
"بدرية في طريق الحياة"، و"تأملات وهمسات في الحب" سنة 1971م.

وبدأت نهضة حقيقية في الأدب الروائي للبحرين في الثمانينات من القرن
الماضي من خلال أسماء أبرزها محمد عبد الملك الذي بدأ قاصاً أولاً، وصدر
له في هذا المجال "موت صاحب العربة" عام 1972م، و"نحن نحب
الشمس" في 1975م، و"السياج" في 1982م، و"النهر يجري" في 1984م،
و"ثقوب في رئة المدينة" في سنة 1997م. ثم نشر روايته "الجدوة" في عام
1980م، أتبعها برواية أخرى "ليلة الحب" في عام 1998م.

وفي السياق نفسه يذكر عبد الله خليفة الذي صدر له حوالي ثلاثين (30)
رواية بدءاً من روايته الأولى "اللآلي" في عام 1981م، كما أصدر روايته
الثانية "القرصان والمدينة" في سنة 1982، والثالثة "الهيئات" عام
1983م. وفوزية رشيد التي نشرت عدداً من القصص القصيرة ومجموعة
من الروايات مثل: رواية "الحصار" في سنة 1983م، و"تحولات الفارس
الغريب في البلاد العاربة" في عام 1990م، وغيرهما.

وأخص بالذكر هنا أن مرحلة الثمانينات وما بعدها تسجل اقتحام عدد من
الكتاب البحرينيين لمعترك الرواية، ومن هؤلاء أحمد المؤذن الذي بدأ
بالقصة القصيرة، ثم أصدر روايته "وقت للخراب القادم"، وهناك أمين
صالح الذي بدأ رواياتاً، وحسين المحروس ووليد هاشم وفريد رمضان
وفتحية ناصر وغيرهم.

أما التجربة النسائية في الرواية البحرينية فليس من شك أن أول امرأة كتبت
الرواية في البحرين هي فوزية رشيد ولها ثلاث روايات منشورة (الحصار،
تحولات الفارس الغريب في البلاد العاربة، والقلق السري)، وبعض
المجموعات القصصية، بالإضافة إلى ليلي صقر التي أصدرت رواية واحدة

وتوقفت، وفتحية ناصر أصدرت أيضا ثلاث روايات ، وهناك منيرة سوار ولديها رواية واحدة وكذلك هدى عواجي.

فلا يفقد الأمل في الرواية البحرينية خصوصا بعد دخول كتاب جدد أمثال: حسين المحروس ووليد هاشم وفريد رمضان وخالد القسام وفتحية ناصر وإيلي صقر ومعصومة المطاوعة وأمين صالح وجمال الخياط، حيث نرى مجالا لكتابة جديدة بدأت تقترب من الواقع، وتتسم بالجرأة من حيث التنوع والتلوين في القول والحكي والتقنن في استخدام التقنيات. ولذا شهدت الأعوام الأخيرة صدور روايات جديدة لمؤلفين بحريين في ظل محاولات لا تتوقف، ساهم في دورها وفعاليتها توفر كثير من دور النشر، ومساعدة وزارة الثقافة في طباعة الإنتاج الروائي، بجانب عوامل أخرى.

وقد كانت البدايات الأولى للرواية البحرينية متأثرة تأثرا كبيرا بهذا الواقع خاصة المؤثرات التي تمور بها الساحة الأدبية في العالم الغربي والعالم العربي، كانت تجد لها صدى في هذه البدايات، وكان المضمون العام لهذه الروايات ينسحب في إسقاطاته على الواقع الاجتماعي الذي تعيشه هذه المنطقة.

والتعبير عن الواقع هو الهم الأول للشكل الروائي في البحرين، سواء كان لواقع ينبع من صلب البيئة وما يطرأ عليها من تغير نتيجة للإنجازات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التي تحدث في بنيتها للمجتمع كما حدث في بيئة البحرين بصفة خاصة وبيئة دول الخليج بصفة عامة. كما أن الواقع النفسي الذي تضطلع به الرواية في الأعمال التي تتميز بهذا اللون من الكتابة، والذي تحشد له من الشخصيات التي تفرز من همومها وطموحاتها واقعا نفسيا يمثل هو الآخر واقعا اجتماعيا له خصوصيته.

أما عالم عبد الله خليفة الإبداعي في تجاربه الروائية فهو عالم البيئة الاجتماعية السائدة في البحرين بخصوصياتها ومتغيراتها وتحوراتها، وبكل ما تكتنف جوانبها من هموم ترتبط بالبحر والسواحل وحياة الصيد والغوص لاستخراج اللؤلؤ وتجارته. وكذا بكل ما طرأ على بيئتها الأساسية من متغيرات ملحة خاصة بعد ظهور النفط في أرضها ودخول عالم التقنية والمال وغزو العمالة الآسيوية وما صاحبها من تطورات على البنية الأساسية للبيئة البحرينية ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا.

وفيما يتعلق بسبب تحديد هذا الموضوع لإعداد هذا البحث، فحينما بدأت البحث عن موضوعات ذات أهمية بالغة في الزمن المعاصر، قرأت مقالين حول الأدب البحريني، لمست فيهما بأن كثيرا من الطلاب والدارسين وحتى بعض المثقفين والكتاب لا يعرفون عن التجربة الأدبية البحرينية ولا سيما عن الرواية منها، ونشأتها وتطورها في هذه المملكة من دول الخليج. وذلك لأنه لم يلتفت أحد من الباحثين والكتاب على الأقل بالمستوى الهندي إلى الكتابة عن الرواية البحرينية، رغم كونها بارزة في الأدب البحريني والخليجي. فهذا هو أهم البواعث التي حملتني على اختيار هذا الموضوع لكتابة بحثي هذا. فعزمت على أن أكتب عن تاريخ الرواية العربية في مملكة البحرين، وأقوم بإبراز مدى أهميتها في الساحة الأدبية والثقافية، وأخذت منها أكبر روائي، ألا وهو الروائي عبد الله خليفة لكي أقدم للقارئ مجهوداته القيمة في مجال إثراء الرواية البحرينية بكتاباتة، وتطويرها برواياته، وأسلط الضوء على أهم رواياته حتى تتجلى ملامحها وخصائصها الفنية، وما فيها من نقائص أدبية وفنية. وبالله التوفيق.

ويحتوي هذا البحث على أربعة أبواب، إضافة إلى مقدمة، وخاتمة، وقائمة لأهم المراجع والمصادر.

الباب الأول عبارة عن دراسة تاريخية للأوضاع الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية لمملكة البحرين خلال القرن العشرين، وما من شك أن هذا القرن يعتبر فترة مهمة في تاريخ البحرين الحديث.

ففي هذا القرن انطلقت البحرين نحو الحداثة والتنظيم والتطور، ففي الجانب السياسي، انطلقت البلاد من النظام القبلي التقليدي إلى الحكم المركزي القائم على أساس التنظيم الإداري والمالي، وتشكيل المجالس البلدية المنتخبة، كما إنه فترة سياسية مضطربة عرفت فيها البحرين المعارضة السياسية بشكلياتها السلمية والثورية. وفيما يرتبط بالجانب الاقتصادي فقد شهدت البحرين انتكاسة الغوص، بظهور النفط الذي غير مجرى الحياة الاجتماعية من حيث التغيير في أنماط العيش والتفكير الناتجين عن الوفرة المالية والتنمية البشرية والاحتكاك بالعمالة الأجنبية المرتبطة بالنفط. أما المجال الثقافي، فقد أنشئت لأول مرة المدارس النظامية في البلاد، والتي بدأت بإدارة أهلية ثم خضعت لإدارة المعارف الحكومية، ومع النهضة التعليمية برزت الصحافة، والمجالس الأهلية، والمسارح الفنية، وظهرت الأندية الثقافية الأدبية والروائية.

أما الباب الثاني فهو تاريخ الرواية العربية في البحرين، بما فيه نشأتها وتطورها بكل تفاصيلها. وقد قمت في هذا الباب بدراسة تحليلية لبعض روايات بحرينية ممتازة، وهي: رواية "الجدوة" التي أنتجها محمد عبد الملك في عام 1980م، وهي أول رواية بمعناها الفني في الساحة الأدبية البحرينية، ورواية "أغنية ألف صاد الأولى" لأمين صالح، التي صدرت عام 1983م، و"ألف صاد" هما رمزان لمؤلفها أمين صالح، ورواية فريد رمضان "السوافح" التي صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ببيروت، عام 2006م.

وفي الباب الثالث تحدثت عن حياة عبد الله خليفة، فقدمت فيه نبذة لا بأس به عن حياته، بدأ من مولده في 3 مارس، عام 1948م، إلى مغادرته عالمنا صبيحة يوم الثلاثاء، في 21 أغسطس، سنة 2014م. وفصلت فيه القول عن أعماله المتنوعة في مجال الصحافة، والفكر، والأدب، والرواية. ولا شك أن الكاتب والروائي عبد الله خليفة قد رحل إلى حياته الأبدية، ولكن آثاره الفكرية والأدبية والروائية باقية لا تزال.

وفيما يتعلق بالباب الرابع فقد قمت فيه بإلقاء الضوء على أهم روايات عبد الله خليفة، ودرستها دراسة تحليلية، حتى بذلت فيه جهودا مستطاعة لإبراز ما فيها من ملامح أدبية وفنية، ومظاهر سلبية وإيجابية، لكي يتضح أمام القارئ ما لها من أهمية بالغة ومكانة مرموقة في الساحة الأدبية على المستوى البحريني، والخليجي، والعالم العربي. وأخيرا قدمت خلاصة البحث باسم الخاتمة، وأحقيقه بقائمة لأهم المصادر والمراجع التي تمت الاستفادة منها أثناء إعداد هذا البحث المتواضع.

وأخيرا لا أخرا، أرى من الواجب علي أن أتقدم بجزيل الشكر وخالص التقدير إلى أستاذي الكريم ومشرفي الجليل الدكتور رضوان الرحمن - حفظه الله - الذي شجعني وأفادني بتوجيهاته الرشيدة وتعديلاته القيمة في سبيل كتابة هذا البحث، على الرغم من زحمة مشاغله وكثرة أعماله. (فأدعو الله سبحانه وتعالى أن يزيده بسطة في العلم والعمل، وأن يتمتع بالصحة والسلامة والتوفيق)، كما يسرني أن أعرب عن شكري وتقديري لأستاذي المخلص الدكتور مجيب الرحمن الذي ساعدني في تحديد هذا الموضوع. (أحسن الله جزائه)، ولا أنسى في هذه المناسبة أن أشكر الأخ الدكتور كاشف جمال، لأنه مد إلي يد العون والمساعدة كلما مست الحاجة إليه.

فجزاهم الله جميعا أحسن الجزاء، ووفقني وإياهم لما فيه الخير والسعادة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

ضياء الحق محمد لقمان
جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي.
10 / 06 / 2019 للميلاد.

الباب الأول

الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في البحرين
خلال القرن العشرين

البحرين: موقعها الجغرافي وأهميته من منظور تاريخي

مما لا شك فيه أن مملكة البحرين تحتل مكانة عريقة في سجل التاريخ البشري من أجل توفر العناصر الاقتصادية والحضارية فيها منذ أقدم العصور، حيث توفر لها الموقع الاستراتيجي، وتعددت فيه أنماط الإنتاج، ومصادر الثروة، بالإضافة إلى اتصالها بأغلب الحضارات القديمة وأبرز القوى في الحقب الإسلامية والحديثة. ولذلك فإنه لا بد من العناية بدراسة تاريخ البحرين عبر مختلف العصور، واستيعاب تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية ضمن الأوضاع الدولية والإقليمية، وطبيعة علاقة البحرين مع القوى الرئيسية في منطقة الخليج العربي، لأنه لا يمكن لأي أمة أن تنهض دون الرجوع إلى ماضيها، وتقصي جذورها الحضارية، وتبين سبل تحقيق التطور والازدهار.

ونتيجة لتوفر تلك العناصر الهامة عبر التاريخ، فقد تميزت مملكة البحرين بقدرتها على التزامن مع التطورات العالمية في مطلع الألفية الثالثة، وذلك من خلال المشروع الإصلاحي الذي قام به حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة، والذي نجح في تحقيق نهضة شاملة في البحرين، بحيث أصبحت الحاجة ملحة للإمام بهذه المرحلة الحامسة التي تشهد ها البحرين من جميع محاورها الحضارية، فدراسة التاريخ والعناية به جزء أساسي من مسيرة الإصلاح والتطوير الذي ينبع من تراث المجتمع وشعوره بالفخر والاعتزاز بإرثه وماضيه.

أصل التسمية لمملكة البحرين: البحرين من الناحية التاريخية هو اسم لإقليم جغرافي واسع يشمل غالب المناطق الشرقية من شبه الجزيرة المطلة على الخليج العربي وليس محصورا على الجزيرة الصغيرة بمملكة البحرين، وهو الإقليم الممتد من البصرة مرورا بالكويت والقطيف وقطر والأحساء.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن منظور قد ذكر في كتابه "لسان العرب" منطقة البحرين باسم "البحران" حيث قال: "البحران: موضع بين البصرة وعمان"، ثم أكمل كلامه إلى أن قال: "ويقال: هذه البحرين وانتهينا إلى البحرين"¹، فيه إشارة إلى أن اسم البحرين هنا قد أصبح علما وبذلك يختلف حكمه عن حكم المثني الذي يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء، فيبدو أن ابن منظور يرى أن الرأي الراجح هو إطلاق اسم "البحران" على المنطقة الممتدة بين البصرة وعمان، ولكنه في الوقت نفسه يذكر الرأي الآخر وهو "البحرين" ومما يؤكد إطلاق اسم "البحران" وإرادة "البحرين" أن ابن عبد ربه وغيره من الكتاب قد ذكروا "البحران" وهم يريدون "البحرين" في عدة مواضع من كتاباتهم مما يعني أن هذا الاسم كان شائعا في تلك الفترة وإن أصبح منسيا هذه الأيام.

واستنادا إلى ما سبق ذكره، يبدو أن النسبة المشهورة إلى البحرين وهي "بحراني" قد اشتقت من هذا الاسم الشائع قديما وهو "البحران"، إذ من المعروف نحويا أن النسبة عادة تكون بإضافة "ياء" في آخر اسم البلد، فيقال عراقي نسبة إلى العراق ومصري نسبة إلى مصر وغيرهما، وعلى أساس هذه القاعدة يبدو أن النسبة "بحراني" اشتقت من "البحران" وهو من الأسماء القديمة للبحرين، ومما يؤيد ذلك أن هذه النسبة "بحراني" تعتبر من الشواذ في مجال النسب، بمعنى أن العرب تقول لساكن العراق عراقي، فيجب أن تقول لساكن البحرين بحريني، ولكن العرب لم تقل هذه النسبة أبدا، وإنما كانت تصف ساكن البحرين بأنه "بحراني"، وقد اعتبروا النسبة إلى البحرين من شواذ قاعدة النسبة، وكون النسبة إلى البحرين تعتبر من الشواذ يجعلنا نتساءل عن السبب في ذلك، فلماذا أصبحت النسبة إلى

¹- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، عام 2010، ج4، ص 46.

البحرين من الشواذ؟ والإجابة على هذا السؤال قد تؤكد لنا إطلاق اسم "البحران" على "البحرين"، فحينما نعلم بأن البحرين كانت تعرف قديماً باسم "البحران" نعرف تبعاً لذلك أن النسبة الطبيعية للبحران هي بحراني، ولاشواذ ولاخروج على القاعدة النحوية في ذلك، ولكن بسبب هجران الاسم القديم وهو "بحران" والاقتصار على "البحرين" التبس الأمر وأصبحت "بحراني" كأنها من الشواذ في عالم النسب، في حين أنها لم تكن شاذة في وقتها، لأنها كانت مطابقة لاسم البحرين القديم وهو "البحران".

الموقع الجغرافي وأهميته: على الرغم من صغر مساحة جزر البحرين التي لا تزيد عن 63, 749 كيلومتر مربعاً²، إلا أنها غنية بتاريخها، فريدة في وضعها، وهي تمثل أكبر مجموعة من الجزر الأهلة بالسكان في الخليج العربي، وتقع في منتصف المسافة تقريباً بين مضيق هرمز ومصب شط العرب، وهي في الوقت نفسه قريبة من الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية، مما فرض عليها أن يتصل تاريخها على الدوام بتاريخ شرقي شبه الجزيرة العربية عبر إقليم البحرين. كما ربطت الجغرافيا الجزر بالإقليم هيدرولوجياً عبر التكوينات المائية الجوفية التي تمتد عبر شرقي شبه الجزيرة العربية³.

وقد هياً الموقع الجغرافي للبحرين وسط الخليج العربي أن تكون نقطة التقاء حضاري عبر التاريخ، من سومر في بلاد ما بين النهرين إلى ما جان في عمان وصولاً إلى بلاد السند مما يشهد على الاتصال الحضاري للبحرين كميناء حيوي للعالم على امتداد أزمنة التاريخ. كما أعطى هذا الموقع جزر البحرين أهمية خاصة عبر التاريخ، فهي منذ عهد مطمح الأنظار لثراء

² جهاز المساحة والتسجيل العقاري، جزر البحرين وإجمالي مساحتها في أغسطس 2008، (بيانات غير منشورة) نقلاً عن "تاريخ البحرين الحديث" (2002-1500)، للدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، ص 33.

³ محمد أحمد عبد الله (1977) "مصادر المياه في البحرين"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ع10، إبريل 1977، ص 99-77.

مغاصاتها باللؤلؤ، وهي واحة خضراء غنية بمياهها العذبة وسط خليج من الماء الأجاج، ومن ثم كانت ولا تزال مركزا مهما للتجارة وبخاصة تجارة الترانزيت على طريق من أهم طرق التجارة البحرية بين الهند وأوروبا، كما زاد من أهميتها اكتشاف النفط فيها منذ الثالث الأول من القرن العشرين⁴.

مختصر تاريخ البحرين: كانت البحرين خلال التاريخ، بسبب موقع جزرها الجغرافي ومياهها وزراعتها وراثتها النسبي، ملتقى أعراق مختلفة بين فترة وأخرى، فقد أدت هذه العوامل إلى جذب اهتمام كثير من القوى المحلية والإقليمية والدولية، فمن القوى المحلية التي بسطت سيطرتها على البحرين: العيونيون، والعصفوريون، والجبور في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر⁵، والهولة (عرب الساحل الشرقي من الخليج العربي) في الفترة ما بين القرن السابع عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، والعتوب منذ نهاية القرن الثامن عشر. والقوى الإقليمية كفارس في القرن الثامن عشر، ونجد وعمان في القرن التاسع عشر. والقوى الدولية كالبرتغال في الفترة ما بين بداية القرن السادس عشر إلى الربع الأول من القرن السابع عشر، وبريطانيا التي سيطرت على المنطقة منذ بداية القرن التاسع عشر، فضلا عن تواجد الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية من خلال صراع المصالح النفطية في منطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية. بالإضافة إلى أن بريطانيا حرصت على الاستفادة من أهمية الموقع الجغرافي لجزر البحرين من خلال تأكيد وجودها بإنشاء

⁴ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، ص 27.

⁵ - عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أبو حسين "دراسة في دولة العيونيين" الوثيقة، ع1، 1982، ص 12-35، وعلي أبو حسين، "الجبور: عرب البحرين" الوثيقة، ع3، 1983، ص 78-100، وكذلك: عبد اللطيف الحميدان، "إمارة العصفوريين ودورهم في تاريخ شرقي الجزيرة العربية"، الوثيقة" ع3، ص 26 - 74.

القواعد العسكرية⁶. فاتضح أن جزر البحرين قد استوطنها العرب والفرس وحتى الزنج خلال مختلف العصور التاريخية. أما سكان منطقة البحرين قبل الإسلام فكانوا عربا ينتمون إلى قبائل بني بكر وبني تميم وبني عبد القيس، ولا شك أن بعضا منهم قد سكن جزر البحرين الحالية. وكانت "منطقة البحرين" بعد ذلك مركزا للثورة ضد الأمويين ثم العباسيين، مما أدى إلى أن تتوافد على المنطقة مجموعات سكانية لاستيطانها. وقد أصبحت البحرين منطقة تابعة لفرس بسبب قيام دولة إسلامية فيها، وخاصة بعد سقوط الدولة العباسية، وبالتالي فإن عددا من الفرس سكنوا الجزر، ولكن عددا أكبر قد استقر هناك بعد احتلال الفرس لجزر البحرين في أوائل القرن السابع عشر، وبعد انحسار نفوذهم سكنتها قبائل عربية متفرقة. وخلال الربع الأخير من القرن السابع عشر، كان ثراء البحرين من الأسباب التي أغرت القبائل العربية التي تسكن الأرض الأم بالبحرين بغزوها. فهكذا قام العتوب مع حلفائهم باحتلال البحرين سنة 1782 م، وظل آل خليفة - فرع العتوب - يحكمونها إلى يومنا هذا⁷. ولموقع البحرين الجغرافي فإنها ارتبطت بعلاقات تجارية على مر السنين بالهند، ولذلك فإن عددا صغيرا من التجار الهنود كان يعيش في البحرين خلال القرن الثامن عشر، وما لبثت نسبة التجار الهنود أن أخذت في الازدياد، وبخاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والأول من القرن العشرين، عند ما أصبح الوضع السياسي أكثر استقرارا. وبازدياد اتصال البحرين بالخارج زادت نسبة التجار، ثم العمال الهنود بصورة كبيرة، ولا سيما بعد اكتشاف وإنتاج النفط فيها. وبسبب موقعها التجاري، فإن البحرين كانت على مر العصور، مركزا مهما لاستقرار التجار اليهود في الخليج. وقد كان عدد كبير منهم

⁶ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، ص 28-29.

⁷ - الرمحي، محمدغانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، ص 49 -

يعيش في البحرين أو في القطيف خلال القرن السابع عشر، إلا أن هذا العدد قد تقلص كثيرا في البحرين خلال القرن التاسع عشر بسبب الوضع السياسي الغير مستقر. ولكن ما لبث أن قدم إلى البحرين عدد من التجار اليهود خاصة خلال العقدين الأوليين من القرن العشرين وهم إما من العراق أو من إيران. ومن هذا يتبين لنا أن سكان البحرين حاليا يتألفون من أغلبية عربية وأقلية إيرانية وهندية مع مجموعة آخذة في التناقص من اليهود⁸.

⁸ - المصدر نفسه، ص 49 - 50 .

الأحوال الاجتماعية في البحرين خلال القرن العشرين

قد تجلى لنا مما سبق ذكره من تاريخ البحرين أن طبيعة البحرين كجزيرة تقع في وسط الخليج العربي، جعلتها مركز استقطاب لهجرات متعددة الأجناس والأعراق عبر التاريخ، وخاصة في ظل نمو التجارة من جهة، وغياب التنظيم في التجنيس والهجرة عند مطلع القرن العشرين من جهة أخرى. و مشيرا إلى هذا يكتب النبهاني " أن البحرين استقبلت العديد من الأعراق المختلفة من أهل فارس والهند والعراق من المسلمين والنصارى واليهود، كما احتضنت الهجرات العربية من نجد والأحساء وعمان واليمن وحضرموت"⁹. واستنادا إلى هذا يمكن تركيب السكان في البحرين على النحو التالي:

1- العرب: نظرا لموقع البحرين الجغرافي ومواردها الاقتصادية، كانت البحرين عبر التاريخ بمثابة ملتقى مجموعات سكانية من العرب وعناصر أخرى من فارس والهند وشرقي إفريقيا. وارتبطت البحرين بالإسلام، واصطبغ الاستيطان بموجات القبائل العربية التي سبقت الإسلام في دخول جزر البحرين كقبائل تميم وعبد القيس وبكر بن وائل. وقد تواصلت هجرات القبائل العربية إلى الخليج العربي منذ بداية الفترة الإسلامية إلى القرن الثامن عشر. فينتهي سكان البحرين في أصولهم السكانية إلى القبائل العربية التي قطنت إقليم البحرين قديما. وهم غالبية سكان البحرين من طائفتي السنة والشيعة. والشيعة الذين يعرفون في الأوساط المحلية بـ"البحارنة" هم السكان الأصليون للبحرين، ولهم مراكز سكانية مكتظة ويمثلون الغالبية العظمى فيها، لكن لا توجد إحصاءات رسمية لتلك الفترة تؤكد ذلك، إنما هي تقديرات متفاوتة من مصادر شتى، إذ ما ورد عن عدد

⁹ - النبهاني، الشيخ محمد، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ص 41 -

سكان البحرين قبل عام 1941 م (وهو عام تم فيه أول إحصاء رسمي في البحرين)، ليس سوى تقديرات لبعض المسئولين البريطانيين أو الرحالة الذين زاروا مملكة البحرين آنذاك. فيشير صلاح العقاد في هذا الصدد إلى "أن نسبة الشيعة بنحو 40% من السكان، بينما يؤكد كريم المحروس أن نسبتهم لا تقل عن 80%"¹⁰، أما أمل الزياتي فهي ترى "أنه من الصعب الإشارة إلى النسبة المئوية لكل طائفة إذ إن أعدادهم متقاربة نسبياً"¹¹.

لكن هناك مؤشر يدعم أن الشيعة هم الأصل والغالبية إذ تمركزوا في الأراضي الزراعية المأهولة للسكان في الوسط والأطراف، بينما قطن السنة في أراض صحراوية تم تمدينها كالرفاع وعسكر وجو أو مناطق ساحلية كالمحرق والمنامة وهي مناطق جاذبة للمهاجرين من الصيادين والتجار والمغامرين. ويسكن الشيعة في مختلف مناطق البحرين مثل: المنامة، وسترة، وقرى المنطقة الغربية وقرى المنطقة الوسطى، وقرى ساحل البديع، وقرى المحرق، وقد اشتغلت غالبيتهم بالزراعة والغوص والحرف اليدوية، فيما مارس عدد قليل منهم التجارة سواء في تجارة اللؤلؤ أو تجارة المواد التمويينية.

أما السنة فتتنتمي غالبيتهم إلى القبائل العربية التي هاجرت من نجد والأحساء وقطر بالتزامن مع دخول آل خليفة إلى البحرين في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي¹². وأصبحت الأغلبية منهم طبقة النواخذة والطواویش، مستفيدين من دعم آل خليفة لهم، الأمر الذي دفع بالكثير من القبائل العربية السنية للهجرة إلى البحرين، خاصة قبيلة الدواسر التي قدمت من شبه الجزيرة العربية إلى البحرين في عام 1845م، واستقرت بجوار

¹⁰ - المحروس، كريم، البحرين بين الأصالة ومظاهر التغيير السياسي، لندن، مؤسسة الرافد للنشر والتوزيع، 1997م، ص 16 .

¹¹ - الزياتي، أمل، البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي، رسالة ماجستير، القاهرة، جامعة القاهرة، 1976م، ص 246 .

¹² - جمال، زكريا، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، القاهرة، دار الفكر، 1997م، ج3، ص 192 .

الساحل الغربي للبيدع¹³. وقد انتظمت السنة في تجمعات قبالية أو مهنية، ويتضح ذلك جليا في أسماء أحياء المحرق، بخلاف الشيعة الذين انتظموا في مجموعات مدنية في ظل شعائر دينية خاصة بهم، إذ تكاثف وجودهم في القرى بشكل كبير، فلذلك كان للقريّة في البحرين مدلول اجتماعي تاريخي أبعد ما يكون عن التنظيم السياسي أو الاقتصادي، باختلاف مدينة المنامة، والتي يرتبط سكانها بفعاليات مختلفة دينيا واقتصاديا¹⁴. وعلى الرغم من احتضانها للغالبية الشيعية، إلا أنها تجاوزت البعد الطائفي، لتصبح مركز استقطاب لمختلف الجنسيات والأديان والمذاهب، وهذا ما يشير إليه السيد القاهري أحد مؤرخي المنامة في حوار خاص مع مجلة "المواقف البحرينية" عن مدينة المنامة بقوله: "إنها تشكل نسيجاً متعددًا من الأفراد والعوائل ومن طوائف شتى من سنة وشيعة وعجم وعرب وهنود ويهود"¹⁵.

2- الجاليات الأجنبية:

أ- الفرس: ارتبطت البحرين لأهمية موقعها الجغرافي بعلاقات تجارية على مر العصور بفارس والهند، ولذلك فإن عددا كبيرا من الفرس عاشوا في جزر البحرين منذ القرن السابع عشر الميلادي، واندمج معظمهم في مجتمع البحرين كمواطنين، خاصة بعد صدور قانون الجنسية البحرينى في عام 1937م. ولكن بعضهم قد هجرها بعد ذلك عائدا إلى إيران، وأما الباقون فقد ظلوا في البحرين، حيث قبلوا العيش كمواطنين بحرانيين¹⁶. فيعتبر الفرس الإيرانيون من أبرز العناصر الأجنبية التي وفدت إلى البحرين

¹³ - رملة عبد الحميد حسين، البحرين ما بين 1919م - 1939م، دراسة للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، رسالة ماجستير، الكويت، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، 2009م، ص 54.

¹⁴ - الخوري، اسحاق، القبيلة والدولة في البحرين، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1983م، ص 11.

¹⁵ - القاهري، عباس، لقاء مع السيد محمد رضاء القاهري حول كتب التراث في البحرين، البحرين، مجلة المواقف، نوفمبر 2002م، العدد 127، ص

19

¹⁶ - الرميحي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، ص 68.

للإقامة الدائمة. ويذكر أن الفرس قطنوا البحرين منذ احتلال الشاه عباس الأول البحرين عام 1602م، وبعد طرد البرتغاليين منها. وظلت البحرين منذ ذلك الوقت وهي تحت الحكم الفارسي ما يقارب المائة والخمسين عاماً، حتى قدوم آل خليفة إليها عام 1783م¹⁷.

هذا الوضع السياسي عمل على ازدياد الهجرة الفارسية إلى البحرين، واندماج الفرس في المجتمع البحريني لدرجة أن بعضاً منهم ذاب في المجتمع الزراعي وفقد هويته ولغته الفارسية. واستمرت هذه الهجرات حتى بعد انتهاء السيطرة الفارسية على البحرين. إلا أنه من الملاحظ أن غالبية الهجرات المتأخرة كانت منحصرة في طبقة التجار والتي كونت ثروات طائلة من تجارتها في الخليج، وقد رفضوا الاندماج بالمجتمع، محتفظين بلغتهم وعاداتهم الفارسية، ساكنين في أحياء خاصة في المحرق والمنامة عرفت كل منها باسم فريج العجم، وقد شكلوا ما يقارب 4% من مجموع السكان في تلك الفترة¹⁸.

وقد ازدادت الهجرات الإيرانية في فترة الثلاثينيات من القرن العشرين نتيجة لسياسة شاه إيران رضا بهلوي العسكرية، إذ إنه فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على الشعب الإيراني وفي الوقت ذاته ضغط على السكان العرب "الهولة"¹⁹. في إقليم عربستان وأجبرهم على الرحيل مما حدا بالكثيرين منهم - وخاصة سكان الساحل الشرقي المقابل للخليج - بالهجرة إلى البحرين وما جاورها²⁰. حيث أن الإحصاءات الرسمية تظهر لنا أن أكبر نسبة من الإيرانيين قد تواجدوا خلال العقد الرابع والخامس من

¹⁷ - صفوة، نجدة، الادعاءات الفارسية بالبحرين، مركز الدراسات العربية، مجلة الباحث العربي، مارس 1988م، العدد 18، لندن، 258 .

¹⁸ - صلاح، العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي من بداية العصور الحديثة حتى أزمة 1991م، مكتبة الأنجلو المصرية، 1991م، ص 256.

¹⁹ - يطلق الهولة على العرب الذين نزحوا من الخليج واستقروا في مناطق الساحل الفارسي. أنظر: الزياتي، فيصل، مجتمع البحرين وأثر الهجرة الخارجية في تغيير بنائه الاجتماعي، القاهرة، مطبعة دار التأليف، 1977، ص 373 .

²⁰ - التميمي، عبد المالك، الكويت والخليج العربي، الكويت، مؤسسة الشراع العربي، 1992م، ص 373 .

العشرين، حيث بلغت النسبة في إحصاء سنة 1950م حوالي 3، 6%، وفي الخمسينات أصبح العداء ظاهرا بين المواطنين والإيرانيين في منطقة البحرين حيث قويت الدعوة للقومية العربية وللقومية الإيرانية، ومن جراء المطالبة المستمرة من قبل إيران بالبحرين، فإن السلطة لم تكن ترتاح بوجود عدد كبير من الإيرانيين في البحرين²¹. وجدير بالذكر هنا أن الهجرة الإيرانية كانت تضم بين صفوفها عددا من اليهود، يقدر عددهم ما بين 30 - 40 فردا، وعرفت تلك الأقلية بثرائها الكبير، إذ عملوا في أعمال الصرافة والتجارة والعقارات²². وعاش يهود البحرين في حالة شبه معزولة في حي صغير في المنامة، ومارسوا عباداتهم وطقوسهم الدينية بكل حرية من دون اعتراض²³.

ب - الهنود: أما الهنود، فإن عددا قليلا من تجارهم كان يعيش في البحرين خلال القرن الثامن عشر، وما لبثت نسبة التجار الهنود أن أخذت في الازدياد، وبخاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عندما أصبح الوضع السياسي أكثر استقرارا، وبازدياد اتصال البحرين بالهند ازدادت نسبة التجار، ثم العمال الهنود بصورة كبيرة، ولاسيما بعد اكتشاف وإنتاج البترول فيها عام 1932م²⁴. فقدم الهنود إلى البحرين بعدد كبير في مطلع القرن العشرين للعمل بالتجارة أو الانخراط في سلك الشرطة، وتجدد الإشارة إلى أن أول تنظيم للشرطة الحديثة في البحرين - بعد رحيل نظام الفداوية - كان على يد الميجر ديلي إذ شكلها من الجالية الفارسية المقيمة في البحرين عام 1920م. لكنها حلت بعد أحداث مايو 1922م، واستعيض عنها بفرقة مكونة من مائة بلوشي من مسقط، لكن

²¹ - الرمحي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، ص 69 .

²² - صراي، حمد محمد، اليهود والخليج العربي، رؤية تاريخية نقدية، الكويت: مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، 2001م، ص 38 .

²³ - أنظر: مي الخليفة، بلجريف - السيرة والمذكرات، ص 309 .

²⁴ - الرمحي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، بيروت، دارالجديد، 1995م، ص 50 .

الأخيرة لم تحقق الهدف المنشود في إحلال الأمن والسلام، إذ تعرض موكب الحاكم الشيخ حمد عام 1926م لمحاولة اغتيال عن طريق إطلاق النار من مجهولين. هذه الحادثة عجلت برحيل البلوش، وأحلت الهندو محلهم²⁵. إذ قام المستشار البريطاني بلجريف باستقدام الجنود البنجابيين المسرحين من الخدمة العسكرية في الهند، وتم توظيفهم في سلك الشرطة بالبحرين²⁶.

ويذكر أن البحرينيين لم يتقبلوا الشرطة الهندو على اعتبار أنهم مرتزقة. أما التجار الهندو فقد قدموا إلى البحرين خلال العقدين الأولين من القرن الماضي من العراق وإيران في ظل غياب قانون الجنسية البحرينية حينذاك، حيث كان الذهاب والإياب من البحرين وإليها أمرا مفتوحا دون قيود. ويعتبر الهندو المعروفون بالبانيان من أكبر تجار اللؤلؤ في الخليج حيث كان أغلبهم من أصحاب ثروات طائلة لدرجة أن شيوخ الخليج غالبا ما كانوا يلجأون إليهم للإقراض عند حاجتهم الماسة لمبالغ مالية كبيرة، وعلى الرغم من تعرض التجار الهندو في البحرين لهزة اقتصادية ناتجة عن تدهور تجارة اللؤلؤ من جانب، والأزمة الاقتصادية العالمية من جانب آخر، إلا أنهم سرعان ما عادوا مرة أخرى إلى عهدهم السابق بسبب ظهور النفط وما رافقه من انتعاش اقتصادي في البحرين²⁷.

ج - اليهود: كانت البحرين على مر العصور بسبب موقعها التجاري مركزا مهما لاستقرار التجار اليهود في الخليج. وقد كان عدد كبير منهم يعيش في البحرين أو في القطيف خلال القرن السابع عشر. إلا أن هذا العدد قد تقلص كثيرا خلال القرن التاسع عشر في البحرين بسبب الوضع

²⁵ - الخوري، فؤاد اسحاق، (1983م)، القبيلة والدولة في البحرين، بيروت، معهد الإنماء العربي، ص 179 .

²⁶ - بلجريف، مذكرات بلجريف، ترجمة مهدي التاجر، بيروت، دار البلاغة، 2000م، ص 51 .

²⁷ - القاسمي، نورة، الوجود الهندي في الخليج العربي 1820 - 1947م، الشارقة، 1996م، ص 178 .

السياسي الغير مستقر. ولكن ما لبث أن قدم إلى البحرين عدد غير قليل من التجار اليهود خاصة خلال العقدين الأولين من القرن العشرين، وهم إما من العراق أو من إيران²⁸.

الهجرة - أسبابها وتداعياتها:

كما مر ذكره أن البحرين قد تزايدت الهجرة إليها وبصورة خاصة في مطلع القرن العشرين من البلدان الآسيوية المجاورة لها، ولاسيما من إيران والهند، وقد تفاقمت مع ظهور النفط. وترجع هذه الهجرات إلى عدة أسباب، أهمها ما يلي:

- 1- انتعاش التجارة في البحرين وبخاصة تجارة اللؤلؤ وتجارة العبور.
- 2- انفتاح البلد وعدم وجود قوانين ملزمة تحد من الهجرة والانتقال .
- 3- الظروف السياسية والاقتصادية الطارئة على إيران والهند - والتي أشرنا إليها سابقا - والمتمثلة في سياسة الشاه رضا بهلوي العسكرية في إيران، وتسريح أعداد كبيرة من الهنود من الخدمة العسكرية.
- 4- السياسة الاستعمارية البريطانية في البحرين والتي لعبت دورا بارزا في هجرة الهنود إلى البحرين، حيث اعتبرتهم من رعاياها في المنطقة، وبالتالي قامت بإجراء تسهيلات لهم في التجارة أو الانخراط في سلك الشرطة، بل إنها سعت إلى حمايتهم بتشريع قوانين خاصة، في الهند من تحجيم مصالح رعاياها من الهنود في البحرين. فطمأنه المعتمد بأن دار الاعتماد تقوم بالتسهيلات اللازمة لدخول الهنود وتوظيفهم في البحرين. بل إنها بدأت تفكر مليا بأن تقوم بافتتاح مدرسة لأطفال الهنود، بعد ما تكاثرت أعدادهم في البحرين²⁹.

²⁸ - الرميجي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، بيروت، دار الجديد، 1995م، ص 50 .
²⁹ - التميمي، عبد المالك، الكويت والخليج العربي، الكويت: مؤسسة الشراع العربي، 1992م، ص 373.

5- الصلات التاريخية بين البحرين وكل من إيران والهند، فالصلة الإيرانية بالبحرين، ترجع إلى أن الأخيرة قد رزخت تحت الحكم الفارسي لفترة ليست بالقصيرة، أما الصلات التاريخية بين البحرين والهند فتتمثل في العلاقات التجارية، وإدارة البانيان لدفة الجمارك البحرينية بمباركة من الشيخ عيسى بن علي، هذا الإرث التاريخي دفع كلا من الهنود والإيرانيين المهاجرين إلى اختيار البحرين داراً للإقامة والاستقرار.

6- السمات الحضارية والمدنية للمجتمع البحريني، جعلته مجتمعاً منفتحاً متقبلاً للآخر، فلذلك لم يجد الوافدون إلى البحرين حرجاً في الإقامة فيها، إذ أتيحت لهم حرية العبادة والعمل وإقامة العلاقات³⁰.

هذه الهجرات لها تداعيات كثيرة على المجتمع البحريني الذي تعددت أجناسه، فعلاوة على العرب والفرس والهنود، جاء الأوروبيون وبخاصة البريطانيون والأمريكيون الذين وفدوا مع تدفق البترول في منطقة الخليج. وعملت هذه الهجرات على اضمحلال التماسك الاجتماعي بسبب دخول عادات ومفاهيم جديدة، وانخراط أعراق مغايرة وصراعات اجتماعية، بالإضافة إلى انتشار مفردات أجنبية جديدة تداخلت مع اللهجة المحلية الدارجة، كما تأثرت الأزياء والأطعمة المحلية بمتغيرات جديدة لم تكن مألوفة سابقاً³¹.

³⁰ - رملة عبد الحميد حسين، البحرين - دراسة للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، (رسالة ماجستير)، الكويت، جامعة الكويت، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، 2009م، ص 58 - 59 .

³¹ - فوزي، مفيد، التيارات الفكرية في الخليج العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1985م، ص 44 .

الأوضاع السياسية في البحرين خلال القرن العشرين

اعتبر المؤرخون مطلع القرن السادس عشر بداية للعصر الحديث، حيث بدأت أوروبا تستفيق من سباتها العميق وتخرج من عصورها المظلمة إلى عهد الكشوفات الكبرى، وإن لم يكن العالم العربي يشهد حينذاك تحولا يذكر. فشهد مطلع القرن السادس عشر نهضة أوروبية كان من أهم نتائجها: الهجمة الاستعمارية على الشرق الإسلامي. وقد بذلت القوى الاستعمارية متمثلة في البرتغال ومن ثم هولندا وبريطانيا وفرنسا جهودا كبيرة لاحتكار تجارة الشرق والسيطرة على معابر التجارة العالمية عبر البحر الأحمر والخليج العربي. ومثلت البحرين في تلك الفترة أهمية بارزة لهذه القوى الاستعمارية بسبب موقعها الإستراتيجي في تجارة العبور وما تتمتع به من موارد وثروات.

كما بذلت القوى الإقليمية، متمثلة في الدولة العثمانية والدولة الصفوية، جهودا مماثلة لبسط نفوذها على البحرين التي أصبحت ساحة صراع بين القوى الدولية والقوى الإقليمية، حيث تمكن البرتغاليون في حركة خاطفة من بسط نفوذهم عليها عام 1521م. وبعد انهيار الوجود البرتغالي في مطلع القرن السابع عشر تنافس الهولنديون والبريطانيون للسيطرة على الخليج العربي، في حين تصارعت القوى الإقليمية للسيطرة على البحرين والتحكم بثرواتها³². فكان الخليج العربي خلال نهاية القرن السابع عشر في مرحلة صراع مريع إثر انهيار النفوذ البرتغالي واحتدام المنافسة بين الهولنديين والفرنسيين والبريطانيين، فقد نشطت التجارة الهولندية التي لم تتمكن من الصمود أمام المنافسة البريطانية التي بدورها واجهت مشاكل عديدة نتيجة للفوضى التي عمت فارس إثر انهيار الدولة الصفوية، كما أن دولة اليعاربة

³² - الدكتور، محمد أحمد عبد الله والدكتور، بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002م)، ص 73.

في عمان كانت قد توجهت بعد طرد البرتغاليين وتعقب فلول الهولنديين في الخليج العربي نحو شرقي إفريقيا لتأسيس مستعمرات لها في مناطق مثل ممباسة وزنجبار³³. وقد أدت حالة الصراع المستمر بين القوى الدولية والقوى الإقليمية إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية في الخليج العربي الذي شهد فراغا سياسيا، فكانت الفرصة مواتية لتحرك القوى المحلية متمثلة في القبائل العربية التي انتقلت من أوساط الجزيرة العربية في نجد نحو الساحل الشرقي للجزيرة العربية، ومن أهم هذه القوى المحلية حلف العتوب الذي نجح في تكوين عدة كيانات سياسية مزدهرة في الكويت والزابارة والبحرين³⁴.

وفي الوقت ذاته ظهرت العديد من القوى الإقليمية في القرن التاسع عشر، مثل دولة اليعاربة في عمان، والدولة السعودية الأولى في نجد، ودولة الزنبيين في فارس، إضافة إلى دولة محمد علي باشا في مصر، واستمرار الوجود العثماني في الخليج العربي. وقد تنافست هذه القوى للهيمنة على البحرين وبسط نفوذها عليها بالوسائل العسكرية والدبلوماسية حتى تدخلت بريطانيا لتحطيم قوة القواسم وفرض معاهدة السلام العامة التي أنشأت نظاما جديدا في المنطقة يقوم على سيادة بريطانيا وهيمنتها على حركة الملاحة والتجارة في الخليج العربي، وتدخلها المستمر لمنع أي قوة إقليمية من بسط نفوذها على البحرين، ومن ثم بدأت بريطانيا تتدخل في الشؤون الداخلية والخارجية للبحرين، فكانت النتيجة الحتمية هي اندلاع الخلاف بين بريطانيا وحكام البحرين آنذاك.

لقد جاهد آل خليفة خلال هذه الفترة العصبية للمحافظة على سيادة واستقلال البحرين وحمايتها من الأطماع الإقليمية والدولية، واستمرت جهودهم في

³³ - المصدر السابق، ص 119 .

³⁴ - فائق حمدي طهوب (1983)، تاريخ البحرين السياسي 1783 - 1870، الكويت، دارالسلاسل، ص 39 .

هذا الصدد حتى قامت بريطانيا بالتدخل العسكري المباشر عام 1869م لتزج بالشيخين محمد بن خليفة آل خليفة ومحمد بن عبد الله آل خليفة في سجونها بالهند، وتفرض بعد ذلك توقيع المعاهدة المانعة عام 1880م، والتي دخلت البحرين بموجبها تحت الحماية البريطانية التي استمرت حتى عام 1971م³⁵.

السياسة البريطانية تجاه البحرين قبل فرض الحماية عليها: بعد أن أحكمت بريطانيا سيطرتها على الهند، اتجه اهتمامها نحو بسط الهيمنة على الخليج العربي لما يمثله ذلك من أهمية إستراتيجية للوجود البريطاني في الشرق الإسلامي، ومن ذلك تأمين الطريق بين بريطانيا وبين مستعمراتها في شبه القارة الهندية. ومن أجل تحقيق أهدافها الإستراتيجية وتأمين مواصلاتها تطلعت بريطانيا إلى تأسيس مركز لها في المنطقة، حيث توجه اهتمام سلطة مومبائي نحو إنشاء محطات تجارية وعسكرية في إمارات الخليج العربي وعلى رأسها البحرين³⁶.

فشرعت بريطانيا في ترسيخ وجودها في الخليج العربي منذ مطلع القرن الثامن عشر، وذلك لعدة أسباب من أهمها:

- ترسيخ الوجود البريطاني في الخليج العربي لمواجهة الهيمنة العثمانية على الطرق التجارية عبر البحر الأحمر، حيث كان العثمانيون يعرفون حركة الملاحة الأوروبية فيه بين مخاف في اليمن والسويس في مصر، ولتحقيق ذلك قام البريطانيون بإنشاء عدة مراكز تجارية لهم في سواحل الخليج العربي، كما عمدوا إلى تأسيس قنصلية بريطانية في مدينة البصرة التي كانت تقع في نهاية خط الملاحة البحرية، وبداية الطرق البرية باتجاه البحر الأبيض المتوسط.

³⁵ - راجع "تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، للدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، ص 119 .

³⁶ - المصدر نفسه، ص 146 .

• قطع الطريق على القوى الأوروبية الهولندية والفرنسية والروسية من التغلغل في الخليج العربي والحصول على أي امتيازات اقتصادية أو عسكرية، ولذلك فرضت على سلطان مسقط توقيع معاهدة في 12 أكتوبر 1798م، تنص على أن يسمح السلطان بوضع قوة عسكرية بريطانية في ميناء بندر عباس التابع له، وأن لا يتعامل مع أي من القوى الأوروبية المتواجدة في الخليج العربي وبخاصة الفرنسيين والهولنديين. فلا يسمح بإقامة وكالة في مسقط ولا في بندر عباس، ويفتصر تعامله مع البريطانيين فقط³⁷.

وقد ارتكزت السياسة البريطانية في التمهيد لبسط سيطرتها الكاملة على البحرين في استغلال الخلاف الذي وقع بين عبد الله بن أحمد آل خليفة وأبنائه خلال الفترة 1833-1836، ومن ثم اندلاع الصراع بين الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة وحفيد أخيه الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان آل خليفة خلال الفترة 1842-1843، والذي انتهى بعزل الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة وتولي الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة الحكم، ولكن الشيخ عبد الله وأبنائه من بعده استمروا في المقاومة سلطة الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة في البحرين متخذين من الدمام وقطر قاعدة لشن هجمات ضد البحرين وعرقلة الحركة التجارية في المنطقة، وقد استمر هذا الصراع حتى عام 1869، فاتخذت بريطانيا منه حجة للتدخل المباشر في العديد من الشؤون الداخلية والخارجية للبحرين³⁸.

أما المبرر الثاني للتدخل البريطاني في البحرين فقد كان يتمثل في حماية البحرين من الأطماع الإقليمية وإبعاد كل من عمان وفارس ونجد، والمصريين والعثمانيين عن البحرين مما أتاح لها أن تتفرد في تسيير

³⁷ - العقاد، صلاح (1947)، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، ص 68 - 69 .
³⁸ - الزباني، أمل إبراهيم، ملامح من حياة الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة الحاكم الرابع، الوثيقة، ع7، يوليو 1985، ص 13.

شؤون المنطقة لصالحها، خاصة بعد أن حصلت على تفويض من قبل القوى المحلية في الخليج العربي بالقيام بأعمال الخفارة والدوريات والتفتيش في معاهدة السلام العامة سنة 1820م، مما أسبغ على وجودها العسكري صفة الشرعية والمحافظة على النظام³⁹. وخلال هذه الفترة حرصت بريطانيا على تنفيذ خططها في المنطقة والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- منع ظهور أية قوى في الخليج العربي من شأنها التأثير في موازين القوى لغير صالحها.
- دعم المصالح التجارية لرعاياها من الهنود في البحرين، ومنحهم حقوقا تفوق حقوق المواطنين.
- فصل جزيرة قطر عن البحرين بعد أن هيات الأسباب لذلك عام 1868م⁴⁰.

وقد اتبعت بريطانيا الوسائل القانونية والعسكرية في بسط سيطرتها على البحرين، فعقدت مع البحرين عدة اتفاقيات ذات طابع اقتصادي تدعمها القوة العسكرية مما مكنها من فرض الشروط البريطانية على حكام البحرين في تلك المرحلة، ولم تكتف بريطانيا بما منحت لها هذه المعاهدات من امتيازات اقتصادية وقضائية بل دأبت على تجاوز هذه المعاهدات والمطالبة بالمزيد من التنازلات التي مهدت لدخول البحرين رسميا تحت الحماية البريطانية⁴¹.

تولي الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حكم البحرين: تدهورت الأحوال الداخلية في البحرين بسبب الفراغ السياسي الذي نتج عن مغادرة الشيخ محمد

³⁹ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، ص 149 .
⁴⁰ - مي محمد الخليفة (1996)، محمد بن خليفة (1813 - 1890)، الأسطورة والتاريخ الموازي، بيروت، دار الجديد، ص 438.
⁴¹ - طهوب، فائق حمدي (1983)، تاريخ البحرين السياسي (1783 - 1870)، الكويت، دار ذات السلاسل، ص 26.

ابن خليفة آل خليفة البحرين عام 1868م، حيث بادر أخوه الشيخ علي بن خليفة آل خليفة إلى تولي الحكم، وأخذ يبذل جهودا حثيثة لتوطيد الأمن والاستقرار وتحقيق المصالحة بين الأطراف المتنازعة محليا.

وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها الشيخ علي بن خليفة آل خليفة لتعزيز أركان الأمن بالبحرين إبان الفترة 1868—1869، إلا أن الأطراف المعارضة لحكمه نجحت في تنظيم صفوفها وشن حملة ضد البحرين في شهر سبتمبر من عام 1869م، حيث خرج الشيخ علي بن خليفة آل خليفة بقواته لمواجهة القوات الغازية، وانتهت المعركة بمقتله واضطراب الأحوال في المنامة والمحرق، مما دفع القوات البريطانية للتدخل في البحرين بغية المحافظة على مصالحها وحماية تجارتها في المنطقة⁴². فتقدم المقيم السياسي البريطاني الكولونيل بيلي في مطلع ديسمبر 1869م على ظهر بارجة، تصحبه سفن حربية بريطانية بقيادة الكابتن دوغلاس، وبادر لدى وصوله إلى قصف المنامة والمحرق، ثم قامت القوات البريطانية بإلقاء القبض على الشيخ محمد بن عبد الله آل خليفة، والحاكم الأسبق الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة وعدد من وجهاء البحرين ونفيهم جميعا إلى الهند⁴³.

وعقب انتهاء العمليات العسكرية قام الكولونيل بيلي بمشاورات واسعة فيمن يتولى الحكم في البحرين بعد مقتل الشيخ علي بن خليفة آل خليفة، وكان إجماع وجهاء البحرين وأعيانها على المطالبة بقدم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ليتولى مقاليد الحكم، ويعمل على إحلال الأمن وإعادة الاستقرار الذي فقدته البحرين خلال العامين السابقين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد بن محمد بن خليفة آل خليفة البحرين قد غادر البحرين مع أهله إلى قطر بعد مقتل أبيه الشيخ علي

⁴² - ج، لوريمر (ط 1976)، دليل الخليج، القسم التاريخي، 3ج، ص 1350 - 1351 .

⁴³ - مي محمد الخليفة (1996)، محمد بن خليفة 1813 - 1890: الأسطورة والتاريخ الموازي، بيروت، دار الجديد، ص 146 - 147 .

ابن خليفة آل خليفة سنة 1869م، في المعركة التي سبق ذكرها آنفاً، ولم يمض على إقامته فيها سوى ثلاثة أشهر حتى تم استدعاؤه، ليكون حاكماً على البحرين⁴⁴. فتمت مبايعته حاكماً على البحرين وسط مظاهر الفرح والابتهاج، وذلك في الثاني من ديسمبر عام 1869م، وكان عمره لدى توليه الحكم 21 عاماً، واستمر في منصبه حتى وفاته في ديسمبر عام 1932م⁴⁵.

وورد في تقرير صادر عن حكومة الهند البريطانية حول الأحداث التي وقعت في البحرين بتاريخ 11 ديسمبر 1869م: "تولي الشيخ عيسى بن علي (آل خليفة) منصب الحكم الشاغر، وتم الاعتراف به من قبل المقيم السياسي البريطاني نيابة عن حكومة الهند، علماً بأن الكولونيل بيلى لم يتدخل بأي صورة للتأثير (على الشعب) في اختيار الحاكم الجديد"⁴⁶.

بسط الحماية البريطانية على البحرين: تميز عام 1880م بحدث مهم في تاريخ البحرين الحديث، حيث وقع فيه الشيخ عيسى بن علي آل خليفة اتفاقية مع الحكومة البريطانية التزم بمقتضاها بعدم الدخول في أي اتصالات مع الدول الأجنبية إلا بموافقة الحكومة البريطانية، وألا يسمح بإقامة وكالات أو محطات للفحم لهذه الدول على أراضيه، وقد تعهد فيها الشيخ عيسى بن علي عن نفسه وعن ذريته ومن خلفه، بأن لا يعقد أي اتفاقيات أو يدخل في أي اتصالات مع أي دولة أجنبية باستثناء بريطانيا، وألا يوافق على إقامة وكيل لأي دولة أجنبية على أرض البحرين دون موافقة الحكومة البريطانية⁴⁷، وفي عام 1892م أضاف الإنجليز على هذه المعاهدة بنداً جديداً ينص على تعهد الشيخ بعدم تنازله أو بيعه أو رهنه جزءاً من أراضيه لأي دولة ما عدا بريطانيا. وبمقتضى هذه المعاهدات حصلت

⁴⁴ - النبهاني، الشيخ محمد، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، (الطبعة الثانية)، مملكة البحرين، المكتبة الوطنية، 1999م، ص 135 .

⁴⁵ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، ص 166 .

⁴⁶ - المصدر السابق، ص 166.

⁴⁷ - الزباني، أمل، البحرين بين الاستقلال السياسي والاتلاق الدولي، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1976م، ص 81 .

بريطانيا على وضع قانوني واضح أمام المجتمع الدولي في البحرين، وأصبحت البحرين تحت الحماية البريطانية المباشرة التي استمرت عليها طوال الفترة الممتدة ما بين عامي 1880 و1971م. وبدأت بريطانيا تطبق سياستها الاستعمارية وتشدد قبضتها على الشؤون الداخلية والخارجية للبحرين من خلال ثلاث قوى بريطانية فعالة وهي: المقيم البريطاني في الخليج، المعتمد السياسي، والمستشار البريطاني⁴⁸.

وفي مقابل هذه الاتفاقيات التي التزم بها الشيخ عيسى بن علي، التزمت بريطانيا بما يلي:

- 1- حماية البحرين ضد أي تدخل خارجي.
- 2- حماية استمرار الاستقلال الذاتي والفردية للبحرين.
- 3- حماية المصالح الاقتصادية والسياسية للبحرين.
- 4- تنوب بريطانيا عن الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في القيام بأي عمل له صفة السيادة الخارجية من معاهدات وغيرها⁴⁹.

وبذلك أصبحت البحرين تخضع للحماية البريطانية بصورة رسمية، وتركز اهتمامها في مطلع القرن العشرين على تنظيم الأوضاع الداخلية في البحرين. ووضع الشيخ عيسى بن علي آل خليفة الأسس الراسخة لمملكة البحرين، فاهتم بالتطوير والإصلاح والتنظيم سواء على صعيد الإدارة الداخلية أو التنظيمات الجديدة فازدهرت التجارة وعد عهده العصر الذهبي للغوص، ومن أهم ما أنجز في عهده تنظيم ولاية العهد، وتأسيس البلديات، وتأسيس دائرة الشرطة والمكتب الجمركي، وإصلاح المحاكم، وكذلك إدارة التعليم الأهلي والنظامي للبنين والبنات وإنشاء النظام الصحي والمستشفيات، وغيرها من الترتيبات الإدارية والإصلاحات التي نقلت

⁴⁸- رملة عبد الحميد حسين، البحرين ما بين 1919 - 1939م، دراسة للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، رسالة ماجستير، ص16.
⁴⁹- الزباني، أمل (1994)، البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1976م، ص 91.

البحرين إلى العصر الحديث⁵⁰. وتطورت الحركة السياسية في البحرين، حيث ابتعدت عن المطالب المحصورة في النطاق الوظيفي أو الطائفي إلى المطالبة بإصلاح عام وشامل لكل الجوانب وخاصة التشريعية منها، متخذة طابع الوطنية والإصلاح شعارا لها⁵¹.

رد الفعل الوطني ضد الحماية البريطانية وانسحابها من البحرين: استمرت الحماية البريطانية على البحرين حوالي أحد وتسعين عاما (اعتبارا من سنة 1880م إلى سنة 1971م)، حيث دخلت البحرين ضمن إشراف حكومة الهند البريطانية، وأصبح الوكلاء السياسيون يتدخلون في جميع الشؤون المحلية، وقاموا باستغلال مقدرات البحرين وإمكاناتها لمصالح بريطانيا الاقتصادية والعسكرية.

فبدأ يتخذ رد الفعل الوطني ضد الحماية البريطانية صورا متباينة حسب الظروف والمراحل الزمنية التي مرت بها البحرين، وانعكس تطور المجتمع وثقافته على الطريقة التي أظهرت فيها القوى الشعبية معارضتها للحماية البريطانية، ففي مطلع العشرينات من القرن الماضي ظهرت حركة شعبية ضد محاولة تطبيق الأنظمة والقوانين المدنية والجنائية المعمول بها في الهند، بسبب أنها منافية للشريعة الإسلامية. وقد تزعم هذه الحركة الشيخ عبد الوهاب الزباني، وتلخصت مطالبها في: تشكيل مجلس وطني للإشراف على القضاء وتأسيس جمعية وطنية، وتنظيم جهاز شرطة محلي، وإصدار لائحة إصلاحات إدارية، ولكن المعتمد السياسي كلايف ديلى رفض هذه المطالب، مما أدى عقد مؤتمر وطني في مطلع عام 1920م، طالبت الحركة فيه بالالتزام بالشريعة الإسلامية، وانتخاب مجلس للشورى،

⁵⁰ - لمزيد من المعلومات راجع: علي أبا حسين، "الشيخ عيسى بن علي آل خليفة"، الوثيقة، ع19، ص 32 - 66 .
⁵¹ - رملة عبد الحميد حسين، البحرين ما بين 1919 - 1939م - دراسة للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، رسالة ماجستير، الكويت، مارس 2009م، ص 31 .

وتشكيل محكمة لدعاوي الغوص، وضرورة التزام المعتمد بالاتفاقيات المبرمة مع البحرين وعدم التدخل في الشؤون الداخلية. وكان رد ديلى عنيفا حيث سارع باعتقال عبد الوهاب بنحجي الزيناني وغيره من قادة الحركة، وأمر بنفيهم إلى الهند رغم اعتراض الشيخ عيسى بن علي على هذه الإجراءات⁵². ومن أجل ذلك، تم عزل المعتمد البريطاني في البحرين كلايف ديلى بسبب عنفه الشديد في التعامل مع الحركة الوطنية، وعين تشارلز بيلجريف مستشارا للشيخ حمد ابن عيسى آل خليفة عام 1926م، مما أدى إلى تهدئة الأمور حتى عام 1938م، عندما ظهرت حركة جديدة تطالب بإنشاء مجلس وطني للعدل والمعارف ونقابة للعمال واستبدال العمال غير الفنيين في شركة النفط بعمال محليين. ولكن بيلجريف أظهر التعنت في الاستجابة لتلك المطالب، وأمر بنفي قادة هذه الحركة الذين كانوا يمثلون تحول البحرين الاقتصادي والاجتماعي والذي انعكس في ظهور طبقة جديدة من عمال النفط.

ففي المرحلة التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية شهدت البحرين نموا في الوعي السياسي والقومي، وتمثل هذا الوعي في ظهور العديد من الأندية الرياضية والثقافية وغيرها من المؤسسات الشعبية التي أخذت تعبر عن رأي الجماهير، وانعكس هذا الوعي في تطور الحركة الصحفية في البحرين حيث صدرت العديد من الصحف والمجلات التي كانت تعبر عن آراء المثقفين وأفكارهم ورغبتهم في الاستقلال، مثل: "صوت البحرين"، و"القافلة"، و"الميزان"، و"الخميلة"، و"الوطن" وغير ذلك.

وقد بذل الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة جهودا حثيثة لتحقيق المطالب الوطنية التي تعززت عقب استقالة بيلجريف عام 1956م، حيث قام الشيخ

⁵² - المصدر السابق، ص 176 .

سلمان بإعلان تأسيس المجلس الإداري، وتشكيل مجالس للصحة والمعارف، وإصدار قانون للعمل، وقانون للمحاكم، كما بادر إلى إحلال العناصر الوطنية في هذه المؤسسات.

ويمكن القول بأن تطور رد الفعل الوطني في البحرين إزاء الهيمنة البريطانية يعود إلى عدة عوامل تتلخص فيما يلي:

- التطور الاقتصادي المتمثل في تدهور مهنة الغوص، وظهور طبقة جديدة من عمال النفط.
- نمو التعليم الأهلي اعتباراً من عام 1919م، والتعليم النظامي اعتباراً من عام 1926م.
- ظهور الأندية والجمعيات.
- تطور الصحافة، وزيادة الوعي العام بالقضايا المصيرية لمجتمع البحرين⁵³.

وكان الهدف الرئيسي من الوجود البريطاني في الخليج العربي منذ القرن التاسع عشر هو تأمين طريق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند، ولكن التطورات الدولية التي تسارعت وتيرتها عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية تسبب في تغير السياسة البريطانية تجاه منطقة الخليج.

فقد أدى استقلال الهند وباكستان عام 1947 إلى الانسحاب العسكري البريطاني من شبه القارة الهندية، ونتيجة لذلك أخذت بريطانيا تدرس خياراتها في الانسحاب من منطقة شرق السويس لعدم حاجتها إلى تأمين طرق المواصلات إلى الهند عبر الخليج العربي، بالإضافة إلى أن وسائل التسليح الحديثة لم تعد تتطلب وجوداً عسكرياً كبيراً بل أصبحت تعتمد على التفوق النوعي.

⁵³ - الزباني، أمل (1994)، البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي، القاهرة، ص 122 - 124 .

نتيجة لكل هذه العوامل أعلنت حكومة حزب العمال في يناير 1968م عزمها على الانسحاب من شرق السويس والخليج العربي في فترة أقصاها نهاية 1971م⁵⁴. فاستقلت دولة البحرين عن الحماية البريطانية في عام 1971م.

تطور النظام السياسي والإداري عقب الاستقلال: في الرابع عشر من أغسطس عام 1971م، أعلن حاكم البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة استقلال البحرين عن حكومة بريطانيا، وتبنى إثر ذلك سلسلة من إصلاحات إدارية تهدف إلى وضع دستور للبلاد، وترسيخ الوحدة الوطنية والحفاظ على المجتمع وخصوصياته. ففي اليوم التالي للاستقلال أعلن تشكل مجلس الوزراء برئاسة الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة، وانضمت البحرين إلى الأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية. وبعد أربعة أشهر من الاستقلال، أصدر الشيخ عيسى بن سلمان قانون تأسيس المجلس الوطني في ديسمبر 1971م، ثم أعلن عن تشكيل مجلس تأسيسي يتكون من 22 عضواً منتخباً وثمانية أعضاء معينين، وفي التاسع من شهر يونيو 1973م تم وضع أول دستور للبحرين، وتضمن بنوداً مهمة حول نظام الحكم، والفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وتحديد الحقوق والواجبات العامة بالإضافة إلى تناول سائر الشؤون الاجتماعية والاقتصادية وضمان الحريات الشخصية⁵⁵. وفي الحادي عشر من شهر يوليو 1973م، صدر مرسوم أميري بشأن أحكام الانتخابات للمجلس الوطني الذي يتكون من 30 عضواً ينتخبهم الشعب بطريقة الانتخاب العام السري المباشر، ويكون الوزراء أعضاء في هذا المجلس بحكم مناصبهم.

⁵⁴ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث، جامعة البحرين، 2009م، ص 178- 181 .
⁵⁵ - الزبيدي، مفيد (2005)، البحرين من الإمارة إلى الملكية الدستورية، عمان، دار أسامة، ص 18 - 19 .

وبعد أن تمت الانتخابات افتتح أمير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة المجلس الوطني في 16 ديسمبر 1972م وألقى خطاباً بهذه المناسبة الوطنية، وتم انتخاب رئيس المجلس، ونائبه، وأمين السر⁵⁶.

وبسبب احتدام الخلاف بين أعضاء السلطة التشريعية والتنفيذية، وتعرقل أعمال الحكومة جراء تلك الخلافات تقدمت الحكومة باستقالتها إلى أمير البلاد الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، فأصدر أمراً بتشكيل حكومة موسعة برئاسة الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة في 25 أغسطس 1975م، وإثر ذلك صدر أمر أميري بحل المجلس الوطني في 26 أغسطس 1975م⁵⁷.

ولتحقيق مبدأ المشاركة الشعبية وتكريسه في المجتمع، صدر مرسوم أميري في 20 ديسمبر 1992م بإنشاء مجلس الشورى، ويبلغ عدد أعضاء مجلس الشورى 40 عضواً، يمثلون فئات المجتمع البحريني وهم من ذوي الخبرة والرأي ويمارسون عملهم وفق نظام داخلي. ولضمان تحقيق الهدف من إنشاء المجلس وتعزيز دوره الاستشاري، وتطوير وظيفته في اقتراح مشروعات القوانين ومناقشتها وإبداء الرأي حولها، صدرت مراسيم أميرية بإدخال تعديلات على النظام الداخلي لسير العمل مما أدى إلى توسيع دائرة صلاحياته واختصاصاته، وأصبح يمارس المهمات الموكلة إليه بفعالية.

وفي السادس عشر من شهر يونيو 1996م، صدر مرسوم بقانون لإنشاء المحافظات في البحرين، ورصدت له الدولة الاعتمادات المالية اللازمة في موازنة عام 1997م، وكانت أولى المحافظات هي محافظة العاصمة (المنامة).

⁵⁶ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، جامعة البحرين، 2009، ص 197 .
⁵⁷ - توفيق الحمد (1996)، رجل وقيام دولة، البحرين، ص 183 .

وفي هذه الأثناء شهدت البحرين تطورات كبرى في شتى المجالات، فعلى صعيد السياسة الخارجية حصلت البحرين على عضوية مجلس الأمن للعامين 1998—1999، في أكتوبر 1997م، وذلك اعترافاً من المجتمع الدولي بمكانة البحرين الإقليمية والدولية⁵⁸. أما على صعيد التنمية المحلية فقد تم تأسيس وزارة للتنمية الصناعية بهدف تشجيع النشاط الصناعي، وذلك عام 1975. وفي شهر ديسمبر عام 1979 تم تأسيس شركة الخليج لصناعة البتروكيماويات، والفترة نفسها أعلنت حكومة البحرين تملكها الكامل لمرافق الإنتاج والتنقيب عن النفط، وصدر مرسوم أميري في نوفمبر 1980م بإنشاء مجلس أعلى للنفط.

كما شهدت الفترة نفسها نمواً كبيراً في قطاعات الصحة والإسكان والتعليم، حيث تأسست إدارة المراكز الصحية عام 1975م، وفي العام التالي تأسست كلية العلوم الصحية تحت إشراف وزارة الصحة عام 1976م.

وفي عام 1986 صدر المرسوم الأميري بإنشاء وتنظيم جامعة البحرين، وذلك بدمج كل من الكلية الجامعية للعلوم والآداب والتربية، وكلية الخليج للتكنولوجيا. كما تزامنت هذه الإجراءات مع طفرة كبيرة في مجالات التعليم على كافة المستويات، بالإضافة إلى تأسيس المراكز البحثية، وعلى رأسها مركز الوثائق التاريخية (1978)، ومركز البحرين للدراسات والبحوث (1981).

وفي شهر مارس عام 1999م توفي الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة بعد أن أرسى بناء الدولة العصرية ومؤسساتها، وتولى الحاكم الحالي الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة مقاليد السلطة في جو من الألفة والتوافق العام على

⁵⁸ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، جامعة البحرين، 2009، ص 198 .

مستوى القيادة والشعب⁵⁹. وفي 13 مارس من العام نفسه ألقى الشيخ حمد بن عيسى الخطاب الأول الموجه إلى الشعب البحريني، والذي اتسم بالشفافية والمصارحة، فشدد فيه على ضرورة التزام الوحدة الوطنية، والمساوات في الحقوق والواجبات وتغليب عنصر الإنتماء الوطني. كما أكد أهمية التضامن والتواصل بين القيادة والشعب بكل فئاته، وضرورة إشراك المواطنين في اتخاذ القرار، قائلا: "تعاهدكم أن نبقى بينكم ومعكم في كل خطوة، وفي كل مرحلة من عمانا الوطني، فنحن أقوياء بعون الله بكم ومعكم، وسنظلمكم على أفكارنا وتصوراتنا لمستقبل العمل الوطني، ويهمننا أن نستطلع ما لديكم من آمال وتطلعات لخير البحرين، في ظل ما تعارفنا عليه من تواصل بين القيادة والمواطنين منذ بدأ المسيرة⁶⁰.

المشاريع الإصلاحية لجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة: إن ما يميز تجربة البحرين في الإصلاح السياسي وجود رؤية واضحة ومشروع متكامل يمثل برنامجا سياسيا واضح المعالم والخطوات، فقد تولي جلالته الملك حمد بن عيسى آل خليفة سدة الحكم عام 1999م والعالم العربي يشهد أحداثا متسارعة وتحديات كبيرة على الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولعل التحدي الأكبر الذي كان ولا زال يواجهه المنطقة بأسرها يتمثل في القدرة على دخول القرن الواحد والعشرين بمشاريع إصلاحية تتواءم مع التطورات الكبرى التي تشهدها المنطقة وتتمكن من معالجة الإشكاليات الناتجة عن هذه التطورات.

وفي حين لا تزال الكثير من الدول النامية عاجزة عن تشكيل رؤية واضحة لمكان الخلل في كياناتها السياسية وأنظمتها الاقتصادية والإدارية فإن

⁵⁹ - لمزيد من المعلومات راجع: الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، البحرين، جامعة البحرين، 2009م، ص 197 - 198 .

⁶⁰ - عبد الجليل زيد مرهون (2001)، "الشيخ حمد ونموذجه القيادي، المبادئ الأساسية"، جريدة الرياض، 14 / 12 / 2001.

المشروع الإصلاحي الذي تقدم به جلالة الملك فور توليه السلطة جعل من البحرين مثالا يحتذى وتجربة يشار إليها في إمكانية أن تتعامل شعوب المنطقة مع تحدياتها بكفاءة عالية ودون الحاجة إلى وصاية خارجية مما دفع الكثير من المراقبين والمحللين في المنطقة العربية والعالم إلى وصف هذه التجربة بأنها واحدة من أجراً التحولات التي شهدتها الدول النامية في موجة التحول إلى الديمقراطية التي بدأت منذ التسعينات من القرن المنصرم، خاصة وأن المشروع الإصلاحي الذي طرحه جلالة الملك فاق في شموليته وعمقه الكثير من مطالب الإصلاح⁶¹.

فإن المشروع الإصلاحي لجلالة الملك قد ارتكز على الرؤية الشاملة لجميع مقتضيات التطوير والتحديث، حيث عمد جلالته إلى ترسيخ الدستور وتعزيز دور المؤسسات، ثم شمل مشروعه الإصلاحي جميع قطاعات التشريع والتنفيذ واستقلالية القضاء وتعزيز أنظمة الرقابة المالية والإدارية على أجهزة الدولة، وفي الوقت ذاته لم يغفل دور المجتمع المدني القادر على المشاركة الإيجابية والمساهمة في البناء والتطوير.

ومنذ الخطوات الأولى لإعداد الميثاق فإن جلالته قد حرص كل الحرص على تحقيق المشاركة الشعبية وإسهام كافة ألوان الطيف السياسي في التجربة الديمقراطية في إطار من التوافق العام على الوحدة الوطنية⁶².

ولعل من أبرز مميزات تجربة الإصلاح السياسي في البحرين مراعاتها للخصوصية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع البحريني. فقد جعل جلالة الملك من أهم ركائز مشروعه الإصلاحي المزج بين مواكبة تطور الثقافة العالمية والأنظمة الإدارية والاقتصادية مع خصوصية مجتمع البحرين وعاداته وتقاليده الضاربة في عمق التاريخ.

⁶¹ - جلال، محمد نعمان (2002)، نظرة على ميثاق العمل الوطني لمملكة البحرين في ضوء تطور مفهوم ودراسة العلاقات الدولية، البحرين، ص 18 -

24.

⁶² - خليفة، محمد (2001)، "الإصلاح السياسي في البحرين: المظهر والدلالة" شؤون خليجية، مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية، ع25، 2001.

كما اهتم جلالة الملك بضرورة التدرج في الإصلاح وعدم الإقدام على خطوات مفاجئة يمكن أن تأتي بنتائج عكسية، ومن ثم فإن خطوات المشروع الإصلاحي قد جاءت متدرجة خطوة بعد الأخرى حتى يتمكن المجتمع من استيعابها ابتداء من التصويت على الميثاق وانتهاء بإجراء الانتخابات النيابية وتشكيل البرلمان.

ومن أهم مرتكزات المشروع الإصلاحي لجلالة الملك كذلك تحقيق التوازن في كيان المملكة الدستورية التي أعلى صرحها، وتوزيع السلطات بطريقة عادلة بين المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وتمكين أفراد الشعب من التمتع بحقوقهم والقيام بواجباتهم عن طريق منع جهة من احتكار جميع صلاحيات الحكم مما يؤدي إلى فقدان المؤسسات الأخرى جدواها، ويمكن الحديث عن مشروع الإصلاح السياسي حسب التسلسل الزمني لخطواته ابتداء من إطلاق الحريات العامة وتبني سياسة الانفتاح، مروراً بإقرار ميثاق العمل الوطني وما نتج عنه من إعلان تحول البحرين إلى مملكة دستورية وما تلا الانتخابات البلدية بعد ذلك من ترسيخ للسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية والرقابية ودعم مؤسسات المجتمع المدني وحقوق الإنسان⁶³.

⁶³ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، البحرين، جامعة البحرين، 2009م، ص 200 - 201.

الموارد الاقتصادية للبحرين

اعتمد البحرينيون في معيشتهم على ثلاثة أنواع رئيسية من الأنشطة الاقتصادية التقليدية وهي: صيد اللؤلؤ والزراعة والتجارة.

أما الإثنان الأولان منها، فلم يكونا يمثلان مجرد مصادر دخل للبحرينيين، وإنما كانا طريقة للحياة أيضاً، ونتيجة للأعراف التي نشأ عليها الناس في هذا المجال، فإن هذين النشاطين من الاقتصاد قد ربطا أهل البحرين بعلاقات وأعراف اجتماعية كان من العسير التخلص منها إلا بمشقة.

ومع أن التجارة، وهي النشاط الثالث، لم تشكل مجالا واسعا، من حيث عدد العاملين بها، فإنها كانت مصدر دخل لا يستهان به بالنسبة للإمارة وبخاصة قبل اكتشاف النفط، وذلك عن طريق الضرائب المفروضة على الواردات.

وكان هناك بطبيعة الحال عدد من النشاطات الاقتصادية الأخرى كصيد السمك، وبناء السفن، وصناعة السلال، وحرفة الفخار، وحياسة النسيج، والحدادة وغير ذلك، لكنها لم تكن تستوعب الكثير من الأيدي العاملة، ولذلك فإن أهميتها كانت محدودة⁶⁴.

وهناك ظاهرة أخرى كانت مصاحبة لتلك الأنشطة، وهي أن العاملين فيها يمتلكون أدوات عملهم، وبخاصة في الزراعة وصيد اللؤلؤ، مما أوجد شعورا وهميا بحرية الانتقال من عمل إلى آخر، في حين أن الحقيقة أنه إذا التزم العامل بعمل ما فربما قضى حياته كلها في ذلك العمل.

وإن ما عرفناه من أنشطة اقتصادية تقليدية كان طيلة مئات، وربما آلاف من السنين هو مصدر الدخل الأساسي لمن عاش في جزر البحرين، سواء منهم من سكنها في السابق أو من وفد إليها أو احتلها، فلم يكن لهم جميعا

⁶⁴ - الرميحي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، بيروت، دار الجديد، 1995م، ص 81 - 82 .

مناص من مزاولتها نظرا لغياب أية خيارات أخرى. وصيد اللؤلؤ والزراعة، وهما من أهم النشاطات الاقتصادية حتى قبل الحرب العالمية الثانية، قد انتهى أمرهما ولم تعد لهما أهمية اقتصادية تذكر في الحياة الحديثة للبحرين، فإن اكتشاف اللؤلؤ الصناعي، إلى جانب الحياة الصعبة التي كان يعيشها العاملون في صيده، وكذلك وجود مصادر أخرى للعمل بعد اكتشاف البترول، كل ذلك قضى على هذه الصناعة.

أما الزراعة فقد كان المتوقع لها أن تزدهر، بعد أن جاءت أعداد كبيرة من العمال إلى البحرين للعمل في الأنشطة الاقتصادية الجديدة، نظرا لاكتشاف البترول، هذا إلى أنه كان من الطبيعي أن يزداد الطلب على المنتجات الزراعية، فتنشط بذلك اقتصاديا، لكن ذلك لم يحدث، لأن قوى العمل في الزراعة اتجهت إلى حقول النفط، كما أن سوء إيجار الأراضي والزيادة في استهلاك الماء، التي أدت إلى ارتفاع نسبة الملوحة فيه، كل ذلك جعل الاشتغال بالزراعة أكثر صعوبة، وأقل مردودا.

أما النشاط الاقتصادي الوحيد الذي ازدهر بين النشاطات التقليدية وأفاد من التحولات في مرحلة ما بعد النفط، فقد كان بطبيعة الحال هو التجارة. لقد ارتفع الطلب على البضائع المستوردة ارتفاعا كبيرا بسبب تدفق العمال إلى البحرين، وجاءت المرونة النسبية للعرض ملائمة للخبرة الكبيرة للتجار البحرينيين، فازدهر هذا القطاع كي يسد حاجة الاقتصاد النامي.

على أنه بالرغم من الاتساع الكبير لقطاع التجارة فإن طبيعته لم تتغير، فحتى الآن لا توجد مجموعات تجارية صناعية، أو بالأحرى لا يوجد تصنيع، وإنما نجد التاجر البحراني لا يزال يلعب دور الوسيط بين المنتج والمستهلك كما هو الحال في بقية مناطق الخليج النفطية.

وإلى جانب الوصف والتحليل الذي سنتناوله في الأسطر الآتية من الأنشطة الاقتصادية التقليدية وأثرها الاجتماعي، فإننا سنعرض للأنشطة الاقتصادية الحديثة كصناعة النفط وبعض الصناعات الأخرى، إلا أن هناك صناعات تقليدية صغيرة ما زالت قائمة كصيد السمك وصناعة الفخار، وبناء السفن، وبما أنها قليلة الأهمية في النشاط الاقتصادي فإننا لن نتناولها بالتفصيل.

تعددت الموارد الاقتصادية في المجتمع البحريني بتعدد منافذ الرزق المرتبطة بالطبيعة المتمثلة في الأرض والبحر من جانب، ومن جانب آخر ما أوجده الإنسان البحريني من حرف يدوية ونشاط تجاري يكفي به مؤونته ورزق عياله. ومن أهم هذه الموارد:

أولاً- الغوص على اللؤلؤ:

كانت صناعة اللؤلؤ مصدراً من المصادر الأساسية للدخل لسكان البحرين منذ قديم الزمان. وأماكن صيد اللؤلؤ حول جزر البحرين كانت مشهورة منذ آلاف السنين، فنحن نعرف على سبيل اليقين أن اليونانيين والعرب والبرتغاليين قد ذكروا في تاريخهم مصادد اللؤلؤ حول جزر البحرين. ومن الظاهر أن عدة أسباب ساعدت على جعل البحر المحيط بالبحرين صالحاً لتكوين اللؤلؤ، منها ضحالة المياه وشدة الحرارة في الصيف⁶⁵. شكّلت صناعة الغوص على اللؤلؤ حتى الثلاثينيات من القرن العشرين عصب اقتصاد البحرين، فقد كانت مغاصات اللؤلؤ حول جزر البحرين مشهورة منذ مئات السنين بما تدره من جيد اللؤلؤ، بالإضافة إلى ما كانت تمثله للعمالة المحلية كأهم مصدر للرزق، إذ كانت من الحرف التقليدية التي مارسها سكان البحر منذ القدم. وقد أشار الكثير من الرحالة في مختلف العصور إلى غنى البحرين باللؤلؤ. كما أن ظهور النفط في عام 1932م

⁶⁵ - الرميحي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، بيروت، دار الجديد، 1995م، ص 83 - 84 .

أدى إلى تحول عدد كبير من العاملين في حرفة الغوص إلى العمل في صناعة النفط كمصدر للرزق أكثر ضمانا واستقرارا⁶⁶.

وكان لصناعة الغوص أوقات وأسماء محددة. فهناك مثلا "الغوص الكبير" وهو الذي يكون في الفترة الرئيسية من موسم الغوص، ويمتد من بداية شهر حزيران/ يونيو حتى بداية تشرين الأول/ أكتوبر، وهذه الفترة تكون أحسن فترات الغوص على اللؤلؤ، لأن ماء البحر يكون دافئا. أما يوم "الدخلة" وهو يوم بداية الغوص، فإنه يحدد من قبل الحاكم، شأنه شأن يوم "القفال" أو الرجوع إلى البر. وبجانب هذه الفترة الرئيسية هناك فترتان إحداهما سابقة على الفترة الرئيسية والأخرى لاحقة لها، فالتى تسبق الغوص الكبير هي التي تسمى "غوص البارد"، وتمتد من نيسان/ إبريل إلى أيار/ مايو. أما التي تلحق الغوص الكبير فتسمى "المجني" وتمتد من تشرين الأول/ أكتوبر حتى آذار/ مارس. لكن فترتي الغوص "البارد" و "المجني" لا تعتبران من أصل النشاط الأساسي. ففيهما لا تخرج إلى البحر حول جزر البحرين سوى سفن صغيرة قليلة العدد، وهي لا تبعد كثيرا عن الشاطئ. ومن الآراء التي يأتي بها البحارة في الغوص البارد عن درجة حرارة المياه وأماكن وجود المحار يحدد اليوم الذي يبدأ فيه الفصل الرئيسي للغوص وهو "الغوص الكبير"⁶⁷.

ووصف الرحالة فارتيماطريقة الغوص في البحرين بقوله: "أما طريقة صيدهم فسأرونها لكم فيما يأتي: هناك صيادون اختصاصيون في صيد اللؤلؤ يركبون قوارب صغيرة، ويقذف الواحد منهم بحجر كبير مربوط بحبل سميك من ناحية مؤخرة القارب، وبحبل آخر من ناحية مقدمة القارب، وذلك ليبقى - أي القارب - ثابتا، ثم يقذفون بحبل آخر معلق به حجر أيضا

⁶⁶ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، البحرين، جامعة البحرين، 2009م، ص 45 .
⁶⁷ - الرميحي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، بيروت، دار الجديد، 1995م، ص 84 - 85 .

إلى قاع الخليج، وفي وسط القارب يقبل أحد صيادي اللآلي يعلق حقيبتين حول عنقه ويربط إلى قدميه حجرا ثقيلًا، ويغوص خمسة عشرة خطوة، ويبقى تحت الماء بقدر ما يستطيع ليجمع الأصداف الحاوية على اللآلي، ويضعها في الحقيبة المعلقة حول عنقه، ثم يتخلص من الحجر المربوط إلى قدميه ويصعد إلى ظاهر الماء مستخدماً الحبال التي ذكرنا ها آنفاً، وبعض الأحيان تتجمع سفن كثيرة تبلغ الثلاثمائة، تابعة لبلدان ومناطق مختلفة في هذه الجزيرة التي يحكمها سلطان مسلم⁶⁸.

وتفاوتت التقديرات حول عدد السفن والعاملين في هذه الصناعة، فقدرت في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر بنحو 1,500 سفينة، وفي أواخر القرن التاسع عشر بنحو 900 سفينة، بينما يشير لوريمر في عام 1907م إلى أن عدد السفن بلغت نحو 917 سفينة⁶⁹، يعمل عليها نحو 17,633 فرداً، أي نحو 18% من السكان البالغ عددهم حسب تقدير لوريمر 99,275 نسمة في بداية القرن العشرين. ومع مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي تعرضت صناعة استخراج اللؤلؤ في الخليج عامة والبحرين خاصة إلى التدهور والانحطاط، وأصبحت تجارة اللؤلؤ بالكساد، بسبب الأزمة الاقتصادية الكبرى عام 1929م، واكتشاف البترول عام 1932م، وبدأ إنتاجه في البحرين⁷⁰.

فمن الأرقام المتوافرة عن قيمة اللآلي المصدرة من البحرين خلال الفترة من سبعينات القرن التاسع عشر إلى ثلاثينات القرن العشرين، يتضح أهمية ما كانت تتمتع به البحرين من ثراء وشهرة في مهنة الغوص على اللؤلؤ ومدى تأثيرها في اقتصاد البحرين.

⁶⁸ - فارتيماء، رحلات فارتيماء، ترجمة وتعليق عبد الله الشيخ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م، ص 95.

⁶⁹ - ج. لوريمر (2002)، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ترجمة الديوان الأميري، الدوحة، م1، ص 380.

⁷⁰ - قاسم، جمال زكريا (1997)، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الأوضاع الداخلية في إمارات الخليج وعلاقات الجوار (1914 - 1945)، القاهرة: دار الفكر، ج3، ص208.

ثانياً - الجمارك: ومع هذه الأهمية المميزة للبحرين في قيمة ما كان يصدر من لؤلؤ، فإن الدخل المباشر لحكومة البحرين من مهنة الغوص على اللؤلؤ لم يأت إلا من خلال الضريبة المفروضة على سفن الغوص وبعض مبيعات اللؤلؤ، أما الضريبة الجمركية على التجارة خاصة في أعقاب مواسم الغوص حين تزدهر حركة البيع والشراء، فهي التي كانت تمد الحكومة بأكثر مصادر دخلها حتى اكتشاف النفط. ولهذا فقد اهتمت بريطانيا بممارسة الضغط على الشيخ عيسى بن علي آل خليفة لتعديل القواعد المنظمة لعوائد الجمارك بغرض زيادة التحكم البريطاني في شؤون البحرين.

ومن الملاحظ أنه في حين كانت الجمارك تمثل مصدر الدخل الرئيسي للبحرين قبل ثلاثينيات القرن العشرين، إلا أن النفط بدأ يسهم بدوره كمصدر للدخل منذ عام 1933م وإن لم تتجاوز هذه المساهمة 4%، إلا أنها وصلت إلى 42% عام 1936، وفي المقابل تناقصت مساهمة الجمارك في دخل الحكومة من 92% عام 1928 إلى 53% عام 1936، مما يشير إلى مدى الاعتماد على النفط كمصدر للدخل الحكومي في البحرين، وهو دور أخذ في التزايد بصورة أكبر بعد عام 1936 واستمر باعتباره المساهم الرئيسي في مصدر الدخل الحكومي إلى الوقت الحاضر (5, 78% من دخل الحكومة في عام 2006)⁷¹.

ثالثاً. الزراعة وصيد الأسماك:

أ - الزراعة: قبل اكتشاف النفط، كانت الزراعة هي المصدر الرئيسي الثاني لدخل أهل البحرين، والأرض المزروعة الآن في البحرين، صغيرة نسبياً، لا تتعدى عشر مجموع مساحة البلاد، إلا أنها كانت أكبر قليلاً من

Bahrain Country Profile 2008, The Economist Intelligence Unit, Dec. 2008, p.28.

⁷¹

السابق. ومعظمها الآن في الجزء الشمالي من أكبر الجزر (البحرين) حيث يتوفر مصدر الماء من الينابيع.

وأهم الحاصلات الزراعية في البحرين في العصر الحديث هي البلح والبرسيم، بالإضافة إلى الرمان والموز والأترنج والليمون والتين، فضلاً عن الكثير من الخضروات. وشجرة النخيل قد لعبت دوراً هاماً في حياة البلاد الاقتصادية قبل اكتشاف البترول، فهي قد وفرت للسكان البلح بمشتقاته، وهو كان الغذاء الرئيسي إلى جانب الأرز والسمك، وليس هذا فحسب، بل إن هذه الشجرة قدمت لهم كل ما يحتاجونه تقريباً، عدا الملابس. فهم استخدموا سعفها في بناء المنازل، وكذلك في صناعة الحصر والسلال، كما أن الجاف منه استخدم كوقود، وجذوع هذه الأشجار استخدمت في صناعة الأثاث، وفي البناء، وأعواد سعفها استخدمت لبناء مصائد الأسماك (الخطور)، وحتى الحبال كانت تصنع من ليف شجر النخيل. وبالتالي فإن هذه الشجرة كانت بمثابة محور الحياة الزراعية في البحرين⁷².

وقد تدهورت الزراعة في البحرين منذ ستينيات القرن الماضي، ويعود ذلك إلى الطلب المتزايد على موارد المياه الجوفية المحدودة في البحرين، مما أدى إلى انخفاض منسوب المياه الجوفية وإلى زيادة ملوحة التربة. وبنهاية سبعينيات القرن الماضي تم التخلي عن 75% من الأراضي الزراعية الأكثر خصوبة في النطاق الشمالي من جزيرة البحرين⁷³.

ب - صيد الأسماك: يعتبر صيد الأسماك أحد الأنشطة الاقتصادية التقليدية في البحرين، ويبلغ معدل الاستهلاك السنوي للفرد للأسماك في البحرين نحو 23 كيلوجراماً، وهي واحدة من أعلى المستويات في العالم. وقد أصدر بنك البحرين للتنمية المملوك من قبل الدولة أكثر من 5 ملايين دينار

⁷² - الرميحي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، بيروت، دار الجديد، 1995م، ص 100 - 101 .
⁷³ - Bahrain Country Profile 2008, The Economist Intelligence Unit, Dec. 2008, p.31.

بحريني (13 مليون دولار أمريكي)، قروضا دون فائدة لصيادي الأسماك البحرنيين منذ عام 2000م.

وقد أصبح قطاعا الزراعة وصيد الأسماك لا يمثلان سوى عنصرين ثانويين للغاية في اقتصاد البحرين، إذ لم يبلغ ناتج هذين القطاعين سوى 5, 21 مليون دينار بحريني في عام 2004م، أي ما يمثل أقل من 1% من الناتج المحلي الإجمالي. ولم تدرج أرقام الناتج المحلي الإجمالي لهذين القطاعين في أحدث إصدار لبيانات مصرف البحرين المركزي⁷⁴.

رابعا- التجارة:

ذكرنا فيما سبق أن النشاط التجاري في البحرين هو الوحيد الذي استمر ونما بعد التحول من الاقتصاد التقليدي إلى الاقتصاد الحديث، فأفادت التجارة من التحول الاقتصادي وازدهرت، وأصبحت السفن القادمة إلى البحرين والمنطقة منها تزداد عددا وتنوع بضاعة.

وكانت التجارة الرئيسية تعتمد في الأساس على اتصال البحرين بالهند، وإلى درجة أقل على اتصال البحرين بجيرانها العرب. أما وسيلة النقل الأولى فكانت، خلال القرن التاسع عشر، السفن الشراعية البحرانية الكبيرة والمتوسطة، ولكن ما إن أطل القرن العشرون حتى أصبحت هذه السفن غير اقتصادية في خدمة هذا الطريق، وحلت محلها السفن البخارية التجارية الكبيرة، إلا أن تلك السفن ظلت ولمدة ليست بالقصيرة تخدم خطوطا أخرى بين البحرين والعجير، الدمام، الدوحة، الكويت، عمان، وبعض موانئ فارس.

ولم تتأثر البحرين اقتصاديا باستعمال السفن التجارية، وخصوصا أن الشركة البحرية الهندية البريطانية اتخذت من البحرين مركزا لتصرف

⁷⁴ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، البحرين، جامعة البحرين، 2009م، ص 50 .

البضائع التي تجلبها من الهند وغيرها من الموانئ الرئيسية ومن ثم توزع على مناطق الخليج الأخرى.

ونظرا لنمو التجارة فإن السلطات البريطانية قامت بفتح فرع لأول بنك في الخليج، وهو البنك الشرقي الذي فتح أبوابه في عام 1920. وقد استخدم هذا البنك من قبل العناصر التجارية الأجنبية في البحرين في بداية الأمر، ولكن ما لبث أن أقدم على التعامل معه كبار التجار البحارنة.

وهناك عامل آخر ساهم في تطوير التجارة في البحرين، وهو قد جاء نتيجة الوضع السياسي القائم بين السعودية والكويت والذي امتد حوالي عشرين عاما من سنة 1920م إلى سنة 1942م، عندما قاطع ابن سعود أية بضائع قادمة إلى نجد من الكويت، وبالتالي فقد تحولت كل تلك البضائع إلى البحرين، ومنها عن طريق البحر إلى العجير ميناء الأحساء ثم إلى داخل نجد⁷⁵.

فعقب الحرب العالمية الأولى شهد قطاع التجارة في البحرين تطورا مهما، إذ عرفت البحرين الوكالة التجارية على يد الحاج يوسف بن أحمد بن كانو، حين أصبح وكيلا لعدد من الشركات الأجنبية. كما عرفت البحرين تجار الجملة وهم التجار الذين يستقبلون السفن التجارية الكبيرة المحملة بصنوف من المواد الاستهلاكية من الهند وعمان والعراق والكويت وإيران والسعودية، ثم يقومون بتخزينها تمهيدا لبيعها على تجار التجزئة⁷⁶. وفي النصف الثاني من ثلاثينيات القرن الماضي ظهر تطور كبير في قطاع التجارة، إذ تم تأسيس غرفة خاصة بالتجار عام 1939م، عرفت باسم "جمعية التجار العمومية"⁷⁷.

⁷⁵ - الرميحي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، بيروت، دار الجديد، 1995م، ص 111 - 112.

⁷⁶ - البحارنة، تقي، أوراق ملونة، مملكة البحرين، مكتبة فخرآوي، 2000م، ص 101 - 104.

⁷⁷ - المحميد، علي حسن، تاريخ البحرين الحديث، أبوظبي: 1938م، ص 34.

وتطور التجارة في البحرين شجع كثيرا من المواطنين على الاتجاه لهذه المهنة كمصدر عمل، وإن كان هذا الاتجاه بطيئا، لكنه مستمر. وقبل اكتشاف النفط مباشرة كانت الضريبة على البضائع المستوردة والمعاد تصديرها تشكل نسبة كبيرة من الدخل القومي للبحرين، فمثلا في سنة 1930م، كونت ضريبة الجمارك 98% من مجموع الدخل القومي في البلاد.

ونمو التجارة بهذا الشكل جعل من المحتم إنشاء جهاز خاص لمتابعة مصالح التجار، وأصبح الجهاز التقليدي الذي كان يسمى "مجلس العرف" والذي كان يعمل كلجنة يرشح أفرادها الشيخ نفسه، وتعمل كموفق بين التجار في المشكلات التي تطرأ، أصبح هذا الجهاز لا يفي بالغرض، فظهرت في سنة 1939م الحاجة لإنشاء جهاز آخر يمثل التجار، فأنشئت في ذلك العام غرفة التجار البحرينيين، وتم اعتراف الحكومة بهذه الغرفة رسميا في سنة 1951م، وسميت "غرفة التجار" ثم عرفت سنة 1968م باسم "غرفة تجارة وصناعة البحرين"⁷⁸.

أما تجارة الاستيراد في البحرين في أثناء الخمسينات والستينات فلم تنم نموا كبيرا فحسب، بل تغيرت مصادرها أيضا، فمن حيث النوع تغيرت من كونها موادا أساسية في الغالب إلى مواد كمالية، ثم زادت التجارة في البحرين بعد القرارات المشجعة والتي منها بناء ميناء عميق، (ميناء سلمان)، الذي انتهى العمل به بعد عشر سنوات تقريبا من إقراره، وذلك في سنة 1962، ويمكنه أن تتسع قائمة بواخر من عابرات المحيطات في وقت واحد، كما زود بمخازن كبيرة. ثم صدر في سنة 1975م قرار بجعل قسم منه "منطقة حرة" فألغيت الضريبة على البضائع التي يراد إعادة تصديرها.

⁷⁸ - الرميحي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي، بيروت، دار الحديث، 1995م، ص 113.

ومن المحتمل أن تتغير الأمور في المستقبل فيما يتعلق بتجارة الاستيراد والتعاون الخليجي خاصة على المستوى الإقليمي، وفي هذا الصدد ينبغي أن نذكر أن المؤتمر الثالث لغرف صناعة وتجارة الخليج عقد في البحرين سنة 1971م، وفي هذا المؤتمر طرحت أفكار لمشروعات مشتركة.

وكما أشرنا إليه في السابق، فإن حجم الاستيراد ومصدرها لم يتغيرا قط، وإنما تغيرت أنواع البضائع المستوردة، وخصوصا بعد الحرب العالمية الثانية، فبعد أن كانت محصورة في الأساسيات الضرورية من مأكّل وملبس ووقود، أصبحت تشمل الملابس الفاخرة والسيارات والسجائر والكماليات الأخرى، كما أصبح استيراد الماكينات وقطع الغيار ومواد البناء والتعمير يشكل نسبة كبيرة، وكان التوسع في استيراد مثل هذه البضائع أمرا ضروريا لتلبية أشكال جديدة من بينها أشكال الاستهلاك الغربي التي طرأت بعد التغير الاجتماعي الكبير الذي حصل في البحرين⁷⁹.

ومن الطبيعي أن البحرين - رغم قلة ما تنتجه للتصدير عدا النفط - تعمل حسب موقعها الجغرافي كمركز لإعادة التصدير، ولهذا السبب فإن العلاقة بين فرعي التجارة الخارجية، وهما الاستيراد والتصدير، علاقة متلازمة وطرديّة، فمتى نما فرع الاستيراد كان من الطبيعي أن ينمو فرع إعادة التصدير، والعكس بالعكس.

وطبيعة البضائع المعدة لإعادة التصدير لا يحددها البحرانيون أنفسهم، فهي بالطبع تناسب احتياجات البلدان التي تصدر إليها، إلا أنها في الغالب تماثل البضائع التي تستهلك في البحرين، وأهم هذه البضائع هي المواد الغذائية وحاجيات البيوت والآلات⁸⁰.

⁷⁹ - المصدر نفسه، ص 116 - 119 .

⁸⁰ - المصدر نفسه، ص 122 - 123 .

إنتاج النفط في البحرين: قصة ظهور النفط في البحرين لا تختلف كثيرا عن جاراتها من إمارات الخليج. ويعتقد أن الفضل في اكتشاف النفط في البحرين يرجع إلى مواطن نيوزلندي يدعى فرانك هولمز. وقد قدم هولمز إلى البحرين على رأس وفد لشركة النقاية الشرقية العامة، وهي شركة بريطانية متخصصة في التنقيبات عن الآبار الارتوازية. وبعد الحفريات التي أجراها هولمز لاستخراج المياه في البحرين، تلمس إمكانية وجود النفط وبكميات تجارية، الأمر الذي دفعه لإقناع شركات النفط البريطانية للتنقيب عن النفط في البحرين، لكن محاولاته باءت بالفشل، مما جعلته يتجه نحو الشركات الأمريكية. وقد حصلت شركة الخليج الشرقية " Eastern Gulf " على امتياز التنقيب لمدة سنتين، تنازلت عنه لشركة ستاندر للنفط في كاليفورنيا " Standard Oil of California " والتي بدورها حولته في عام 1930 م إلى فرعها الجديد في كندا الذي يحمل اسم شركة نفط البحرين (بابكو) ⁸¹.

وبينما منح الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة شركة بابكو امتيازاً للتعدين في 29 ديسمبر 1939م لمدة 55 عاما على مساحة 100,000 فدان، فإن الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة منح بابكو في 19 يونيو 1940م حقوقاً للتنقيب في منطقة أوسع خارج نطاق الـ 100,000 فدان التي يتضمنها عقد التعدين ⁸².

وفي حين تم اكتشاف النفط في البحرين في 2 يونيو 1932م من بئر عند سفح جبل الدخان والذي بدأ التنقيب فيه في 16 أكتوبر 1931م، فإنه تم تصدير أول شحنة من نفط البحرين الخام التي بلغت 25,082 برميلا في 7 يونيو عام 1934م على ظهر ناقلة النفط (ال سكوندو) التابعة لشركة

⁸¹ - جيمس، بالجريف، البحرين ترحب بكم، البحرين: منشورات وكالة الخليج للإعلان والخدمات، 1970 م، ص 51 .

⁸² - شركة نفط البحرين الوطنية، بنوكو (1992)، من اللؤلؤ إلى النفط في البحرين، البحرين، ص 10 - 15.

سوكال من رصيف سترة إلى ميناء يوكوهاما في اليابان. كما تم تدفق النفط من حقل أبوسعفة البحري في عام 1966م. وتشترك البحرين مع المملكة العربية السعودية في ملكية حقل نفط أبوسعفة البحري، وقد حصلت البحرين على نصف إيرادات إنتاج هذا الحقل، الذي بلغ 145,100 برميل يوميا في عام 2006م⁸³.

وقد تم التوسع في مجال التنقيب عن النفط فأعيد التنقيب للمرة الثانية في حوار في عام 1962م بعد حفر البئر الأولى هناك في عام 1947م، بالإضافة إلى التنقيب في سترة في عامي 1966م و1977م، وفشت الجارم في عام 1961م، وأم النعسان في عام 1973م وغيرها من أعمال التنقيب. كما تم إعطاء شركة سوبيريو الأمريكية امتيازاً للتنقيب في جزر حوار وشمال البحرين في عام 1970م⁸⁴.

ونقل كميات إنتاج واحتياطيات النفط في البحرين بكثير عن سائر دول الخليج العربي، وكما هو الحال مع سلطنة عمان، فإن البحرين غير منضوية في منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك). ووفقاً لشركة نفط البحرين (بابكو) المملوكة من قبل الحكومة، فقد كان إنتاج حقل البحرين البري الوحيد (العوالي) 35,849 برميل يوميا في عام 2006م. كما قدرت هيئة الطاقة الدولية إجمالي احتياطي النفط في البحرين في بداية عام 2003م بنحو 125 مليون برميل. ولا تتوفر تقديرات رسمية لاحتياطي النفط في البحرين، لكن يقدر أن هناك ما يكفي من احتياطيات النفط لأكثر من 15 عاما. ومع ذلك فإن إنتاج النفط قد انخفض على الرغم من أن معدل الانخفاض قد تباطأ إلى حد كبير من 14% في السنوات الأخيرة إلى 1,5

⁸³ - المصدر السابق، ص 17.

⁸⁴ - الدكتور محمد أحمد عبد الله والدكتور بشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002)، البحرين، جامعة البحرين، 2009م، ص 51.

% في عام 2006م. وقد اتفقت البحرين والكويت في مارس 2007م على الاشتراك في حفر 70 بئرا إضافية في غضون السنوات القادمة⁸⁵.

وقد منحت شركة بابكو في عام 2005م عقدا للشركة التايلاندية للاستكشاف والإنتاج (PTTEP) للتنقيب عن النفط والغاز في القطاعات البحرية 1 و2 إلى الشمال الغربي من جزيرة البحرين.

وتعتبر شركة بابكو هي المسؤولة عن جميع أنشطة البحرين النفطية، وقد تم تأسيس شركة قابضة في أغسطس 2007م لإدارة حصة الحكومة البالغة 100 % في شركة بابكو، وحصتها بنسبة 75 % في شركة غاز البحرين الوطنية (بنا غاز)، وحصتها بنسبة 60 % في شركة بافكو لوقود الطائرات، وحصتها بنسبة الثلث في شركة الخليج للصناعات البتروكيميائية (جيبك). كما تعزم أيضا الاستثمار في شركات الطاقة خارج البحرين⁸⁶.

أثر النفط على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البحرين: مما لا شك فيه أن النفط قلب الموازين الاقتصادية في البحرين، فانعكست آثاره على الوضع الاجتماعي، إذ غير من أنماط الحياة التقليدية المعتادة إلى حياة جديدة لم تكن في الحسبان.

1- التطور الاقتصادي وأثره على التنمية البشرية: يشير المؤرخ الاقتصادي "لونج مچ" معقبا على تداعيات اكتشاف النفط في البحرين بقوله: (ليس هناك مجتمع أو حكومة انتشلت بصدفة، في وقت مناسب من كارثة اقتصادية كما حصل للبحرين سنة 1932م)⁸⁷. فقد أطلت الأزمة الاقتصادية العالمية (1929م) بظلالها الثقيل على البحرين، وخلفت كسادا اقتصاديا استمر حتى عام 1932م، حيث لم تجد تجارة اللؤلؤ منفذا لها في

⁸⁵ - المصدر السابق، ص 51.

⁸⁶ - راجع للتفصيل نفس المصدر، ص 50 - 52.

⁸⁷ - نقلا عن الرمحي، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، 1975م، ص 44.

الهند أو أوروبا، كما انخفض دخل البحرين في تلك السنة من 8200 إلى 500 جنيه إسترليني، ولم يكن بمقدور الحكومة دفع المرتبات، ما جعلها تخضم 10% من رواتب الموظفين، وتزيد من الضرائب الجمركية بمقدار الضعف على البضائع التجارية. فجاء النفط ليكون منفذا للوضع الاقتصادي المتردي في البحرين، حيث بدأ إنتاجه يتزايد بشكل كبير إذ وصل إلى مليون طن عام 1935م، مما جعله يساهم بنسبة 60 إلى 65% من دخل الحكومة عام 1940م⁸⁸.

وبطبيعة الحال ارتفعت ميزانية حكومة البحرين بعد عام 1933م، وبالتالي تضاعفت المخصصات المالية للإدارات العامة والخدمات المحلية، إذ زودت الحكومة البلدية والأشغال العامة بالأموال اللازمة للمشاريع المختلفة من رصف الشوارع وبناء الجسور ومد شبكة المياه والكهرباء في أرجاء البحرين، وتطورت الخدمات الصحية في البحرين بعد إنتاج النفط حيث انتشرت العيادات الصحية في مدن البحرين⁸⁹.

ومع ظهور النفط والثروة الهائلة اندثرت صناعة الغوص وتقلص الإنتاج الزراعي واقتصر على ثمار النخيل وبعض الخضروات. أما التجارة فقد نمت بشكل كبير، إذ زادت الوكالات التجارية في المجتمع البحريني، وخاصة القائمة على تجارة الكماليات والمواد الغذائية المستوردة من المملكة العربية السعودية والهند والعراق وشرق إفريقيا. كما وفر النفط وظائف مستقرة برواتب ثابتة ومرتفعة نسبيا لعدد كبير من أبناء البحرين العاملين في شركة بابكو، فانعكس ذلك بشكل إيجابي على حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. كما حقق النفط فرصة لوجود الشركات الكبرى والبنوك العالمية، إذ افتتح فرع للبنك الشرقي في البحرين عام 1932م بكلفة

⁸⁸ - الخليفة، مي، تشارلز بلجريف، السيرة والمذكرات (1926 - 1957)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000م، ص 125.

⁸⁹ - أبو حسين، علي، مقتطفات من تاريخ الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة، البحرين: مركز الوثائق التاريخية، مجلة الوثيقة، يناير 2003م، ص 143.

مقدارها 75,000 روبية، ليفتح المجال أمام غيره من البنوك للإستثمار في البحرين⁹⁰.

2 - النفط وأثره على الحياة الاجتماعية: لا يستطيع أي باحث فصل الاقتصاد عن الحياة الاجتماعية، إذ أن كثيرا من التقلبات الحياتية في المجتمع مرجعها التحولات الاقتصادية. والنفط عامل اقتصادي ومحرك أساسي لتغيرات اجتماعية كبرى في البحرين. ونستطيع تحديد هذه التغيرات الاجتماعية في ثلاثة أوجه جديدة أولها: تغيير النمط الاجتماعي، وثانيها: قيام طبقة اجتماعية جديدة هي عمال بابكو، وثالثها: الهجرات الأجنبية من موظفي شركات النفط.

ومع ظهور النفط تحول المجتمع من البحر والزراعة إلى الآلة والتقنيات وعالم المال والاستقرار الوطني. وأمام هذا التغيير لم تصمد عادات المجتمع وتقاليد بل اهتزت وتداخلت مع ثقافة جديدة مغايرة امتدت إلى اللباس والأطعمة والبيت، وبدا التأثير الغربي واضحا في معالم الحياة في البحرين بعد ظهور النفط، ولم تسلم التشكيلة السكانية في المجتمع البحريني من التغيير من جراء تدفق أموال النفط، إذ تعززت الطبقة البرجوازية التي استغلت الثروة النفطية في اكتساب مزيد من الوكالات التجارية وأعمال المقاولات المتزايدة مع النمو والتطور العمراني، وقد عززت هذه الطبقة هيمنتها الاقتصادية بالتحالف مع السلطة، ويعتبر أبنائها من طليعة الليبراليين والمنادين بالإصلاح والتغيير، كما ظهرت طبقة جديدة هي الطبقة الوسطى من موظفي الحكومة والذين أخذوا قسطا وافرا من التعليم المحلي المنتشر بسبب زيادة مخصصاته من الثروة النفطية، هذه الطبقة اكتسبت وعيا سياسيا وثقافيا مميزا، أهلها لأنها تحمل الهم الوطني والتأثر

113- رملة عبد الحميد حسين، البحرين ما بين 1919 - 1939م - دراسة للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، رسالة ماجستير، الكويت، جامعة الكويت، مارس 2009م، ص 79.

بمجرى الأحداث والتطورات السياسية والفكرية إقليمياً وعالمياً، فأصبحت في شد وجذب مع السلطة مستغلة عمال النفط وقوداً للمواجهة.

وعلى الرغم من أن النفط أثار في التشكيلة السكانية في البحرين، لكنه استطاع أن يردم الشق بين السنة والشيعية في البحرين، إذ أصبحت التحالفات قائمة على أساس اقتصادي وفكري أثناء الثروة النفطية، وقد تزايدت الهجرة الأجنبية إلى البحرين بفعل ثروات النفط، فقد جاء الأمريكيون والبريطانيون كخبراء نفط، بينما قدم الهنود كإداريين وفنيين للعمل في الشركة، حيث اشترطت الحكومة البريطانية في عقود النفط مع الشركة الأمريكية على استقدام الهنود للعمل في بابكو.⁹¹

ونتيجة لذلك فقد أوجد النفط طبقة جديدة في المجتمع البحريني تتمثل في طبقة العمال الهنود في الشركة، إذ تمتعت هذه الطبقة بمزايا الشركة من الخدمات السكنية والصحية بالإضافة إلى الرواتب المرتفعة التي يحصلون عليها.

⁹¹ - القاسمي، نورة، الوجود الهندي في الخليج العربي 1820 - 1947م، الشارقة: منشورات دائرة الثقافة والإعلام، 1996م، ص 163.

الحركة الثقافية في البحرين خلال القرن العشرين

تعتبر الحركة الثقافية في البحرين من أكثر الحركات الثقافية نشاطا في منطقة الخليج العربي، فمنذ العشرينات من القرن الماضي دخل التعليم دولة البحرين، وأخذت شرائح المجتمع بالتواصل مع الثقافة المحيطة من خلال المجالات والدوريات العربية، مما ساعد على بناء قواعد ثقافية جيدة، تحصد البحرين اليوم نتائج هذه الفترة. فهناك كثير من المسارح كمسرح أوال ومسرح جلامش ومسرح الصواري، بجانب دور الثقافة كأسرة الأدباء والكتاب البحرينية، ومركز شيخ إبراهيم، والملقى الثقافي الأهلبي، وكذلك بالنسبة للنشاط الفني سواء في الموسيقى أو الرسم، فهناك أكثر من جمعية تهتم بتطوير الكادر البحريني، ووضعها في السياق الحضاري بجانب أخوة في مساحة الكون.

الفن: ظهرت الحركة الفنية البحرينية الحديثة في الخمسينات من القرن العشرين، مع إنشاء نادي الفنون والآداب في عام 1952م. فخدم النادي كمجموعة مظلة للفنانين المحترفين والهواة، والموسيقيين. والجهات الفاعلة في البحرين، في عام 1956م، أولا عقدت معرضا فنيا في العاصمة البحرينية "المنامة"، فضلا عن فن الخط العربي هي أشكال شعبية الفنية في البلاد. وقد اكتسب شعبية التعبيرية التجريدية في العقود الأخيرة⁹².

المسرح:

مسرح البحرين في شكله الحالي نشأ في أوائل القرن العشرين، بعد إدخال التعليم النظامي في البلاد. وقد كانت مسرحيات الظل وعروض الدرامي واسعة الانتشار سابقا في البحرين، وأدخلت على النمط الأوروبي مسرحيات الدراما لأول مرة في المدارس، والمسرحيات التي كتبها

⁹² - البحرين - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة - (<https://ar.m.wikipedia.org>.....)

المسرحيين العرب قد تم في وقت لاحق تضمينها في المناهج الدراسية. كما أصبح المجتمع المدني أكثر اهتماماً بالمسرح وتتاثر بأمثال توفيق الحكيم وسعد الله ونوس. شهدت البحرين عصراً ذهبياً منذ 1970م من الكتاب المسرحيين مثل علي الشرقاوي، إبراهيم العريض، عقيل سوار ويوسف الحمدان. تستضيف البلاد ثلاث شركات للمسرح: مسرح أوال، مسرح الجزيرة ومسرح الشركات الصواري. وفي عام 2012م تم افتتاح المسرح الوطني في مملكة البحرين.

فتوجد الآن في البحرين عدة شركات ومؤسسات مسرحية ومن أهمها:

- * مسرح الصواري
- * مسرح أوال
- * مسرح البيادر
- * مسرح جلجامش
- * مؤسسة المسرح الشعبي
- * مؤسسة المسرح الأهلي
- * مسرح الريف
- * مؤسسة مسرح البحرين للإنتاج الفني
- * مسرح البحرين الوطني⁹³.

اللغات واللهجات:

اللغة الرسمية في البحرين هي اللغة العربية، بينما تستخدم اللغة الإنجليزية على نطاق واسع وكلغة رسمية في الأعمال. توجد هناك لهجتان للغة العربية في البحرين، هما اللهجة البحرانية، يتكلمها أهل القرى، وهي مشابهة للهجة أهل العراق والمحمرة، واللهجة الخليجية يتكلمها أهالي

⁹³ - "البحرين - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة" - (<https://ar.m.wikipedia.org>...)

المدن، وهي مشابهة للهجات دول الخليج العربية على الرغم من الاختلافات الطفيفة. اللغة العربية تلعب دورا فائقا في الحياة السياسية والاجتماعية، فوفقا للمادة 57 (ج) من دستور البحرين يجب أن يكون النائب يجيد اللغة العربية للوقوف عن البرلمان بين السكان البحرينيين وغير البحرينيين. وكثير من الناس يتحدثون الفارسية وهي اللغة الرسمية في إيران، أو الأردنية التي تعتبر لغة رسمية في باكستان. والنيبالية أيضا تتحدث على نطاق واسع في العمال النيباليين والمجتمع جورخا الجنود. وتستخدم المالايالامية والتاميل والهندية بين الجاليات الهندية. وعدد كبير من المؤسسات التجارية وعلامات الطرق هي ثنائية اللغة، وعرض باللغتين العربية والإنجليزية⁹⁴.

الصحافة:

كانت الصحافة العربية والمحلية في البحرين المربي الأساس للمتقنين والأدباء، فقد لعبت دورا فعالا في تشكيل الوعي القومي والاهتمام بالقضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية، وأيقظت في الناس حب العمل بما تبثه من ثقافة تنويرية انتقادية للأوضاع العربية والمحلية، وتشهد على سعة الذهنية الثقافية وتحولها إلى قضايا الاجتماع والسياسة بما يحمله الجيل الجديد من آمال الرقي والتقدم والإصلاح وبعث النشاط الفكري، وظهر هذا الدور في المظاهر الأدبية الأخرى، ومنها الشعر الذي تميز باتجاه تنوير تربوي ينتصر للعدالة والحق في وجه الظلم والجهل. فكانت الصحافة هي الرائد في مجال النشاط الثقافي والاجتماعي⁹⁵.

⁹⁴ - معلومات عن مملكة البحرين - تاريخ مملكة البحرين، (<www.bahrainhistory.net>.....)

⁹⁵ - الشانجي، هلال، الصحافة في الكويت والبحرين منذ نشأتها حتى عهد الاستقلال، البحرين، مطبوعات بانو راما الخليج، 1989م، ص: 123.

الصحف والمجلات الوافدة: جاءت الصحف والمجلات الدورية إلى البحرين عن طريق المجالس المحلية والمكاتب، ويتم الحصول عليها إما عن طريق التجار القادمين من الهند حيث كان التجار العرب هناك على اتصال دائم بالصحافة العربية، أو عن طريق الاشتراك السنوي للمجلة. وكانت مكتبة الإرسالية الأمريكية في البحرين تستقدم بعضاً من المجلات العربية مثل: مجلة "المقتطف"، ومجلة "الهلال"، والتي ساهمت بشكل فائق في رفع المستوى الثقافي لدى قرائها من البحرينيين⁹⁶. فالصحافة الوافدة تؤكد تلك التحولات التي طرأت على اتجاه المثقفين وارتباطهم بالقضايا المعاصرة.

الصحافة المحلية:

كان للحرب العالمية الأولى أثرها القوي في إحساس الناس في البحرين بالحاجة إلى معرفة الأخبار والرغبة في قراءة الصحف. ففي أوائل مارس سنة 1939م، صدرت جريدة "البحرين"، وظلت تصدر مدة خمس سنوات ونيف مرة في الأسبوع، وكان مقرراً لها أن تصدر يومياً لولا معوقات فنية عانت منها صحف الخليج في مرحلة ما قبل الاستقلال. ثم جاءت إلى حيز الوجود مجلة "صوت البحرين" في أغسطس من عام 1950م، والمجلة تصدرها لجنة من شباب البحرين، فهي مجلة العمل المشترك بين الشباب المثقف من ذوي الأهداف الفكرية والاجتماعية، جمعت بين دفتيها ميول المثقفين ودعوتهم التنويرية الإصلاحية، وسعت جادة في توجيه المجتمع البحريني، أسهم في الكتابة على صفحاتها كثير من الأعلام الخليجية والعربية، وعبرت عن تطلع جيل الشباب في البحرين والخليج⁹⁷.

⁹⁶ - رملة عبد الحميد حسين، البحرين ما بين 1919 - 1939م - دراسة للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، رسالة ماجستير، الكويت، جامعة الكويت، مارس 2009م، ص: 46 - 47.

⁹⁷ - الشايجي، هلال، الصحافة في الكويت والبحرين منذ نشأتها حتى عهد الاستقلال، البحرين، مطبوعات بانوراما الخليج، 1989م، ص: 129.

وذكرت صوت البحرين حين صدورها: "أن هناك صحيفتين تصدران في البحرين إضافة إلى النشرة الرسمية التي تصدرها الحكومة البحرينية لنشر أنباء الدوائر والإعلانات والمناقصات واللوائح وغير ذلك. أما النشرة الرسمية فقد صدرت في سنة 1948م"⁹⁸.

فلا ريب أن الصحافة لعبت دوراً هاماً في بث الوعي القومي ونشر العلوم والمعارف والثقافات، ولذا تصدر الآن من الجهات الناشرة والكاتبة الفاعلة في البحرين عدة الصحف والجرائد باللغة العربية سواء كانت يومية أم أسبوعية وهي كما تلي:

- * صحيفة أخبار الخليج (يومية): وهي الصحيفة الأولى منذ 1976م.
- * صحيفة البلاد (يومية)
- * صحيفة الوسط (يومية)
- * صحيفة الأيام (يومية)
- * صحيفة الوقت (يومية)
- * صحيفة الوطن (يومية)
- * صحيفة الميثاق (يومية)
- * صحيفة العهد (أسبوعية)
- * صحيفة النبأ (أسبوعية)
- * صحيفة أسواق (أسبوعية اقتصادية)⁹⁹.

⁹⁸ - المصدر نفسه، ص: 145.

⁹⁹ - معلومات عن مملكة البحرين، تاريخ مملكة البحرين، (...> bahrainhistory.net)

لمحة تاريخية عن التعليم في البحرين

كان التعليم بالبحرين في مطلع القرن العشرين مقصورا على الكتاتيب فقط وهي بيوت تعليمية تقليدية هدفها الأساسي تعليم قراءة القرآن، ولم تكن تلك الكتاتيب تحقق كفاية تعليمية تناسب التطور العلمي عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، فقد تغيرت الأحوال والأمور وأدى انفتاح البحرين إلى إحداث تغييرات سياسية واجتماعية كبيرة فيها، ونتج عن ذلك انبثاق الوعي الثقافي والاجتماعي بين أفراد مجتمع البحرين، وبحكم ذلك ظهرت الحاجة إلى إنشاء معاهد تعليمية حديثة تختلف عن الكتاتيب من حيث نظمها ومناهجها وأهدافها.

البحرين لم تعرف التعليم العصري إلا في نهاية القرن التاسع عشر عندما بدأت البعثات الأجنبية التبشيرية بإقامة مدارس لها على الجزيرة. فبدأ التعليم الحديث شبه النظامي في البحرين عام 1892م، على يد الإرسالية الأمريكية حين قامت زوجة صمويل زويمر بافتتاح مدرسة لتعليم اللغة العربية واللغة الإنجليزية، والحساب، إلى جانب الكتاب المقدس في الديانة المسيحية، وكان الهدف الأساسي لهذا النشاط كما هو معروف التبشير للدين المسيحي. ولم يكن التلاميذ يستمرون في الدراسة والتي كانت مدتها أربع سنوات، إذ كان آباؤهم يرسلونهم إليها ليتمكنوا من إجادة القراءة والكتابة باللغة العربية وشيئ من اللغة الإنجليزية، وإذا ما أتقنوا ذلك يتم سحبهم من المدرسة خوفا عليهم من التأثير المسيحي من جانب، ومن جانب آخر تنبئتهم للعمل في مكاتب الحكومة أو لدى التجار¹⁰⁰. ولم تستمر مدرسة الإرسالية طويلا، إذ أغلقت أبوابها في عام 1936م، بسبب عجزها المادي ومنافسة المدارس الحكومية لها.

¹⁰⁰ - التميمي، عبد المالك، التبشير في منطقة الخليج العربي، الكويت: شركة كاظمة للنشر والتوزيع، 1982م، ص: 184.

أما التعليم النظامي المحلي في البحرين فقام على مبادرات أهلية اتخذت المنحى الطائفي والعرفي، لسببين أولهما: إن التعليم في بداياته كان تعليماً دينياً مرتبطاً باختلاف المذاهب السني والشيعي، وثانيهما: يكمن في تمركز الطائفتين كل على حدة في مناطق معينة، حيث تتركز غالبية السنة في المحرق والرفاع، وتوطن الغالبية الشيعية في المنامة وقرى شارع البديع، بينما وجد الإيرانيون متجمعين في أحياء سكنية في المحرق والمنامة، ونظراً لذلك أسست الطائفة السنية مدارس خاصة لها، وتبعهم الشيعة في ذلك، كما أسست الجالية الفارسية مدارس خاصة لأبنائها في البحرين¹⁰¹.

1- المدارس السنية (مدارس الإدارة الخيرية):

أنشأت السنة إدارة لرعاية مدارسهم التي عرفت بمدارس الإدارة الخيرية إذ أشرفت هذه الإدارة على جميع الأموال وبناء المدارس وجلب المدرسين من سوريا ومصر من أجل تعليم أبناء السنة، وبحلول عام 1926م، أي قبل انتقال التعليم إلى الحكومة، بلغ عدد مدارس الإدارة الخيرية في البحرين أربع مدارس ابتدائية للبنين وهي:

1- مدرسة الهداية الخليفة للبنين (1919م).

2- مدرسة الهداية الخليفة للبنين في المنامة (1921م).

3- مدرسة الحد للبنين (1926م).

4- مدرسة الرفاع الشرقي للبنين (1926م)⁽¹⁰²⁾.

2- المدارس الجعفرية:

وأسست الشيعة بدعم مالي من الحكومة مدرستين هما:

1- المدرسة المباركة العلوية في قرية الخميس (1927م).

¹⁰¹ - حسين، رملة عبد الحميد، البحرين ما بين 1919م - 1939م: دراسة للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، الكويت، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، 2009م، ص: 38.

¹⁰² - خاطر، مبارك، مضبطة المشروع الأول للتعليم الحديث في البحرين 1919 - 1930م، البحرين، 2000م، ص: 74.

2- المدرسة الجعفرية في المنامة (1928م)،¹⁰³.

3- المدارس الفارسية:

ظهرت المدارس الفارسية في البحرين قبل المدارس التي أسسها أهالي البحرين من الطائفتين، ويرجع ذلك إلى أن الجالية الفارسية قادمة من إيران التي سبقت الخليج في الحركة التعليمية منذ زمن طويل، ويذكر أن الجالية الفارسية بدأت تمارس نشاطها التعليمي منذ عام 1913م، حين قامت بتأسيس مدرسة نظامية لتعليم البنين، وأطلق عليها اسم مدرسة الإصطلاح المباركة، وانتقلت إلى مبناها الجديد الذي لا يزال قائماً إلى الآن قرب مدرسة الزهراء بالمنامة¹⁰⁴، حتى جاءت الثورة الإيرانية عام 1979م. وعلى إثرها تغير اسم المدرسة إلى مدرسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في البحرين، لكنها أغلقت بأمر حكومي بسبب الأحداث الأخيرة التي شهدتها البحرين في عام 1996م¹⁰⁵.

4- مدارس أهلية أخرى:

في الفترة التاريخية الممتدة من عام 1919م إلى عام 1932م، أي قبل خضوع التعليم إلى الحكومة - انتشرت في البحرين ظاهرة افتتاح المدارس الخاصة في ضوء غياب إدارة حكومية مركزية تنظم العملية التعليمية. وكان طابع هذه المدارس طابعاً شخصياً، حيث يقوم أحد من المثقفين أو من التجار بافتتاح مدرسة تأخذ توجهاته الفكرية وتطلعاته التعليمية، وقد لعبت هذه المدارس دوراً كبيراً في البحرين، تمثل في نشر الثقافة العربية، والعلوم الحديثة، والفن المسرحي.

¹⁰³ - خليفة، مي محمد، مائة عام من التعليم النظامي في البحرين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999م، ص: 238.

¹⁰⁴ - نفس المصدر، ص: 107.

¹⁰⁵ - نفس المصدر، ص: 114.

ومن أبرز هذه المدارس:

* المدرسة الأهلية

* مدرسة التاجر

* مدرسة دارالعلم

* مدرسة الإصلاح الأهلية

* مدرسة الفلاح.

* مدرسة اللواء¹⁰⁶.

انتقال التعليم من المجالس الأهلية إلى إدارة المعارف الحكومية:

في سنة 1932م، قرر مدير إدارة المعارف البحرينية الشيخ عبد الله بن علي بن عيسى آل خليفة أن يخضع الشؤون الإدارية والمالية للتعليم إلى الحكومة، فقام بتعيين فائق أدهم وهو سوري الجنسية من خريجي الكلية الإسلامية في بيروت، ناظراً ومفتشاً عاماً للمعارف. فتم إغلاق المجالس الأهلية للتعليم في عام 1932م، وحل محلها مجلس معين من السنة والشيعنة تحت سلطة الحكومة بإشراف الشيخ عبد الله - مدير المعارف - يسانده في مهمته ناظر المعارف فائق أدهم الذي قام بعدة إصلاحات في حقل التعليم.

التطورات المهمة في التعليم: في عام 1938م، استدعت الحكومة خبيراً بريطانيا يدعى "انديان فالانس" وذلك لإطلاعها على سير التعليم في البحرين، وقد قدم فالانس من العراق - حيث كان يعمل في وزارة المعارف العراقية - وزار جميع مدارس البحرين، وعقد لقاءات من الأهالي والمدرسين، ورفع تقريره إلى الحكومة مقترحاً تكوين ثلاث مراحل هي:

1- المرحلة التحضيرية، 2- المرحلة المتوسطة، 3- المرحلة المنتهية¹⁰⁷. وفي عام 1936م، أدخل التعليم الصناعي في البحرين، وكان على مستوى

¹⁰⁶ - حسن، رملة عبد الحميد، البحرين ما بين 1919م - 1939م: دراسة للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، الكويت، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، 2009م، ص: 39 - 40.

مهني محدود، حيث أضيف صف إلى مدرسة المنامة وآخر في مدرسة المحرق لتعليم النجارة. وفي عام 1939م، أضيف فرعان مهنيان جديان هما: البرادة والحدادة، مما دفع بالحكومة إلى بناء مبنى مستقل في مدرسة المنامة للفروع المهنية الثلاثة.

ويعتبر تعليم البنات من أهم التطورات التي أدخلت في التعليم بالبحرين. فقد تلقت الفتاة تعليمها الأول في الكتاتيب، وبعد مرور تسع سنوات على تعليم البنين بشكل نظامي، فكرت الحكومة في إنشاء مدارس مماثلة للبنات. وعلى الرغم من المعارضة الشديدة من الأهالي، افتتحت أول مدرسة ابتدائية للبنات عام 1928م، في بيت السيد عبد الرحمن محمد الزياني في المحرق، وأطلق عليها مدرسة الهداية الخليفة للبنات في المحرق، قد لقي التعليم في هذه المدرسة إقبالا كبيرا من الطالبات. وبعد عام افتتحت المدرسة الثانية لتعليم البنات في المنامة وعهد بإدارتها إلى زوجة ناظر المعارف فايق أدهم، وعرفت المدرسة باسم مدرسة الهداية الخليفة الأميرية للإناث في المنامة¹⁰⁸. وأصبحت الأستاذة مريم الزياني أول معلمة بحرينية تقوم بتدريس البنات، وكان المنهج الدراسي قائما على تدريس القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، والقراءة، والكتابة، والحساب، والخياطة، والرسم والشئون المنزلية، وفي نهاية عام 1939م، كانت هناك ثلاث مدارس ابتدائية للبنات هي:

1- مدرسة المحرق، وعدد طالباتها حوالي 150 طالبة، تقوم بتدريسهن ست مدرسات، خمس منهن بحرنيات.

¹⁰⁷ - جبيل، عبدعلي محمد، تطور إعداد معلم الابتدائي وتدريبه لدولة البحرين 1948 - 1981م، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة القاهرة، 1988م،

ص: 65.

¹⁰⁸ - السليطي، مريم، تطور نظم تعليم الفتاة في البحرين 1928 - 1988، البحرين: مركز المعلومات والتوثيق، وزارة التعليم والتربية، 1988م،

ص: 19.

2— مدرسة المنامة، وعدد طالباتها 190 طالبة، تقوم بتدريسهن ثماني مدرسات، ست منهن مواطنات.

3— مدرسة الحد، وعدد الطالبات 85 طالبة، تقوم بتدريسهن ثلاث مدرسات بحرينيات¹⁰⁹.

بالإضافة إلى هذا توجد هناك عدد من المدارس الأهلية الأخرى أيضا، مثل مدرسة الإمام الصادق في المنامة التي تم تغيير اسمها إلى مدرسة أبو بكر الصديق، ومدارس أخرى في الخميس.

التعليم الآن: في عام 2004م، دخل التعليم في مملكة البحرين مرحلة العلوم الحديثة والتكنولوجيا، وذلك من خلال مشروع الملك حمد بن عيسى آل خليفة لمدارس المستقبل والتي تهدف لربط جميع مدارس البحرين بالشبكة الإلكترونية وتفعيل التعليم الإلكتروني ليكون داعما أساسيا للتعليم. والهدف الرئيسي لهذا المشروع هو تفعيل التعليم في جميع أنحاء البلاد في كل عصر، وصار التعليم مجانا وإلزاميا لكل بحريني، وانتشر التعليم في جميع أنحاء المملكة للبنين والبنات.

وتأسس معهد الإدارة العامة مؤخرا في عام 2006 بموجب المرسوم رقم (65) لسنة 2006 الصادر عن حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك مملكة البحرين في 28 يونيو 2006. ويهدف المعهد إلى تطوير الإدارة العامة والتدريب في وزارات ومؤسسات الدولة، والإسهام في إعداد وتدريب العاملين فيها، وفقا لمتطلبات برامج التدريب والتطوير والأبحاث والعمل الاستشاري الذي يقره مجلس إدارة المعهد على نحو يكفل الإرتقاء بمستوى الإدارة العامة ودعم خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

¹⁰⁹ - أبو حسين، علي، الشيخ حمد بن عيسى علي آل خليفة، البحرين، مركز الوثائق التاريخية، مجلة الوثيقة، العدد: 34، السنة 2003م.

الجامعات في البحرين: قد تم تأسيس العديد من الجامعات ومؤسسات التعليم العالي في شتى مدن مملكة البحرين وفقا لما تقتضيه الأوقات من متطلبات العصر ومقتضيات البلاد لتقوم بتوفير تعليم مختلف العلوم والآداب والتكنولوجيا للجنسين في البلاد، وها إليكم تفصيلها:

الجامعات الحكومية ومؤسسات التعليم العالي:

* جامعة البحرين، وهي أكبر الجامعات حكومية في مملكة البحرين تأسست في 24 مايو 1986م. وهي تعتبر من أقوى الجامعات في البلاد¹¹⁰.

* جامعة الخليج العربي

* كلية العلوم الصحية

* بوليتكنك البحرين

الجامعات الخاصة ومؤسسات التعليم العالي:

* الجامعة الأهلية

* جامعة العلوم التطبيقية

* الجامعة العربية المفتوحة

* معهد البحرين للتكنولوجيا

* معهد البحرين للدراسات المصرفية والمالية

* جامعة بنتلي

* معهد بيرلا للتكنولوجيا والمركز الدولي.

* جامعة دلمون للعلوم والتكنولوجيا وهي جامعة غير معترف بشهادتها من

قبل وزارة التربية والتعليم.

* جامعة دبيول

* الجامعة الخليجية

¹¹⁰ - جامعة البحرين - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، (<.../ar.m.wikipedia.org>https://ar.m.wikipedia.org)

- * جامعة نيويورك للتكنولوجيا
- * الجامعة الكندية
- * الجامعة الطبية بالبحرين
- * الجامعة الملكية للبنات
- * جامعة المملكة للبنات
- * كلية البحرين للمعلمين
- * الجامعة الأوروبية
- * الكلية الملكية الأيرلندية للجراحين¹¹¹.

¹¹¹ - المصدر نفسه.

الباب الثاني

الرواية في البحرين: نشأتها وتطورها

الرواية في المحيط العربي

يجمع الدارسون على أن الرواية هي تنويع لفن القصة، هذا الفن الذي عرفه الإنسان منذ عرف النطق والكلام، فالرجل يحدث امرأته وقد عاد من الصيد عما رأى وشاهد، ما حدث له في رحلته وما واجهه من أهوال ومصاعب، والمرأة تحدث الرجل عما جرى لها في غيابه.

هذا الفن العتيق الأصل عتق الشعر في الغناء وأصالته تطور ككل جنس أدبي آخر واتخذ أشكالاً وتلونات كثيرة نعرفها جميعاً إلى أن جاء العصر الحديث بطباعته وصحفه وانتشار التعليم فيه ونهوض برجوازية المدينة لتظهر معه الرواية بشكلها الحديث الذي يضرب جذوره عميقاً في القصص الطويلة والحكايات وسير الأطفال والملاحم كروايات الفرسان، والمغامرات في الأدب الأوروبي، وقصة حي بن يقظان، وسيرة عنترة، وحكايات ألف ليلة وليلة، وحمزة البهلوان وما إلى ذلك في أدبنا العربي.

وهكذا ظهر هذا الشكل الجديد من فن القص لأنه الأقدر على استيعاب قضايا الإنسان وهمومه ومشاكل المجتمع وقضاياها، فالرواية هي فن بناء الحياة من جديد وإعادة تشكيل الواقع مرة ثانية لكي يتاح لمن جاء في مكان آخر وزمان آخر أن يعرف كيف كانت تلك الحياة وهذا الواقع وهو ما جعل الرواية اليوم الفن الأدبي الأكثر رواجاً بين الأجناس الأدبية كلها. ذلك لأن الإنسان يسعى وراء ما يعنيه، ويهتم بالأدب الذي يلامس جرحه ويعالج قضايا الإنسانية والاجتماعية وهي كثيرة حتى ولو لم يقدم لها حلولاً بل حسبه أحياناً أن يطرح القضية على بساط البحث أملاً في أن يجد لها الحل فيما بعد.

وإذا كانت الرواية العربية قد تأخرت قرنين من الزمان عن نظيرتها في الغرب - أي ما بين بداية القرن الثامن عشر حين ظهرت رواية دانيال ديفو "روبنسون كروزو" وبين بداية القرن العشرين حين ظهرت رواية محمد حسين هيكل "زينب" - فإنما ذلك نتيجة الفارق الحضاري بين أوروبا التي بدأت نهضتها منذ القرن السادس عشر والوطن العربي الذي تأخرت نهضته حتى أواخر القرن التاسع عشر.

فالحضارة كل لا يتجزأ، كما أن النهضة كل لا يتجزأ، يتقدم الكل معاً أو يتخلف الكل معاً، لهذا ما إن بدأت رياح النهضة تهب على المحيط العربي حتى رأيناها تهب أولاً على الأدب العربي بشعره ونثره، وهو ما جعل الرواية تظهر ثم تنمو وتترعرع بطيئة حذرة في البداية، ثم سريعة قوية فيما بعد.

في مصر، بدأت الرواية العربية أولاً، وذلك لأسباب لا مجال لذكرها الآن، ثم في بلاد الشام والعراق التي عرفت الرواية جيداً في النصف الأول من القرن العشرين، لكن في البلدان العربية الأخرى تأخر ظهور الرواية إلى النصف الثاني من القرن العشرين، حيث بدأت تظهر الرواية في المغرب العربي الكبير والسودان، وجنوب الجزيرة العربية ووسطها وفي دول الخليج.

مدخل عن الرواية الخليجية: لم يكن ظهور الفن الروائي في دول الخليج العربي مواكباً للمراحل الأولى لظهور الرواية العربية عموماً بدايات القرن العشرين، إذ يعود ظهورها الفعلي إلى النصف الثاني من نفس القرن، ولعل "تأخر ظهور الرواية في الخليج العربي يرجع إلى طبيعة التطور الاجتماعي، ولدى نمو الطبقة المتوسطة، ونهوضها بتحديث المجتمع، وتغير البنية الاجتماعية القديمة، ونظراً لتماثل التركيبة الاجتماعية بفعل

عوامل الاقتصاد والتطور الثقافي، بدأت الرواية تظهر وتعبّر عن الواقع وتطوراته¹. ومن حيث مفهوم الرواية الخليجية، يمكن القول: "بأن هذا المصطلح عائد لظروف الوحدة السياسية والاقتصادية، والتقارب الاجتماعي، وتشابه الجغرافيا والتاريخ في المنطقة التي تشكلت ضمنياً تحت سقف دول مجلس التعاون الخليجي: المملكة العربية السعودية، الإمارات العربية المتحدة، دولة الكويت، سلطنة عمان، دولة قطر ومملكة البحرين"².

هذا الاتحاد المطل على الخليج العربي في جزيرة العرب له خصوصية مشتركة وسمات مميزة مكاناً وبيئة، ثقافة وعادات وتقاليده، كما لو أنه نسيج واحد بقواسم مشتركة عديدة يمكن أن تخلق إبداعاً شاملاً، له خصائص متحدة، بخصوصيات جمالية وموضوعية تبرر اشتراك الرواية في منطقة الخليج العربي في مشهدية أو خريطة واحدة، إذ إن الثقافة العامة لهذه الدول، على المستوى الكلي، تشترك في الكثير من القيم والعادات، بحكم تماثل البيئة وتشابه الواقع إلى حد كبير.

ولأن الرواية من الأعمال التي تتغذى في وجودها من تسارع إيقاع الحركة في أي مجتمع من حيث التحولات الكبرى التي تقع في محيطه أو تصب في أعماق كيانه. فما أن تغيرت مسار الحياة، وتبدلت آفاقها في منطقة الخليج، حتى "بدأت التحولات الاجتماعية تنتج أديها في ذات وقت تحولها، ولعل انفجار النفط بالكيفية التي انفجر بها سارع بتطوير البنية الاجتماعية والمدنية في الخليج، وبشكل سريع وطفروي. إن بطئ تشكل الرواية في الخليج يعبر عن بطئ التطور في فترات ما قبل النفط، وبعد أن تفجر النفط، وأخذ التطور يحدث بشكل واضح، بدأت التربة الصالحة لنبتة الرواية

¹ - المحادين، د. عبد الحميد: جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001م، ص: 10-9.
² - البيل، د. فارس، الرواية الخليجية - قراءة في الأنساق الثقافية، شركة دار الأكايميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016م، ص: 24.

تتسع³. وقد استطاعت الرواية الخليجية منذ ظهورها أن تتناول هموم الإنسان في محيطها وقضايا مجتمعه، شأنها شأن الرواية العربية بخاصة والرواية العالمية بعامة، فمجال الرواية هو المجتمع وفضاؤها قضاياها، وهي من حيث مضامينها وعوالمها "سجل اجتماعي يرصد حركة التغيير التي تطرأ على المجتمع وتؤثر في سلوكه، فهي النص القادر على استيعاب حراك المجتمع وتفاعلاته، كما أنها النص الذي يقدم النمط الحوارية في كيفية تداخل الأنساق الاجتماعية عبر المحكي ذي الخفيات الاجتماعية المختلفة، فلها قدرة على استيعاب مشاكل المجتمع، ومراقبة ملامح حياته وتفاصيلها المتعددة، بأسلوب سهل وممتع، وهو ما جعل للرواية اليوم رواجاً وحضوراً كبيراً من بين الأجناس الأدبية الأخرى"⁴.

ولعل تشكل الرواية الخليجية جاء معتمداً في بعض جوانبه على بناء وصورة القصة القصيرة، رغم تقاربهما في الظهور، حيث سهولة إنتاج القصة القصيرة والتعبير بها، وملائمتها من حيث الملامح والمضمون لبدايات الحركة الأدبية المعاصرة في الخليج، كما إن عدداً من مؤلفي الرواية في بعض دول الخليج كانوا كتاب قصة قصيرة أو حاولوا كتابتها.

والفن الروائي هنا "هو الفن الذي انبثق في الخليج، بعد أن كان الشعر هو الشكل الإبداعي المنفرد نسبياً في هذا الإقليم، ولقد توارث الخليجيون المؤثرات الحادة التي شكلها البحر والصحراء معاناة وتحدياً، فجاء هذا التأثير الحاد ظاهراً في الفن الروائي"⁵. حتى شكّلت الرواية حديثة مساحة واسعة في فضاء الإبداع الخليجي، متنوعة في موضوعاتها وتوجهاتها، وعلى قدر كبير من النضوج الفني والتقني، مستمدة تشكلاتها من مخازن شعورية وحسية تمثلها الصحراء بوصفها ملهمة وجدانية، والبحر منبعاً

³ - المحادين، د. عبد الحميد، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001م، ص: 10.

⁴ - البيل، د. فارس، الرواية الخليجية - قراءة في الأنساق الثقافية، شركة دار الأكايميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016م، ص: 25.

⁵ - نفس المصدر، ص: 27.

زاخرا، ومعهما النهضة والتطور، كلها وشائج تنسج إبداعها وخطابها. يمكن القول بأن من أبرز الملامح المشتركة في الرواية الخليجية، يكمن في تشابه المضامين الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي يعيشها سكان المنطقة، فظاهرة الطفرة الاقتصادية التي بدأت منذ السبعينات أسهمت في إنتاج حركة تحول كبيرة في شتى جوانب الحياة، ومنها الحياة الأدبية، فالانتقال من دور البداوة والريفية إلى الحياة العصرية بتعقيدها، كان ملمحا بارزا ومتداولاً في الرواية الخليجية إلى حد كبير.

هذا أيضاً أوجد ظاهرة الحنين إلى الماضي، والتعلق ببقاياها في الحاضر، والدعوة إلى التمسك بالقيم المادية والمعنوية التقليدية باعتبارها محورا مهما في الرواية الخليجية.

وقد نتجت ظاهرة الصراع الاجتماعي الثقافي بين القيم والعادات التقليدية السائدة اجتماعياً، وبين قيم الانفتاح والتواصل مع الآخر، في مجتمع يمارس الحياة المادية بتعقيدها، ويعيش في ذات الوقت سياق المجتمع المحكوم بقيم اجتماعية وثقافية محافظة، كما حاولت الرواية الخليجية طرق بعض القضايا الشائكة المتعلقة بالدين أو السياسة أو الجنس أو العرف، واقتربت من بعضها، محدثة بعض الهزات في محيطها.

كما يمكن ملاحظة طبيعة ولامح النشوء والمسيرة في الرواية الخليجية عموماً، إذ تتشابه في بداياتها المتواضعة وبداية تشكلها فنياً، وصولاً إلى نمط الكتابة الجديدة التي ميزت الخطاب الروائي تبعاً لحركة المجتمع الخليجي ومراحل تطوره، وتسعى الرواية الآن بجهد مثابر نحو النضوج والتمكن، يقابل ذلك ضعف ما للحركة النقدية المصاحبة لها.

و لعل من أبرز هذه الدول الخليجية: مملكة البحرين بالنسبة للرواية العربية، وهي ما يعيننا في هذا المبحث.

لمحة عن ظهور الرواية في البحرين: تعود بواكير الكتابة الروائية في مملكة البحرين إلى منتصف الستينات من القرن الماضي، فأول نص روائي هو: (نكريات على الرمال) الذي صدر في عام 1966م، للكاتب والروائي فؤاد عبيد، وهو أحد رواد القصة القصيرة. والرواية تقوم بسرد عوالم ما قبل النفط، وتظهر شظف العيش بجانب البحر، وتمتلى بحكايا الحب والطلاق وغيرها.

ولهذه الرواية فضل الريادة، ثم يحدث بعدها شيء من الانقطاع في المشهد الروائي⁶ حتى مرحلة الثمانينات التي بدأ فيها الحراك في مجال الكتابة الروائية في البحرين، وبدأت الرواية تنتشر وتأخذ دورا لا بأس به في مساحة العمل الأدبي للمجتمع، من خلال أسماء مثل: محمد عبد الملك، الذي بدأ قاصا أيضا، وأصدر روايته: (الجنوة) سنة 1980م، التي تعتبر بشكل عام البداية الثانية والفعلية للرواية البحرينية. وفي السياق نفسه يذكر عبد الله خليفة الذي نحن بصدد دراسته في هذا البحث، صدرت له أعمال كثيرة، وفوزية رشيد، وأحمد المؤذن وأمين صالح وغيرهم.

والنتائج الروائية التي جاءت بعد هذه الفترة، وإن بدت متواضعة، وتحمل سمات القصة القصيرة، والملامح المرتبكة للتجارب الروائية الأولى، فإنها كانت في حالة من الإصرار والرغبة في تقديم ما هو أكثر نضجا واستيعابا لشروط الرواية، علاوة على وعي الكتاب بمقومات الكتابة الروائية وتقنياتها الفنية.

على أن كثيرا من التحليلات النقدية التي تتناول الكتابة الروائية في البحرين تؤكد أنها رواية طري عودها، وأنها لا تزال محلية الطرح والمضامين والأساليب، فلم تحاك مستوى ما يصدر من روايات في العالم العربي، وما

⁶ - هذا ما يكتبه معظم الكتاب والنقاد عن الرواية البحرينية، ولكن الحقيقة أن الانقطاع لم يقع بين هاتين الفترتين، بل صدرت بينهما رواية للكاتب عبد الجليل الصفار باسم "طفلي يمزق الرسائل" عام 1977م.

يزال إنتاجها على المستوى الكمي قليلا وضعيفا. بيد أن الرواية البحرينية ركزت في تناولاتها على المجتمع وقضاياها، ومعاناة الإنسان البحريني قبل مراحل النهوض، كما أن بعضها غاصت في قضايا التاريخ المحلي أو الإسلامي عموما. أيضا لم تغفل قضايا المرأة، بالأخص الروايات النسوية التي تعرضت لمعاملة المرأة في المجتمع، والنظرة الدونية لها عند الكثير من أفرادها، وكذلك العلاقة الملتبسة بين الرجل والمرأة في إطار المجتمع.

كما أن الانتقال من مكان إلى آخر والهجرات كانت حاضرة في مضامين الرواية البحرينية، وطرقت الرواية بعض القضايا ذات الصلة بالواقع المعيش اجتماعيا وسياسيا.

من ناحية أسلوبية، يمكن أن نلاحظ سيطرة للاتجاه الواقعي في السرد البحريني بشكل واضح، ولعل الرواية في البحرين مؤخرا، بدأت تنتقل إلى مراحل جديدة أكثر نضجا، ربما بسبب الخبرة وطول التعاطي مع الرواية، والإفادة من الحراك السردي في المحيط الخليجي والعربي أو حتى العالمي، كما يعود إلى البدايات الأولى المتواضعة فنيا التي كانت مقدمة لظهور روايات جديدة حملت قدرات فنية روائية متقدمة، حيث "تشهد هذه الفترة دخول مبدعين من الشباب في مجال الرواية، لديهم قدرة إبداعية في صناعة الرواية وكتابتها بنضج يقودها للازدهار"⁷.

تعتبر الرواية في البحرين حديثة العهد في الساحة الأدبية بالقياس إلى بقية الأشكال الأدبية الأخرى الموجودة معها على نفس الساحة، إذ إن الكم الروائي الذي صدر حتى الآن لا يتجاوز عدد أصابع اليد، مما يعطي انطبعا على قلة عدد المبدعين الذين دخلوا هذا المجال، ويعود هذا التأخر في ممارسة الإبداع الروائي عند أدباء البحرين إلى تأخر المجتمع البحريني

⁷ - البيل، د. فارس، الرواية الخليجية - قراءة في الأنساق الثقافية، الأردن، عمان، شركة دارالأكاديميون للنشر والتوزيع، ط 1، 2016م، ص: 35 - 36.

في الانفتاح على مظاهر الحياة العصرية وعلى الأشكال الثقافية الحديثة، وقد نشط الإبداع الروائي في مطلع الثمانينات في هذه المنطقة من العالم العربي. "إذ لم تكن الساحة الأدبية في البحرين قبل هذا الوقت إلا مسرحاً لقصائد الشعر والقصة القصيرة والمقال النثري، ولم تكن الرواية بزخمها المتشابك ونسجها السردي المعروف، وخصوصيتها في سبر أغوار العالم والحياة إلا مطمحاً عالياً للمبدعين في البحرين"⁸.

تطور الرواية في البحرين: يتفق معظم التحليلات النقدية التي تتناول الرواية البحرينية اليوم على أنها رواية حديثة العهد، وأنها لم تصل إلى مستوى ما يصدر من روايات في المحيط العربي، ولذلك عدة أسباب موضوعية منها: تأخر تعاطي مفاهيم الحداثة في المجتمعات الخليجية، ومنها البحرين وهو ما وصف بفترة انقطاع بين صدور أول رواية بحرينية في ستينات القرن العشرين، على يد الكاتب البحريني فؤاد عبيد الذي يعتبر أحد الكتاب الرواد في مجال القصة القصيرة، وفي مجال الرواية، والذي نشر قصته القصيرة في عام 1964م، وروايته الأولى "ذكريات على الرمال" في عام 1966م، التي يرى بعض النقاد أنها محاولة لو كتب لها الاستمرار لمثلت سابقة نوعية في المنجز الروائي البحريني، والتي تعتبر أيضاً ذات قيمة تاريخية، ونقطة بداية لا يمكن القفز عليها. أتبعهما فؤاد عبيد بمجموعتين قصصيتين هما: "بدرية في طريق الحياة"، و"تأملات وهمسات في الحب" في سنة 1971م. في الثمانينات من القرن العشرين بدأت نهضة حقيقية في مجال الكتابة الروائية في البحرين من خلال أسماء أبرزها محمد عبد الملك الذي بدأ قاصاً أولاً، وصدر له في هذا المجال: "موت صاحب العربة" عام 1972م، و"نحن نحب الشمس" في 1975م، و"السياج" في

⁸ - يوسف، شوقي بدر، غواية الرواية - دراسات في الرواية العربية، الإسكندرية، مؤسسة حورس الدولية، ط 1، 2008م، ص: 139.

1982م، و"النهر يجري" في 1984م، و"ثقوب في رئة المدينة" في سنة 1997م، وأصدر روايته "الجدوة" في عام 1980م، أتبعها برواية أخرى "ليلة الحب" في عام 1998م.

في روايته "ليلة الحب" التي صدرت عن دارالكنوز الأدبية، وصف الروائي محمد عبد الملك بأنه "يمتلك روح جبران خليل جبران وشقاوة عبد الرحمن منيف، كما تمت المقارنة بين بطلتها زهرة وليلى بطله قصة حب مجوسية لجبرا إبراهيم جبرا"⁹، وفي السياق نفسه يذكر عبد الله خليفة الذي صدر له أكثر من خمس وعشرين رواية بدءاً من روايته الأولى "اللآلي" في عام 1981م، كما أصدر روايته الثانية "القرصان والمدينة" في سنة 1982، وفوزية رشيد التي نشرت عدداً من القصص القصيرة ومجموعة من الروايات مثل "الحصار" في سنة 1983م، و"تحولات الفارس الغريب في البلاد العاربة" عام 1990م، وغيرهما.

يبدو هناك مما تقدم أن مسيرة الرواية البحرينية قد وقع فيها انقطاع كبير حيث صدرت روايتها الأولى "ذكريات على الرمال" لفؤاد عبيد عام 1966م، أما الرواية الثانية "الجدوة" للروائي البحريني محمد عبد الملك، فقد ظهرت إلى حيز الوجود سنة 1980م. فهناك انقطاع استمر حوالي 14 عاماً، في الأدب الروائي للبحرين. ولكن بعد الدراسة والبحث عن تاريخ الرواية في البحرين تحققت أن الرواية البحرينية لم تنقطع بين هذين التاريخين. يقول الكاتب يوسف مكي في مقالة له حول بدايات فن الرواية في البحرين: "كنت في مقالة لي قد أشرت إلى انقطاع في الأدب الروائي منذ المحاولة الأولى استمر زهاء 14 عاماً، أي منذ 1966 إلى 1980 وهي

⁹- حسن، عثمان، "الرواية البحرينية تتطلع إلى المستقبل، الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، صحيفة "الخليج"، تاريخ النشر: 3 يوليو، عام 2010م.

السنة التي صدرت فيها رواية "الجزوة" للأديب محمد عبد الملك لتعتبر الرواية الثانية في مسيرة الرواية البحرينية أو التأسيس الثاني للرواية البحرينية كما دعوته. لكن بعد محاولات التحري والبحث هنا وهناك عن حيثيات وتاريخ الرواية والمحاولات المستمرة خلال عقد السبعينات، وجدت أن الكتابة الروائية لم تنقطع بين هذين التاريخين. ولتأكيد ذلك وجدت رواية نشرت على حلقات متسلسلة في المجلة الأسبوعية الصادرة عن وزارة الإعلام (البحرين اليوم) على امتداد عشرة أعداد من هذه المجلة (من 11/ 1977 / 5 إلى 28 / 8 / 1977) للكاتب والصحفي والمذيع المرحوم عبد الجليل الصفار الذي توفي في عام 1998م - وهو بالمناسبة من كتاب القصة القصيرة والنقد الأدبي - أما الرواية فكانت تحت عنوان "طفلي يمزق الرسائل". هذه الرواية التي جاءت بعد رواية "ذكريات على الرمال" بعشر سنوات، وقبل رواية "الجزوة" بثلاث سنوات تؤكد عدم وجود انقطاع بين التأسيسين الأول والثاني، كما تؤكد نوعاً من التراكم الأولى على طريق الرواية البحرينية¹⁰.

أما رواية "طفلي يمزق الرسائل" لعبد الجليل الصفار فهي تنتمي من حيث الشكل إلى نمط الرواية القصيرة، أو القصة الطويلة، البعيدة عن النفس الملحمي الروائي. أما من حيث المضمون فتراوح بين الذاتي والعاطفي والموضوعي/ الاجتماعي واللغة التسجيلية، وهي إلى حد كبير تسير على نهج رواية "ذكريات على الرمال" لفؤاد عبيد مع جرعة أكبر من العواطف والرومانسية.

وتسجل مرحلة الثمانينات وما بعدها اقتحام عدد من الأدباء البحرينيين لمعترك الرواية، ومن هؤلاء أحمد المؤذن الذي بدأ بالقصة القصيرة من

¹⁰ - مكي، يوسف، "طفلي يمزق الرسائل" أو من بواكير الرواية في البحرين، البحرين، جريدة "أخبار الخليج" اليومية، العدد: 13336 - السبت 27 سبتمبر 2014م، الموافق 3 ذو الحجة 1435.

خلال "أنثى لا تحب المطر" ومن "غابات الاسمنت" و"رجل للبيع"، أتبعها برواية "وقت للخراب القادم"، وهناك أمين صالح الذي بدأ روائيا، وحسين المحروس ووليد هاشم وفريد رمضان وفتحية ناصر وغيرهم.

أما بشأن تتبع البنية الفنية لهذه الروايات ومضامينها، فقد كتب أكثر من ناقد بحريني في هذا الشأن، ومن هؤلاء جعفر حسن الذي رأى أثناء تناوله لمجمل نتاجات محمد عبد الملك "أنه أحد رواد حركة الواقعية النقدية التي انتشرت كمعلم من معالم تطور السرد في البحرين خلال فترة طويلة من الزمن، وأحد المساهمين في تطور الرؤية الواقعية للقضية الاجتماعية وسيطرة الاتجاه الواقعي، كما رأى أنه من أهم الكتاب إخلاصا والتزاما في هذا الاتجاه، كما أنه استطاع أن يملك أكثر اللحظات مركزية، وتحديدًا في حياة نماذجه البشرية عن طريق استخراجها من بؤرة الانسحاق الذي تتعرض له عندما تكون تحت وطأة مشكلة الاستغلال الاجتماعي أو تعيش فظاعة استهلاك انسانيها"¹¹. وترى أحلام سليمان في رواية "القلق السري" لفوزية رشيد خير مثال على تمثل قضية المرأة وتجربتها الوجودية التي تعكس وضع القهر والتسلط الذي يمارسه المجتمع الذكوري عليها بصورة تجعلها تشعر بالضعف والدونية والاستلاب. كما تدرس فيها عددا من المؤشرات التي يجب أخذها بعين الاعتبار حين النظر إلى هذه الرواية منها صعوبة قراءتها خارج إطار العنوان الرئيسي أو ملحقات النص الروائي المتمثلة في المقدمة والعناوين الفرعية وأسلوب الكتابة وتوزيعها وهذه كلها تشكل حقولا دلالية تكثف العمل الروائي، الذي يتبدى عند المؤلفة شكلا من أشكال التجريب في الرواية العربية محاولة تمثل شكلها الحدائي من خلال الانفتاح على الفنون الأخرى والاعتماد على التقطيع والمشهدية

¹¹- حسن، عثمان، الرواية البحرينية تتطلع إلى المستقبل، الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، صحيفة "الخليج"، تاريخ النشر: 3 يوليو، عام 2010م.

وتعددية الضمائر والمستويات السردية بالإضافة إلى شعرية اللغة الموحية. وعندما ندرس رواية "الأقلف" لعبد الله خليفة، التي صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت عام 2005م، نجد أنها رواية تعالج إشكالية الصراع الديني، وما حمله المستعمر الأجنبي لوطننا العربي بداية القرن الماضي وما اعتبره ضروريا لتكريس وجوده في المنطقة باستخدام وسائل عديدة.

ويؤكد عبد الحسين: "أن رواية "الأقلف" رواية مكتوبة بمستويات عدة، بعضها يتعلق بالعلاقة المتشابكة التي تربط الإنسان بحاجاته وتوجهاته الفكرية من جهة، ومن جهة أخرى ما يتعلق بمصيره المتعلق بحالة وطنه، وفي مستوى آخر فإن الرواية تركز على إدانة التطرف والعنف بكافة أشكالهما. ووفقا لعبد الحسين أيضا فإن الرواية تمثل في أحد جوانبها إعادة تشكيل لماضي وحاضر البحرين وليس لواقع الإنسان المحبط الذي لا يملك شيئا لمصيره وحسب، بل وحتى لأولئك الذين يعتقدون أنهم ملكوا مصائر وأرواح الناس وأفكارهم واكتشفوا في النهاية أنهم أسهموا في لعبة الحياة خيرا وشرها"¹².

ويقارن الكاتب يوسف مكي بين رواية فؤاد عبيد "ذكريات على الرمال" ورواية محمد عبد الملك "الجزوة"، ويرى: "أنهما تلتقيان في كونهما روايتين قصيرتين تميزا لهما عن الرواية الملحمية أو الطويلة، أخذا بعين الاعتبار مسألة الاختلاف في الرؤية والمعالجة وبناء الأحداث"¹³. فالرواية الأولى الصادرة عام 1966 تدور في فترة غير محددة زمنيا، لكنها تقوم بسرد عوالم ما قبل النفط، حيث شخصياتها تعاني من شظف العيش بجانب البحر

¹² - المصدر السابق.

¹³ - مكي، يوسف، "طفي يمزق الرسائل" ل"عبد الجليل الصفار" أو من بوكير الرواية في البحرين، جريدة "أخبار الخليج"، العدد: 13336 - السبت 27 سبتمبر 2014م، الموافق 3 ذو الحجة 1435 .

وتمتلى بحكايا الحب والطلاق والفقد، ولهذه الرواية فضل الريادة في فتح باب الرواية في الأدب البحريني، وأنها لو كتب لها الاستمرار لمثلت محاولة نوعية ومتقدمة في المنجز الروائي البحريني على الصعيد المحلي. فلا شك أن رواية "الجزرة" تمثل لحظة التأسيس الثانية للرواية البحرينية، ولكن ذلك لا يقلل من القيمة الإبداعية لرواية "ذكريات على الرمال" وفقا للحظتها التاريخية وظروفها المجتمعية والثقافية من جهة، كما لا يقلل من قيمتها التاريخية باعتبارها بداية تأسيسية لنوع من الإبداع الأدبي. الرواية لم تكن معروفة على صعيد الثقافة البحرينية حتى منتصف ستينات القرن الماضي من جهة أخرى. لذا فإن قيمة هذه الرواية ليس في ذاتها أو فيما تقوله أو تسكت عنه، إنما فيما تؤسس له وتدشنه وما سيصبح لاحقا تاريخا للرواية في البحرين.

أما التجربة النسائية في كتابة الرواية البحرينية فقد يقول عنها الناقد البحريني فهد حسين: "من دون شك أن أول امرأة بحرينية كتبت الرواية هي فوزية رشيد ولديها إلى هذا الوقت ثلاث روايات منشورة (الحصار، تحولات الفارس الغريب في البلاد العاربية، والقلق السري)، وبعض المجموعات القصصية، بالإضافة إلى ليلي صقر التي أصدرت رواية واحدة وتوقفت، وفتحية ناصر التي أصدرت ثلاث روايات، وهناك منيرة سوار ولها رواية واحدة وكذلك هدى عواجي. وهذه الأعمال لا تشكل منعطفا في الكتابة الروائية على المستوى الإقليمي عدا تجربة فوزية رشيد. ويكمن ذلك في الرؤية والهدف وراء الكتابة عامة، والروائية على وجه الخصوص"¹⁴. ولا يمكننا تجاهل عبد الله خليفة صاحب الروايات الكثيرة مثل: "اللآلي" و"الهيرات" و"أغنية الماء والنار" و"الأقلف"، كما فوزية رشيد في أعمالها

¹⁴ - حسين، فهد، الرواية البحرينية، الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، جريدة "الرياض" العدد: 15550 - 20 يناير - 2011م.

"الحصار"، "تحولات الفارس الغريب"، "امرأة ورجل"، "القلق السري"،
وأيضاً هناك فريد رمضان صاحب "التنور" الذي صدر له مؤخراً
"البرزخ" والقاص جمال الخياط الذي كتب رواية "حارس الأوهام
الرمادية".

من أجل هذا، لا يفقد الأمل في القراءة للرواية البحرينية حاضراً، خصوصاً
بعد دخول أسماء جديدة مثل حسين المحروس ووليد هاشم وفريد رمضان
وخالد القسام وفتحية ناصر وليلى صقر ومعصومة المطاوعة وأمين صالح
وجمال الخياط، حيث نرى مجالاً لكتابة جديدة بدأت تقترب من الواقع،
وتتسم بالجرأة من حيث التنويع والتلوين في القول والحكي والتقنين في
استخدام التقنيات.

يرى خالد القسام الذي أصدر أكثر من رواية "أن حضور هذا الجنس الأدبي
بين الشباب ما يزال ضعيفاً مقارنة مع الشعر، وذلك الحضور الذي تسجله
قصيدة النثر على وجه الخصوص في البحرين"¹⁵.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأعوام الأخيرة قد شهدت صدور روايات
لمؤلفين بحرينيين - مخضرمين وشباب - في ظل محاولات لا تتوقف،
ساهم في نشاطها، توفر كثير من دور النشر، ومساعدة وزارة الثقافة في
طباعة الإنتاج الروائي، بجانب عوامل أخرى. أما بالنسبة للروائي أحمد
المؤذن، فإن الروائيين الشباب من جيله: عبد العزيز الموسوي، فتحية
ناصر، رسول درويش وأسماء أخرى يقدر مجهودها، حيث يجد كلها ضمن
الساحة، تجتهد في عناء التجربة وتريد وضع الرواية البحرينية في مقدمة
الصادرات الثقافية، لكن تحتاج لمن يؤمن برسالتها ويدعمها، كجهات ثقافية،
ومثقفين وقراء.

¹⁵ - حسن، عثمان، الرواية البحرينية تتطلع إلى المستقبل، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، صحيفة "الخبز" اليومية، 3 يوليو، عام 2010م.

يقول المؤذن: "لا أشذ عن بقية جيلي من الروائيين الشباب في البحرين، بأنني أحاول جاهدا في ترك بصمتي الخاصة على صعيد القصة القصيرة أو الرواية على حد سواء، لافتا إلى أن العديد من الأقلام النقدية العربية تفاعلت مع روايته "وقت للخراب القادم" وأبرز جوانبها الإيجابية كتجربة روائية تمثل المشهد الثقافي في الخليج العربي"¹⁶.

فبالتأكيد بدأت الآن الرواية في البحرين تصل إلى مراحل جديدة أكثر نضجا، ربما بسبب الخبرة وطول التعاطي مع الرواية على مدى أكثر من 40 عاما، كما يعود إلى البدايات الأولى المتواضعة فنيا التي كانت مقدمة لبروز روايات جديدة حملت قدرات فنية روائية متقدمة، وذلك يعني الكثير لأن المرحلة الحالية تقود إلى مرحلة تكوين رواية بحرينية أكثر نضوجا. وإلى هذا يشير محمد عبد الملك: "أن الساحة تشهد ازدهارا في الرواية البحرينية، لأن كتابها من فئة الشباب لديهم قدرة السيطرة على الرواية وقيادتها، الآن هناك أسماء جديدة دخلت الرواية البحرينية وكتبتها بنضج من بينهم مثلا الكاتب حسين المحروس وخصوصا في روايته الأخيرة "الحوام" التي تنبئ عن طاقة روائية مهمة، خصوصا وهو يمتلك لغة شعرية متفوقة، فالأسماء الجديدة تنضج بسرعة أكبر من تلك الأسماء التي بدأت المشروع في وقت مبكر"¹⁷.

سبب تأخر ظهور الرواية في البحرين: تأخرت كتابة الرواية في البحرين عن بقية الدول العربية والخليجية، ولتأخرها أسباب وعوامل يوضحها الروائي عبد الله خليفة بقوله: "تأخر الرواية في البحرين يعود إلى أن الرواية هي ابنة التحديث، فلا بد أن يكون لديك جريدة أو كتاب تظهر فيها

¹⁶ - الديري، جعفر، الرواية البحرينية ارتدت لباس التغيير بالمعطيات العصرية، صحيفة "الوطن" العدد: 3104 الثلاثاء، 10 يونيو 2014م.

¹⁷ - حسن، عثمان، الرواية البحرينية تتطلع إلى المستقبل، الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، دارالخليج للصحافة والطباعة والنشر، صحيفة "الخليج"، تاريخ النشر: 3 يوليو، عام 2010م.

أو فيه الرواية، وظهور الصحافة في البحرين أخذ وقتاً طويلاً بسبب ارتباطها بالعمليات السياسية والصراعات. كلما ظهرت لحظة من التطور الثقافي والصحفي برزت عمليات كتابة قصصية، منذ جريدة "الزائد" التي ظهرت فيها قصص بحروف رمزية وقصص مترجمة لتولستوي وتشخوف، إلى صحافة الخمسينيات التي زاد فيها حجم الكتابة القصصية، إلى عقد الستينيات الذي انفجر فيه المشهد القصصي والثقافي. إن كل هذا يمثل تراكمات في الوعي الفكري والفني واتساعاً في الحرية، وعلى هذا الأساس تكون الرواية ابنة هذا التراكم الحضاري، فهي تحتاج إلى ورق وإلى قارئ وإلى وسط يقبل بتعريف فنية، في حين أن الملحمة الشعبية هي نتاج السماع والحكي، ولهذا فهي تتضخم ولا تتشكل في بنية فنية مضغوطة ودقيقة، ويصعب فيها التحليل، فتغدو متراكمة ومتناثرة ومجموعات من الأقاليم¹⁸.

أما فريد رمضان فقد أبدى رأيه في هذا الصدد مبيناً: "أن الرواية تأتي حين تتولد حاجة المجتمع لفهم نفسه، إنها تأتي لتأمل قيمة الفرد في المجتمع، وليس قيمة المجتمع على حساب الفرد، هذه المعادلة هي التي أخرت ظهور الرواية، ليس ذلك فحسب، بل أجلت الجميل والمبدع على المستوى المحلي والعربي¹⁹".

لقد كانت القصيدة والقصة القصيرة تعبر عن طبيعة المرحلة السياسية التي كانت تعصف بالبحرين، وبالوطن العربي، الذي كان ينظر بكثير من التفاؤل والأحلام الكبيرة والخادعة لدور المبدع في نهضة المجتمع، وكانت الأحزاب تتسابق في اكتساب كتابها الذين يعبرون عن صوت الحزب، على حساب الكاتب كفرد مبدع، وكانت النظريات اليسارية تندفع بقوة في هذا

¹⁸ - فهد حسين، أمام القنديل - حوارات في الكتابة الروائية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2008م، ص: 38.
¹⁹ - المصدر نفسه، ص: 38.

الاتجاه، وكانت الأنظمة التي كانت تعتبر أنظمة ثورية تدفع بهذا الاتجاه، استجابة للجماهير التي لم تكن تنتظر نصا إبداعيا يتطلب ضمن أدواته قراءة متأنية للمجتمع والفرد. كانت الحماسة تدفع بالكاتب حتى بعدم مراجعة نصه الذي كتبه على عجل من أجل وهم الجماهير والأنظمة.

واعتقد أن هذا كان سببا رئيسيا في تأخر ظهور الرواية الناضجة فنيا، بل إن تأملا سريعا لكتاب الرواية العربية قبل السبعينات كان يؤكد لمفهوم كتاب الرواية القادمين من مجتمع مرفه، والتي اتهم أصحابها في ذلك الوقت بالانعزال عن هموم الشارع العربي، بل إن الروائي نجيب محفوظ من أكثر الكتاب تعرضا لهذه النظرة الأحادية المبتورة، قبل أن يعاد النظر في تجاربه وقيمتها الإنسانية.

أما بخصوص التأخر فقد لعبت فيه الظروف السياسية أيضا دورا كبيرا التي انغمر فيها المبدع البحريني، ضمن المشهد العام للمبدع العربي، والتي أشرت إليه سابقا في تأخر ظهور الرواية، وأنا شخصيا، أعتقد أن دورة الحياة كانت تتطلب مثل هذه الإخفاقات على المستوى الفكري الذي هز العقل العربي، ليتعلم قليلا كيف ينصت للمنتج الإبداعي، بمعزل عن أوهام الأنظمة والأحزاب، التي مارست دورا تدميريا على الكتاب والمبدعين، وأعتقد أن الرواية في البحرين جاءت الآن ضمن حاجة ملحة لفهم هذا الدرس، الذي لم يكن قادرا على أن يحظى بمثل هذا الاهتمام لو جاء قبل ذلك.

إن الرواية بالأساس لا تأتي إلا ضمن حاجة لفهم المجتمع الذي تعقدت أطرافه وتشابكت، إنها تأتي لفهم، لذلك فإن انطلاقة الرواية مع عقد الثمانينيات في البحرين هي تعبير قوي عن المجتمع البحريني والخليجي بشكل عام، هذا الإنسان البحري/ الزراعي، تسعى الرواية الآن إلى إعادة

اكتشافه، ليفهم ذاته، رغم بروز روايات بحرينية قبل هذه الفترة، مثل رواية "ذكريات على الرمال" لمؤلفها فؤاد عبيد والتي صدرت عام 1966م، وهي فترة مبكرة لمحاولة تأسيس نص روائي محلي.

مكانة الرواية في المشهد الثقافي البحرينى: المشهد الثقافي في البحرين منحاز إلى الشعر، إنتاجا وكتابة، وتأتي في المرتبة الثانية القصة القصيرة والقصة، أما الرواية فقد اتخذت موقعا هامشيا في الإنتاج الأدبي البحرينى. إن المرجعية الشعرية هي الأصل في البحرين رغم أنها كذلك في العالم العربي برمته، هناك من يقول بأن الحراك المدني، والتبدلات الثقافية والاقتصادية والسياسية في أي بلد أحد أهم أسباب تشكل فن السرد، أو التحول من الشعر إلى السرد، ولو سحبنا ذلك على السعودية كمثال، لرأينا أن النظرية سليمة إلى حد كبير - خصوصا بعد حروب الخليج المتتالية (باردة وفعليّة) إضافة إلى التحولات الفكرية والاجتماعية الحادة في المجتمع السعودي، بينما كانت البحرين، ولا زالت، دولة مدنية مستقرة سياسيا إلى حد كبير، وتركيبها الاجتماعية أيضا معتدلة بشكل عام أي لم يكن هناك تحولات دراماتيكية ملحوظة في البحرين، حتى إبان حرب الخليج وبعدها ظلت البحرين محتفظة بإرثها الثقافي بإتزانها ولم ترتبك على المستوى الاجتماعي. وبين دول الخليج، التي قضت وقتا طويلا في الموازنة بين النفط والرمل (المدينة والصحراء) كانت البحرين قد سبقتهم جميعا إلى المدينة والاستقرار (ثقافة البحر مستقرة ومتزنة بشكل عام، وتحولاتها أيضا هادئة ومهادنة).

ويتفق الكاتب عواض شاهر على هذا بقوله: "أن الحالة البحرينية أقرب إلى الشعر منها إلى السرد إذا ما وضعنا المسألة في المعايير التي تفضل بها وكذلك بسبب وقوع البلاد في وسط مائي يطوق المدينة من كل الجهات

طبيعياً، وهذا له دوره بالطبع في تهذيب الشعور الإنساني وتقويم الروح وتشفيفها بحسب ما أعتقد، إذا الماء بطبيعته الشفيفة ليس كمثل الرمل والبعد الصحراوي في التأثير على النفس وتشذيبها لتصبح كحالته سيالة رجراجة مهمة للحياة والجمال والبقاء، وهذا من خصائص الشعر²⁰. ولكن للرواية نصيب في الكتابة الإبداعية بالبحرين ومنها روايات مميزة كالبرزخ لفريد رمضان، وكتابات أمين صالح وعبد القادر عقيل، وثقافيا تعد البحرين من الدول المتقدمة خليجياً في المشهد الأدبي العربي، ولعل سطوع أسماء مهمة في مجالها كالشاعر قاسم حداد والكاتب أمين صالح دور في تعميق البعد البحريني في الخارطة الأدبية العربية.

ومن الملاحظ أن مملكة البحرين بدت وديعة مستقرة إلى حد كبير، فالصورة السائدة على البحرين هي أنها دولة هادئة مسالمة ليس لها منذ استقلالها سجل عسكري حافل بالحروب والنزاعات السياسية، كما أن أهلها بعامة مشهورون بالوداعة وحسن المعشر. في زمن البحر كانوا يعملون في الصيد وجلب اللؤلؤ، وفي زمن النفط ركزوا على الاقتصاد والتبادل التجاري مع دول الجوار كالسعودية. في زمن مبكر ظهرت فيها إشارات الدولة التي تكتنز فيها أسباب المجتمع الذي يريد أن يتعلم، فانفتحت على البلد أبواب عصرية عديدة مثل السياحة، والاقتصاد، والثقافة بعد أن بلغت فيها نسبة تنمية البنية التحتية درجة كبيرة. ولئن مرت البحرين في تاريخها السياسي المعاصر بفترات ليست على ما يرام مع المجتمع أو بالأحرى مع تيار من المثقفين، فقد مرت دول الخليج بأزمات مشابهة، والسجون ليست بدعة بحرينية في إخضاع المثقف أو تدجينه بل هي سنة عربية قديمة وخصوصاً مع المثقف الحر المستقل، وهي في دول الخليج، كما في باقي

²⁰ - عواض شاهر، أين الرواية من المشهد الثقافي في البحرين، جسد الثقافة، 22 / 11 / 2004م.

الدول العربية، علامة من علامات قوة النظام وشدة بأسه. لكن كون البحرين مرت بمثل هذه الأشياء التي حتما لم تكن في موقع الظاهرة، ولم تكن تعبر عن حالة من المناوأة الثقافية والسياسية المستمرة والمتصاعدة مع مرور الزمن، وإنما حدثت بدوافع اجترحتها ظروفها وحيثياتها الخاصة بها، فإن ذلك لا يعني أن الحس الروائي في التعبير عن مثل تلك المواجهات ضعيف أو غائب بل أعتقد أنه موجود ولكن الرواية في العادة هو غير الشعر الأنبي والفوري، لا تنخلق في وقتها بل قد تنتظر زمنا طويلا لكي تربو في رأس الكاتب وتكبر وعندما تحين ولادتها تأتي متكاملة، ولا أريد أن أتحدث عن العوائق الكثيرة التي تعترض طريق رواية جادة وحقيقية ومعبرة عن موضوعات حيوية ومهمة في المجتمع، فمن المعلوم أن الحديث عن الرقابة صار مملا، وكذلك عن الحالة العدائية التي يجدها النظام تحتد وتزداد مع المثقف بخاصة. ثم إن الشعر أيضا أداة تعبيرية تستوعب ولكن مختزل ما تستوعبه الرواية في العادة. فالفهم والآلام والطموحات والتعبير عن الرأي ونقد الواقع وتعريه السلبي والقمعي ونشردان الحرية والبحث عن عالم أفضل، كل هذه الأشياء مبتغيات شعرية بالدرجة الأولى لدى الشاعر الرؤيوي الجاد، وليست فحسب خاصة بالرواية.

الرواية البحرينية فسحت لنفسها مكانا أوسع على الخريطة الإبداعية:

يعتبر أن الرواية الخليجية فسحت لنفسها مكانا أوسع على الخريطة الإبداعية الأدبية، كان الشعر هو الفن الأدبي المسيطر على وجداني المجتمع الخليجي زمنا طويلا، حينما لم تكن للرواية مساحة لافتة من الاهتمام، إلا من النخب المثقفة منه في هذه المجتمعات، حتى بداية الثمانينيات.

فبدأ الاهتمام بالرواية على مستوى الخليج العربي، وبرز في منطقة الخليج من الجيل الروائي الأول عدة أسماء منها: "من المملكة العربية السعودية

غازي القصيبي، عبده خال، الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة، ومن دولة الكويت إسماعيل فهد إسماعيل، ليلى العثمان، فاطمة يوسف العلي، ومن دولة الإمارات الشقيقة راشد النعيمي، ومن سلطنة عمان عبد الله محمد، وزويدة، ومن مملكة البحرين محمد عبد الملك، عبد الله علي خليفة وفوزية رشيد، والكثير من الأسماء التي لا مجال هنا لحصرها، وأن هذا الجيل من رواد الرواية في الخليج العربي ومما ساهموا في لفت الانتباه بتجاربيهم الروائية في مراحلها الأولى²¹. ظهرت الرواية الخليجية التي فسحت لنفسها مكانا أوسع على الخريطة الأدبية أكثر وضوحا، خاصة في العقدين الأخيرين من القرن الماضي، وذلك لعدة أسباب: أولها دخول أسماء شبابية جديدة وكثيرة في مجال كتابة الرواية لاعتقادهم أن كتابة الرواية عملية سهلة وممكنة، هذه السهولة أغرت أسماء كثيرة لكتابة روايات لم تكن بالمستوى المتوخى في بعض الأحيان، ثانيا وجود وفرة عديدة من الروايات وغزارة في الإنتاج الروائي نظرا لاستعداد دور النشر لنشر تلك الروايات، ثالثا لقد أغرى النجاح التي حققته بعض الروايات الشبابية بعض الشعراء والفنانين المعروفين وأثار حماسهم للمغامرة والدخول في عالم الرواية، في هذه الحالة يكون هناك لبس بين الشاعر والكاتب، رابعا تحويل بعض الروايات الناجحة جماهيريا إلى مسلسلات تلفزيونية من قبل شركات الإنتاج التلفزيوني ساهم في خلق دافعية كبيرة لدى الروائيين للكتابة الروائية.

فجاءت الرواية الخليجية بعد الشعر، فقد وجد الشعراء في الخليج منذ مئات السنين كل الدعم والاهتمام والرعاية، أما الرواية فعلى العكس من ذلك، وعزا بعضهم ذلك إلى بيئة وتقاليد المجتمع في هذا الخصوص حيث

²¹ - صفاء العلوي، صحيفة "الوطن" اليومية، الأربعاء، 15 نوفمبر، 2017م.

مجموعات معرفية تتعلق بالتراث والعادات والتقاليد التي اعتبرت من الثوابت الراسخة ولا يمكن أن تمتد إليها يد التغيير حتى أن القصة القصيرة التي تسالت إلى الساحة قبل الرواية الطويلة نمت باتجاه احترام المفاهيم العريقة التي تقترب بشكل أو بآخر من تقاليد المكان. لا أحد يستطيع أن ينكر أن التحول الاقتصادي الذي أصاب منطقة الخليج بعد اكتشاف النفط قد أثار الكثير من أوجه التغيير في مناح عديدة، ومنها الفكرية والأدبية.

إن سبل الاتصال والتنقل والتعرف على ثقافات وإبداعات الشعوب قد أسهم لا شك في نمو طبقة مثقفة سعت إلى تغيير الوجه الفكري لدول الخليج، وقد تتبعنا وشاهدنا ظهور الكثير من التيارات الفكرية، واتحادات الكتاب وجمعيات الإبداع الفكري للفنانيات على نحو ما هو موجود في إمارة الشارقة في دولة الإمارات. تزامن كل ذلك مع تنامي تطور الرواية حتى مع ظهور أول روايات ناضجة في بعض بلدان الخليج مثل: "رواية" البقعة الداكنة" لإسماعيل فهد إسماعيل في الكويت، ورواية "شاهنדה" لراشد عبد الله، ورواية "الجدوة" لمحمد عبد الملك في البحرين، والتي ظهرت في عام 1980م، مما يشير أيضا إلى أن زمن الرواية جاء متأخرا عن زمن القصة القصيرة والذي جاء بدوره متأخرا عن فن الشعر²².

فلدى تتبع الإنتاج الروائي في البحرين، نجد أنه حديث العهد نسبيا، إذا يمكننا اعتبار مرحلة الثمانينات مرحلة التأسيس، وذلك مع صدور أول روايات بحرينية ناضجة، وهي حسب تاريخ الصدور فيما يلي:

1- "الجدوة" لمحمد عبد الملك، 1980م.

2- "اللآلي" لعبد الله خليفة، 1981م.

3- "أغنية ألف صاد الأولى" لأمين صالح، 1982م.

²² - بدر، محمود إسماعيل، الرواية في الخليج... البحث عن الواقع والهوية، جريدة "الرأي" تاريخ النشر: الجمعة - 26 - 11 - 2004م.

4- "الحصار" لفوزية رشيد، 1983م.

5- "أغنية الماء والنار" لعبد الله خليفة، 1988م.

ففي الأدب البحريني نجد أن الشعر هو الحالة الغالبة من حيث الإنتاج الكمي والنوعي، وأول رواية بحرينية صدرت في عام 1966م، وهي رواية "نكريات على الرمال" لفؤاد عبيد، والتي ترصد ضياع المجتمع البحريني بعد اكتشاف النفط. وهذه الرواية "انعدمت في سوق المكتبات، وتتوافر لدى عدد محدود من المهتمين فقط. وهذه الرواية تصلح لأن تكون بذرة تأسيسية لفن الرواية في البحرين، رغم لغتها الرومانسية الفاقعة، وبساطة معالجاتها للشخصيات، إلا أنها ممتعة في كونها تناقش موضوعا روائيا مازال معاصرا"²³.

وليس من شك أن النتاج الروائي البحريني شهد في السنوات الأخيرة حضورا - وإن بدا خجولا - مقارنة بأشقائه في الخليج والعالم العربي.

وعلى الرغم من وجود إرث روائي ممتد منذ ستينات القرن الماضي، إلا أن التجربة الروائية ما زالت غصة الغصن، بطيئة النمو وتحتاج إلى الكثير من النضج، ببيئة أمثل ومحميات رعاية أجدى، ما زالت بحاجة إلى جهود ذاتية فردية من الكتاب أنفسهم وجهود معززة لها من المجتمع المؤسسي الأدبي والثقافي المحلي ممن يؤمن برسالتها ويثق بجهودها، لمواكبة نهضة إصدارات الوطن العربي، وبما يتفق مع تطلعات المجتمع الثقافي العربي، وهذا لا يعني خلو الساحة من نضج التجربة واكتمال نشأتها عند بعض الكتاب أمثال محمد عبد الملك، أمين صالح، حسين المحروس، فريد رمضان، أحمد المؤذن، عبد العزيز الموسوي، وغيرهم من الكتاب المبدعين إلا أن المراقب للساحة الأدبية البحرينية يقر بأن المشهد الثقافي في البحرين ينحاز

²³ - أحمد رضي (شاعر وكاتب من البحرين)، الرواية والمدينة، مجلة "البحرين الثقافية"، الأربعاء، 30 مارس، عام 2016م.

بقوة إلى الشعر، ومن ثم القصة القصيرة لتأتي الرواية جنسا أدبيا في مرتبة متأخرة، وهذا لا يعني، أن البحرين التي أنتجت قامة شعرية بحجم قاسم حداد تعجز عن أن تأتي بروائي بحريني جدير بالمنافسة عربيا.

ملامح التجربة الروائية في البحرين: إذا كان الشعر يهيمن على المشهد الثقافي في البحرين، فإن الرواية البحرينية بدأت في السنوات الأخيرة تسجل حضورها ليس كحالة تنافسية للشعر وإنما كخيار إبداعي ينسجم مع معطيات المشهد. لذا نجد أن أسماء شعرية ومن أجناس إبداعية كتبت الرواية.

الرواية البحرينية التي بدأت منذ ستينات القرن الماضي، وتمظهرت بصورة جلية في الثمانينات من القرن نفسه لتكون أكثر وضوحا وتلقيا في طرحها للقضايا ذات العلاقة بالواقع البحريني ماضيا وحاضرا، ومحاولات لاستشراف المستقبل، حالها في ذلك حال الرواية في الدول الأخرى التي مرت بظروف ومنعطفات وتكونت وفق تراكمات ومعطيات مختلفة الأبعاد، لذلك كان انشغال الرواية البحرينية بمدخل متعددة، تبعا لمجموعة من المؤثرات الثقافية والأيدولوجية والسياسية، فهناك من الأعمال الروائية التي عالجت القضايا الإنسانية من منحى البعد النفسي والصراع مع الذات وذات الآخرين، وهناك من أخذ منحى الصراع الطبقي، وآخر وقف عند المسألة الجندرية، وآخر لم يحدد منحاه، وأعتقد أن مشروعه الروائي لا يزال بحاجة إلى مسيرة عمل، أما من اهتم بالهوية الاهتمام الجم فهو الروائي فريد رمضان منطلقا من المهمشين والأقليات والذين ينظر لهم خارج دائرة المركز.

من هنا ناقشت الرواية البحرينية الصراع بين الخير والشر، بين السلطة السياسية وقوى المعارضة، بين الحركة الوطنية والانتداب البريطاني، بين

ما هو مقيم في المكان والدخيل عليه، وهذا الإسهام كان منطلقاً من البعد التاريخي للمكان وحالاته، كما هو موجود في الرواية التاريخية عالمياً وعربياً، ومن هنا كانت الهجرات والانتقال من مكان إلى آخر متواجدة في الرواية البحرينية، مثل: الهولة، ومن جاء من العراق في فترات ماضية. ولكن هذا لا يعني الانكفاء في الماضي، والهروب من مناقشة الحاضر، بل جاءت بعض القضايا ذات الصلة بالواقع المعيش اجتماعياً وسياسياً بحكم الحراك المطلبي في البحرين منذ عشرينيات القرن الماضي، كالحديث عن الحركات المطالبة في الثمانينات والتسعينات، وقد برز بصور واضحة في أعمال حسين المحروس وأحمد المؤذن، والعلاقة بين الرجل والمرأة والظروف التي كان ينظر من خلالها إلى هذه العلاقة التي أفرزت في الماضي علاقة غير شرعية في بعض المناطق، وكيفية الإسقاط الرمزي على الواقع المعيش الذي ينظر إلى المرأة ودونيتها أو جعلها في هامش المجتمع مثلما ناقشت ذلك رواية "القلق السري" لفوزية رشيد، ورواية "الرجل السؤال" لفتحية ناصر. ولذا يرى الناقد فهد حسين: "لا أعتقد أن الرواية البحرينية كانت مغيبة في اللحظة، بل حاولت أن تجد لها مكاناً في المشهد السردي الخليجي، إضافة إلى الولوج بعين الراصد والمتأمل والمتفحص للتراث والتاريخ العربي والإسلامي، حيث انكب الروائي عبد الله خليفة على إصدار أعمال روائية ذات بعد تاريخي، فأصدر من الروايات: رأس الحسين، عمر بن الخطاب شهيداً، عثمان بن عفان شهيداً، علي بن أبي طالب شهيداً، محمد ثائراً، بالإضافة إلى الواقع الذي يعطيك ملامح الحياة المستقبلية بعد نضوب النفط"²⁴.

²⁴ - فهد حسين، جريدة "الرياض" العدد: 15550 - 20 يناير، عام 2011م، الموافق 16 صفر، 1432.

ولا شك أن ما يكتبه الروائي عبد الله خليفة عن تاريخ البحر والغوص، والحالة الاجتماعية والمعيشية في المجتمع البحريني يشير إلى ذلك الصراع الطبقي في المجتمع، وما يقوم به الروائي فريد رمضان حول الهوية والهجرات من أجل تلك المحاور التي تدور بين المثقفين والبعض الآخر حول الأصول والتعددية التي تميز المجتمع البحريني، وهذا من بعد ثقافي أنثربولوجي، أما الروائي عبد القادر عقيل فإنه كان مهتما بطرح هذه الهوية في دائرة الحالة الإنسانية المرتبطة بالظروف المعيشية وكما عمل على مناقشة الهوية العربية أيضا وكذلك الروائية فوزية رشيد، مما يعني أن الهوية التي كانت تطرح في العمل السردي البحريني كان وراءها أكثر من توجه وبعد ثقافي وفكري.

أما أساليب الروائيين في الانشغال على مستوى تقنيات السرد فلا مجال للشك أن الاختلاف موجود حال أي منطقة والتمايز بين روائي وآخر، المخزن الثقافي والأدبي، والتواصل مع الحراك الأدبي الإقليمي والعربي والدولي يسهم في تعزيز ما يحاول الروائي البحث عنه، ويعمق التجربة في التعامل مع التقنيات السردية والمكونات الروائية، والقياس كذلك على كل التجارب المحلية أو الإقليمية أو العربية أو العالمية. يقول فهد حسين مؤيدا لهذا الموقف: "لو نظرنا إلى ماركيز وإلى باولو إكويو فس نجد التباين واضحا في تناول والتقنية والعرض وغير ذلك، قس على هذا عندكم في المملكة العربية السعودية بين الروائيين أو الروائيات فلا تستطيع أن تقول إن كتابات وتوظيفات الروائية رجاء عالم هي نفسها عند زينب حفني مثلا، وما عند عبده خال من تقنيات هي نفسها عند المحيميد، فليس الوقوف على المكان أو حالة من المجتمع يعني أن الروائي تمكن من نسج هذا المعمار الروائي وتمكن من توظيف التقنيات والمكونات، وعلى هذا فهذا التباين

يظهر في كتابة الروائيات والروائيين البحرنيين كما عند غيرهم، فحين تقرأ عملاً لعبد الله خليفة أو لفريد رمضان أو لأمين صالح أو لفوزية رشيد أو غيرهم تجد الفروقات بارزة في التكنيك وكيفية توظيف التقنية الروائية، ومدى استطاعة لغة كل كاتب أو كاتبة من نسج هذه الهندسة اللغوية السردية في عالم الرواية، فهناك من يجعل اللغة مرشداً رئيساً في حركة البناء الروائي، وآخر يهتم بدلالة المضمون، وثالث يشغل على بناء الشخصية التي تعطي الحدث مساحة واسعة وذات دلالة رمزية، المهم أن كاتب الرواية لابد أن يكون متمكناً من صناعة العمل الروائي في إطار معرفي وثقافي وتقني لكي يستطيع أن يوظف المكونات والتقنيات الروائية بصورة تجذب القارئ والمتلقي للنص، ويؤمن الكاتب نفسه بدوره الفعلي والحقيقي له ولعمله في آن واحد²⁵.

الرواية البحرينية ليست مغيبة في اللحظة: من الواضح أن المشهد الثقافي البحريني ميال إلى الشعر أكثر من السرد، وإن كان هناك بعض أسماء شعرية في البحرين كتب الرواية أيضاً، ولكن عددهم لا يتجاوز عدد الأصابع وهو ملحوظ على المستوى الداخلي والخارجي، ولو أقمنا بعد من يكتب السرد لعرفنا الفارق بينهما كبيراً يكاد يكون واحداً إلى خمسة تقريباً أو أكثر. وقس هذا على أعضاء أسرة الأدباء والكتاب، فأكثرهم شعراء، لكن لا يوجد شاعر كتب رواية البتة، عدا أمين صالح بوصفه كاتب سرد وشاعراً ومترجماً وناقداً سينمائياً، فله تجارب متعددة في الإبداع، يكتب القصة والشعر والرواية والنص، وله أعمال ودراسات ترجمها في المجال السينمائي، وهناك تجربة للشاعر علي الجلاوي ولكن لم تصدر بعد، إضافة إلى هذا هناك من حاول كتابة الرواية وهو في مجال آخر، مثل: الدكتور

²⁵ - المصدر السابق.

عبد الله المدني الذي صدرت له رواية مؤخرا، وكاتب الدراما حمد الشهابي، والكاتب خالد البسام، كما هو بعض كتاب المملكة العربية السعودية مثل: علي الدميني وتركبي الحمد. وإلى هذا يشير الناقد فهد حسين: "بحسب معلوماتي فإن كتاب السرد لم يكتبوا شعرا أو كتاب الشعر لم يكتبوا سردا، وإن كان هنا وهناك بعض الحوارات تشير إلى وجود هذه الحالة، فأرى أن هؤلاء الذين هم شعراء ولجأوا إلى هذا النوع من الكتابة فلا يمكن أن نطلق عليهم كتاب رواية باختلاف أمين صالح. أما من حيث اللغة فإنها تتباين في العمل السردي، وتصل إلى اللغة الشعرية تحديدا عند أمين صالح وحسين المحروس أكثر من غيرهما، وهناك شيء آخر وأعتقد لابد أن هناك أمرا نضعه في عين الاعتبار، وهو الكتابة الإبداعية، حيث هذا العمل ليس سهلا ولا استسهالا، كما هو حادث اليوم إذ تجد الكثير من الأعمال التي توصف نفسها بالرواية وهي مجموعة خواطر وسيرة ذاتية سطحية تسجل ثم تطبع لتكون رواية. الكتابة الروائية لم ولن تكون على هذه الشاكلة، لذلك لابد من وقفة صريحة أمام هذا الكم من الأعمال التي تصدر هنا وهناك وتتلقفها المطابع والناشرون لتكون رقما مضافا للمنجز الإبداعي السردى"²⁶.

أما الاهتمام بالمكان في الرواية البحرينية فهناك ثلاث روايات اعتنت بالمكان أكثر من غيرها وهي رواية "الجدوة" لمحمد عبد الملك، ورواية "الحصار" لفوزية رشيد، ورواية "أغنية الماء والنار" لعبد الله خليفة، وتتجلى من خلال دراسة هذه الروايات أن هناك اهتماما بالمكان المحلي، الداخلي والخارجي، المغلق والمفتوح، العام والخاص، المكان الإجباري والمكان الاختياري، حيث تناولت الروايات الثلاث البيت والغرف والمقاهي

²⁶ - جريد "الرياض" العدد: 15550، 20 يناير، 2011م - الموافق 16 صفر، 1432.

والسجون والأسواق والشوارع والبحر، كما تناولت وسائل المواصلات بوصفها أمكنة تنقل، لكن هذه الأمكنة لم تحدها الحدود الجغرافية الدقيقة والمعنية بالبحرين، لذلك يمكنك أن تجعل هذه الأمكنة أو أكثرها في أية دولة أو مكان خارج حدودها المكانية، ويمكن هذا جانب إيجابي وهو تحويل المكان المحلي إلى مكان خارجه يستطيع الكل أن يعيشه وكأنه مكانه. ولا يوجد أي خصوصية للأماكن سوى الأمكنة المغلقة كما يبدو من كلام الكاتب فهد حسين: "لا توجد الخصوصية المكانية بصورة جلية عدا المكان المغلق وتحديد السجون بنوعيه السياسي والإصلاحي، وبخاصة حينما كانت الأحداث والوقائع تدور في إحدى جزر البحرين وهي (جدة)، لكن في العقد الأخير من القرن الماضي والعقد الأول من الألفية الثالثة برزت أعمال فريد رمضان وحسين المحروس التي تناولت مناطق معينة ومحددة كما فعل ذلك جمال الخياط ومحمد عبد الملك في قلب الحب، مثل: مناطق المحرق والمنامة والنعيم، ولكن لم يكن المكان في حد ذاته هو البطل بقدر ما هي الشخصية التي تتواجد في هذا المكان التي تؤدي دورا مهما في حركة المكان ونموه وتطوره، أو الاتحاد معا لينموا ويتطورا في أن كما هو في شخصيات رواية "السوافح" لفريد رمضان"²⁷.

وفيما يتعلق بالتجربة النسائية التي تتناول القضايا المتعلقة بجنس المرأة فقد عرفنا قبل ذلك أن أول امرأة بحرينية كتبت الرواية هي فوزية رشيد التي صدرت لها ثلاث روايات، بالإضافة إلى فتحية ناصر التي أصدرت أيضا ثلاث روايات، وأيلي صقر ومنيرة سوار وغيرهن. وها نحن نرى العديد من الروايات في المنطقة الخليجية تصدر كل عام وتطرح العديد والكثير من القضايا ذات العلاقة بجنس المرأة والعلاقة بينها وبين الرجل من جهة

²⁷ - المرجع السابق.

وبينها وبين المجتمع وأعرافه المتنوعة من جهة أخرى، لكن هل يوجد الفرق بين هذا وذاك، يوضحه فهد حسين بقوله: "أعتقد أننا لا نزال نراوح العتبة الأولى في الكتابة الروائية النسوية الشبابية ليس لضعف عندهن أو لعدم قدرة، بل هؤلاء النسوة بحاجة إلى قراءة متواصلة في الأعمال الروائية والنقدية المحلية والخارجية العربية والعالمية، سواء إن كان كاتبها رجلاً أم امرأة، وهن بحاجة ملحة إلى تواصل مباشر مع المشهد الأدبي والثقافي من خلال المشاركة في الفعاليات والبرامج الثقافية، وفي المؤسسات الأدبية والثقافية، والنشر في الصحافة، فضلاً عن التفكير في مشروع الكتابة نفسها، والرؤية التي تريد عبر هذه الرواية أو تلك الولوج إلى المجتمع وكشف زيف ما يمارسه وتؤكد أعرافه وتقاليدته"²⁸.

الرواية البحرينية ارتدت لباس التغيير بالمعطيات العصرية: شهدت الأعوام الأخيرة صدور روايات لمؤلفين بحرينيين - مخضرمين وشباب - في ظل محاولات لا تتوقف، ساهم في نشاطها، توفر كثير من دور النشر، ومساعدة وزارة الثقافة في طباعة الإنتاج الروائي، بجانب عوامل أخرى.

هذه التجارب، تحتاج لناقد يتكفل بدراساتها، ليعطينا حكماً نستطيع الركون إليه ومحاكاته بشأن ما يميزها عن سابقتها. وليس هناك فارق بين هذه التجارب وسابقتها، إلا بما يتناسب وروح كل جيل، وثمة سمات بسيطة وهي ممكن الاختلاف في عمل كل جيل، رغم أن كلمة جيل لا تعطي توصيفاً حقيقياً، لحجم النقص القادح في الكتابة السردية، حيث يرى الروائي عبد العزيز الموسوي: "إن جمعت الأولين والآخرين، الأحياء والأموات ستجد أن ذلك محض حفنة بالنسبة لبلد يزخر منذ زمن بالمبدعين، ويكفي الإشارة لعدم وجود كيان سردي لحد كتابة هذه الأسطر، وهو مثال يبين لك

²⁸ - نفس المرجع.

حجم الفاجعة التي لم نتجاوزها وما نزال نعيش فصولها بكل ألم وأمل في التغيير²⁹.

ووفقا للروائي أحمد المؤذن، فإن الروائيين الشباب من جيله: عبد العزيز الموسوي، فتحية ناصر، رسول درويش وأسماء أخرى يقدر مجهودها، يجدها كلها ضمن الساحة، تجتهد في عناء التجربة وتريد وضع الرواية البحرينية في مقدمة الصادرات الثقافية، لكن تحتاج لمن يؤمن برسالتها ويدعمها، كجهات ثقافية ومنتقنين وقراء.

يقول المؤذن: "لا أشذ عن بقية جيلي من الروائيين الشباب في البحرين، بأنني أحاول جاهدا في ترك بصمتي الخاصة على صعيد القصة القصيرة أو الرواية على حد سواء، لافتا إلى أن العديد من الأقلام النقدية العربية تفاعلت مع روايته (وقت للخراب القادم) وأبرزت جوانبها الإيجابية كتجربة روائية تمثل المشهد الثقافي في الخليج العربي"³⁰.

وإضافة إلى هذا يدلي الروائي رسول درويش برؤيته حول تطور الرواية العربية المعاصرة، بما فيها البحرينية، مشيرا إلى: "أن الرواية المعاصرة ارتدت لباس التغيير بناء على المعطيات العصرية، ونحى بعض الكتاب نحو (العصرنة) بعفوية بينما غلب (التقليد) على مجموعة كبيرة من الروائيين وهو من انبثق عنه نوع جديد من العمل الروائي، مذكرا بما قاله الألماني جيتز جراس الفائز بجائزة نوبل للآداب عام 1999م، يستغرق العمل الروائي ما يقرب من خمس سنوات من التحضير والكتابة حتى يكون النص ناجحا"³¹.

²⁹ - الديري، جعفر، الرواية البحرينية ارتدت لباس التغيير بالمعطيات العصرية، صحيفة "الوطن" العدد: 3104، الثلاثاء، 10 يونيو، 2014م.

³⁰ - المصدر نفسه.

³¹ - المصدر السابق..

كتاب الرواية في البحرين ورواياتهم

- * ظهر الكاتب فؤاد عبيد كأول روائي في تاريخ البحرين، وله رواية واحدة وهي "ذكريات على الرمال"، صدرت في عام 1966.
- * عبد الجليل الصفار، روايته "طفلي يمزق الرسائل" نشرت، عام 1077م، في المجلة الأسبوعية الصادرة عن وزارة الإعلام (البحرين اليوم)، على حلقات مسلسل في عشرة أعداد.
- * محمد عبد الملك، أصدر روايته الأولى "الجدوة" سنة 1980م، والثانية "ليلة الحب" عام 1998م. وصدر كلاهما عن دار الكنوز.
- * أمين صالح، له عدة روايات وهي: "أغنية ألف صاد الأولى" صدرت في العام 1982م، و"رهائن الغيب" عام 2004م، و"شمالا إلى بيت يحن إلى الجنوب"، عام 2013م³².
- * أحمد المؤذن، كتب رواية واحدة "وقت للخراب القادم" في العام 2009م³³.
- * عبد القادر عقيل، له روايتان: أولهما رواية "أيام يوسف الأخيرة"، وثانيهما "كف مريم".
- * عبد العزيز الموسوي، أصدر روايتين: "قلبي في رقبتك"، و"القبار الأعرج".
- * جمال الخياط، روايته الأولى "الساحلية"، أما روايته الثانية فهي "حارس الأوهام الرمادية".
- * فريد رمضان، إنه كتب أيضا روايات عديدة منها: "التنور"، في سنة 1994م، و"البرزخ"، في سنة 2000م، كلاهما عن المؤسسة العربية

³² - أمين قالح: | جائزة كتارا للرواية العربية (>novelist www.kataranovels.com) .

³³ - أحمد المؤذن: | جائزة كتارا للرواية العربية (>novelist www.kataranovels.com) .

للدراسات والنشر، و"السوافح"، في سنة 2006م، صدرت من ماء النعيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر³⁴.

* حسين المحروس، روايته "الحوام" صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عام 2008م، و"قنودة" في العام 2006م، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.

* عبد الله خليفة، إنه أكبر روائي في البحرين حتى الآن، قد أنتج أكثر من خمسة وعشرين رواية، بعضها في عدة مجلدات، ويأتي ذكرها بالتفصيل في الباب الثالث.

الروائيات في البحرين، ورواياتهن:

* فوزية رشيد هي أول روائية في الساحة الروائية البحرينية، فلها روايات: "الحصار" و"القلق السري" و"تحولات الفارس الغريب في البلاد العاربية" و"رجل وامرأة".

* فتحية ناصر أنتجت روايات من مثل: "الرجل السؤال"، و"المرأة التي أحب" وهما من الإصدارات عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، و"أبحث عن نفسي" في ثلاثة أجزاء، التي صدرت أيضا عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

* ليلى صقر، كتبت رواية واحدة ثم توقفت.

* منيرة سوار لها: "نساء المتعة"، صدرت عن الدار العربية للعلوم، في عام 2008م، و"حسين المسنجر"، في عام 2012م، ورواية "جارية"، في عام 2014م.

³⁴ - فريد رمضان: | جائزة كتارا للرواية العربية (>novelist>www. Kataranovels.com)

* د. معصومة المطاوعة، لها رواية واحدة وهي: "وتحطمت القيود".
* وهدي عواجي، وغيرهن من الروائيات التي توجد أسمائهن في مختلف
الكتب والبحوث عن الرواية البحرينية.

دراسة تحليلية لبعض روايات ممتازة من التجربة الروائية في البحرين

نقدم للقارئ هنا نبذة يسيرة عن دراسة تحليلية لبعض روايات ذات أهمية وشهرة من المشهد الروائي في البحرين على سبيل المثال، ليتضح أمامهم ما في الرواية البحرينية من ملامح أدبية وفنية، وما عليها من مآخذ ونقائص، وهي مع ترتيب صدورها كالتالي:

1- الجذوة، لمحمد عبد الملك 1980م.

2- أغنية ألف صاد الأولى، لأمين صالح، 1982م.

3- السوافح، لفريد رمضان، 2006م.

رواية "الجدوة" لمحمد عبد الملك:

تعتبر رواية "الجدوة" لمحمد عبد الملك أول رواية بمعناها الفني في الأدب البحريني المعاصر، ولذلك فإنها تكتسب قيمة تاريخية من حيث كونها رواية رائدة، كما تكتسب قيمة فنية من حيث كونها رواية فنية، وهو ما انفصل فيه القول في هذه الدراسة.

فقبل هذه الرواية التي صدرت عام 1980م، من دار الفارابي ببيروت، لم تكن الساحة الأدبية في البحرين إلا مسرحاً لقصائد الشعر والقصة القصيرة والمقال النثري، ولم تكن الرواية بمعناها الفني ونسيجها السردي المعروف، وخصوصيتها في سبر أغوار العالم والحياة إلا مطمحاً كبيراً للمبدعين في البحرين.

وتتابع على إثرها صدور روايات لكتاب آخرين في عقد الثمانينيات الذي يعده الدكتور أحمد محمد عطية "عقد الرواية في البحرين"³⁵، مثل رواية "اللآلي" عام 1981م، و"القرصان والمدينة" عام 1982م، و"الهيئات" عام 1983م لعبد الله خليفة، كما صدرت رواية أمين صالح

³⁵ الدكتور، أحمد محمد عطية، كلمات من جزر اللؤلؤ (دراسة في أدب البحرين الحديث)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988م، ص:107.

"أغنية ألف صاد الأولى" عام 1982، ورواية "الحصار" لفوزية رشيد، عام 1983م.

ومؤدي هذه الرواية أن المناضل العمالي "فرج الشماس" يموت في حادث سير غامض، يعرف كثير من الناس ملبساته، ولكنهم يصمتون، ولا يدلون بشهادتهم إيثارا للسلامة، وكان الأمل معقودا على رجل عجوز يعيش في المنفى ويسعى لإزاحة اللثام عن هذه الجريمة البشعة، ولكنه يلقى حتفه أيضا في حادث مماثل.

وبتنامي أحداث الرواية نكشف أن الراوي، وهو ابن المناضل الشماس، يصر على تمزيق إهاب الصمت في منفاه، ويشهد على "السيدة الحسنة" التي كانت تقف وراء الجريمتين، كما نكشف قصة تعلق زوجة "المقاول" بالمناضل "الشماس"، وسعى زوجها إلى فصله من عمله، ثم رضوخه وتراجعته عن ذلك تحت تهديدها له بالطلاق. وتنتهي الرواية بعصيان عمال المصنع، وإضرابها عن العمل، والثورة في وجه الطغيان، وتستهدف الرواية تأكيد قيمة النضال من أجل العدالة والحرية والحق وكرامة الإنسان.

وإذا كانت القيمة التاريخية لهذه الرواية لا ينتطح فيها كبشان، كما يقال، طالما أنه لم يلبث حتى الآن أن نصا روائيا خالصا من حيث الفن في الثقافة البحرينية كتب أو نشر قبل هذه الرواية، فإن القيمة الفنية تحتاج إلى شيء من التأمل، ولا سيما أنها تظل الفيصل في تأكيد الرواية أو نفيها في نهاية المطاف، لأن العبرة ليست بالسبق التاريخي وحده، فماذا نفيد من عمل رائد يخلو من أدنى شروط العمل الروائي؟ ما من شك في أن عملا مثل هذا لا يعتد به طالما أنه يفتقر إلى سمات الرواية التي تمنحها تأشيرة الدخول إلى عالم الرواية.

وأيا ما يكون الأمر، فما الذي يمنح هذا العمل شكله الروائي؟

لعلنا نستطيع أن نجمل أهم هذه السمات التي تمنح هذا العمل شكله الروائي فيما يأتي:

1- **الحدث:** وهو في الحقيقة يتألف من حدثين منفصلين متشابهين، وهما حدث موت "الشماس"، وحدث موت "العجوز" المنفى، إضافة إلى بعض الأحداث الجانبية التي تأتي في سياق السرد أو الارتداد (الFLASH باك)، ولكن هذا التعدد لم يسيئ إلى معمار الرواية ووحدتها، لأن الحدثين الرئيسيين والأحداث الجانبية برمتها تخدم مضمونا واحدا، إذ تقدم الرواية: "تنويعات متعددة على لحنها الرئيس بشكل سيمفوني موسيقي من خلال أحداث موت وقتل وقهر متشابهة ومتنوعة معا، سواء في داخل الوطن أم في المنفى"³⁶.
ومن ناقل القول التذكير بأنه كلما كان هناك أحداث تسرد فنيا وفق بناء معين في أي عمل من الأعمال الأدبية النثرية، عد ذلك العمل رواية فنية.

2- الشخصية:

تمثل الشخصيات في هذا العمل مواقف اجتماعية وأيديولوجية وتتصرف على أساس تلك المواقف، وهي شخصيات جاهزة في مجملها وليست نامية متفاعلة مع الأحداث، ولذلك جاءت أقرب ما تكون إلى الشخصيات النمطية، فالبطل الإيجابي "فرج الشماس" يمثل المناضل المتوهج النقي الذي يضحى بحياته من أجل ما يراه حقا، ومقاوم يمثل الجشع الذي يتغاضى عن كل القيم مقابل الحفاظ على موقعه الاجتماعي والمادي، فيقبل أن يغدو ديوثا، والراوي يمثل الابن الذي يشغل بسر موت والده، وكأنه الأمير "هيملت"، حتى يكشف ذلك السر الغامض في النهاية، والمرأة الحسنة تمثل نموذج المرأة المتعجرفة المنحلة التي لا تتردد في اللجوء إلى ارتكاب الجريمة من أجل تحقيق أغراضها. وقد رسم الكاتب شخصيات روائية رسما تقريريا

³⁶ الدكتور، أحمد محمد عطية، كلمات من جزر اللؤلؤ. ص: 108.

مباشراً، فرصف صفاتها رصفاً، ولم يفسح المجال أمام القارئ كي يكشف تلك الصفات بنفسه من خلال الأحداث، على نحو ما نرى في وصفه زوجة المقاول: "امرأة مثلها لا يأسرها المال. عندها المال، امرأة مثلها دائماً تبحث عن رجل، رجل لا يبحث عن المال. رجل يبحث عن امرأة"³⁷. وعلى نحو ما نرى في وصفه "ميرزا عجب":

"ميرزا عجب يصل إلى قلوب الجميع بطريقته الخاصة، يسكن هناك محقوداً أو مرحباً به، لكنه دائماً يصل، وحتى إذا طلبت منه ديناً أو حاجة، فإنك تراه يرتبك ليقفز وراء الكلمات"³⁸.

ومهما يكن من أمر، فإذا كان الكاتب قد أخفق في تقديم شخصيات روائية نامية ونابضة فإن تلك الشخصيات تظل شخصيات روائية بغض النظر عن مواصفاتها البنائية.

3- تقنيات السرد:

لقد استخدم الكاتب تقنيات السرد المعاصر المعروفة، من مثل تيار الوعي، والحوار الداخلي، والارتداد (الFLASH باك)، والتقطيع السينمائي، وهو ما جعل الزمن الروائي في هذا العمل زمناً متكسراً وليس متسلسلاً تصاعدياً، وهو ما يؤكد معرفته بأدوات السرد الروائي عربياً وعالمياً.

4- الفضاء الروائي:

لم يستطع الكاتب في هذه الرواية أن يتخذ من الفضاء الروائي أداة من أدوات السرد، على نحو ما نرى في أعمال عبد الرحمن منيف، أو نجيب محفوظ، أو إبراهيم الكوني، على سبيل المثال، ولذلك نصدم بغياب المكان في هذه الرواية، فأين مواصفات المصنع والمدن والقصور والمؤسسات الإدارية وما إلى ذلك؟! إن الفضاء المغيب في هذه الرواية يذكرنا بالأجواء

³⁷ - محمد عبد الملك، الجذوة، بيروت، دار الفارابي، الطبعة الأولى 1981م، ص: 83.

³⁸ - نفس الرواية، ص: 39 - 40.

المجردة في روايات "إسماعيل فهد إسماعيل" و"عبد الرحمن مجيد الربيعي".

5- النسيج اللغوي:

لا يسع القارئ إلا أن ينوه بلغة الكاتب التي تنوعت مستوياتها، فتراوحت بين السرد بضمير المتكلم حيناً وضمير الغائب أحياناً أخرى، وبين الحوار الداخلي والخارجي، أما الوصف فقد كان منتصراً على الشخصيات الروائية أو يكاد، لأن الكاتب لم يهتم كثيراً بوصف الحيز بهذا العمل، كما أشرنا في الفقرة السابقة.

وقد تخلل لغة الكاتب الفنية المتفجرة كثير من الصيغ المتألفة المبتكرة التي ترقى إلى مستوى لغة الحكمة، على نحو ما يترأى في الصيغ الآتية:

- "حين يغادر الإنسان بلاده تضحى لديه كل الأرض متساوية"³⁹.

- "لماذا لا تسمعونا مرة وتقتنعون مرة دون إراقة دماء. هذه عصا حضارتكم .. المال والجريمة"⁴⁰.

- "الحلم ذخيرتنا الأخيرة"⁴¹.

— "أنا أتبع، وهناك من يتبعني. الكل يركض وراء الكل. والدنيا تدور. نحن أبناء الكرة الأرضية، حتى إذا توقفنا فهي تدور"⁴².

— "اللقاء الحقيقي هو الذي يكون ساعة الوداع"⁴³.

— "في الأربعين تتبدل الخيارات. من لا يسقط في العشرين يسقط في الأربعين"⁽⁴⁴⁾.

³⁹ - نفس الرواية، ص: 32.

⁴⁰ - نفس الرواية، ص: 42.

⁴¹ - نفس الرواية، ص: 62.

⁴² - نفس الرواية، ص: 85.

⁴³ - نفس الرواية، ص: 107.

⁴⁴ - نفس الرواية، ص: 110.

والذي نخلص إليه أن هذه الرواية لا تكتسب ريادتها التاريخية من كونها أول رواية تنشر في الأدب البحريني المعاصر، وإنما تكتسبها كذلك من حيث كونها رواية فنية حققت قدرا كبيرا من النضج بالقياس إلى مثيلاتها من الروايات الرائدة، كرواية "زينب" لمحمد حسين هيكل، ورواية "شاهنده" لراشد عبد الله، ورواية "الأجنحة المتكسرة" لجبران خليل جبران.

أغنية ألف صاد الأولى لأمين صالح

تعد هذه الرواية باكورة أعمال الروائي البحريني "أمين صالح" الروائية، فقد عرفناه من قبل كاتباً للقصة القصيرة التي نشر فيها عدداً من المجموعات، من مثل "الفراشات"، و"الصيد الملكي"، و"هنا الوردية"، ولكنه ما لبث أن تحول إلى كتابة الرواية.

وقبل أن نشرع في رصد وتحليل سمات هذه الرواية، يجدر بنا أن نقدم نبذة عن أحداثها ومضامينها، لكونها تقوم على الرمز والتلميح وتوظيف التقنيات الروائية المعاصرة، وخاصة تقنيات: تيار الوعي، والتقطيع السينمائي، والحوار الداخلي، والأحلام، والارتداد، (الFLASH باك)، والبيانات، والإحصاءات، وما إلى ذلك من التقنيات الشكلية التي جارت على هذه الرواية.

وأياً ما يكون الأمر، فإننا نقابل "أ.ص" بطل هذه الرواية، الذي يفور ثورة وتمرداً على الواقع المحلي العربي والعالمي، ويريد تغييره، بل إنه يهفو إلى تغيير الكون المادي نفسه، كما يصرح:

"كل شيء هنا يدعو إلى الارتياب في صيغة العالم: الماء، التراب، فالنار، والهواء... لو استطعت لمزجت العناصر وصنعت عالماً مغايراً. آنذاك سوف أهتف: هذا عالم آخر قابل للتغيير في أي وقت"⁴⁵.

ونرى هذا البطل السلبي يتردد على المقاهي والمباغي والحانات والسجون والمشافي، ويعيش حياة المشردين المطاردين من رجال الأمن الذين يضطادونه ويهتمونه بارتكاب جريمة قتل، وينكلون به كي يعترف بتلك الجريمة التي كان بريئاً منها. ولم يخضع "أ.ص" لهذا التعذيب وحده، فقد كان هناك أشخاص آخرون يعذبون للسبب نفسه، وعلى الرغم من اعترافهم

⁴⁵ - أمين صالح: أغنية ألف صاد الأولى، بيروت، دار الفارابي، الطبعة الأولى 1982م، ص: 4.

جميعا بارتكاب الجريمة، فإن الاختيار وقع عليه كي تلصق به تلك الجريمة فيتحمل وزرها. ومن خلال الارتداد نعرف أن "أ.ص" قد نشأ يتيما، وضاع، وظلت والدته تبحث عنه دون جدوى، إلى أن عثرت عليه في مشفى للأمراض العقلية، حيث يشرب "كمية كبيرة من حامض الكبريت"، كما ورد في تقرير الطبيب، لكن إدارة المستشفى تخفي سبب وفاته، وتحمل والدته على الاعتراف بموته موتة طبيعية، ولكن تلك الوالدة لا تستسلم، بل تحمل مشعل الثورة بالإنابة عن ابنها، ولذلك نراها ترتدي ثوبا أحمر بدلا من الثوب الأسود الذي يرمز إلى الحداد. وهناك أحداث أخرى كثيرة تؤلف بناء هذا النص الروائي.

وأمين صالح في هذه الرواية لا يجسد محنة الإنسان المعاصر وانسحاقه في دوامة الحياة، فحسب، وإنما يجسد محنة الإنسان العربي واستلابه وقمعه واضطهاده، وذلك بأسلوب تجريدي مقصود كما يبدو فيما يأتي:

1- البناء:

إن بناء الأحداث في هذه الرواية جاء مفككا مفتقرا إلى التماسك المنطقي، ينتقل الكاتب من حدث إلى آخر دون رابط، ودون مقدمات، وكثيرا ما يقع التناقض الصارخ الذي يستعصي على أي نسق منطقي. ويكفي أن نتأمل هنا بحدث موت "أ.ص" منتحرا في المستشفى، ثم يظل يواصل سرده بعد موته واصفا معاناة والدته في المشفى:

"أغمض الطبيب عينيه، وبدأ شخيره يعلو رويدا رويدا، وعندما أيقنت المريضة أن الطبيب مستغرق في النوم تماما دفعتني بازدياء، فوقعت بالقرب من أمي. غادر الممرضون الغرفة. حملت أمي وخرجنا. وضعتها فوق تلة، مسحت الدم، فبدا وجهها جميلا رائقا"⁴⁶!

⁴⁶ - أمين صالح، أغنية ألف صاد الألى، ص: 96.

"فكيف يحضر " أ. ص " موت والدته وقد مات قبلها"؟⁴⁷!

إن عودة الأموات إلى الحياة لا يمكن أن يكون مقنعا بالنسبة إلى المتلقي إلا في الأعمال الأدبية الأسطورية التي تصدر عن أسلوب الواقعية السحرية.

2- الشخوص:

الشخوص في هذا النص مجردون من ملامحهم المحلية التي تؤكد خصوصيتهم السيكولوجية أو الثقافية أو الاجتماعية، بل إن الكاتب يضمن عليهم حتى بالأسماء، فيطلق عليهم صفات مجردة عامة، مثل "المختار"، و"أرملة"، و"زوجة"، و"الملكة"، و"بائع متجول"، و"مخبر"، و"مؤرخ" وهلم جرا.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن هؤلاء الشخوص الذين يماثلون الأشباح في هذه الرواية، شخوص فاعلون في الأحداث، وليسوا حياديين.

كما أن الكاتب لم يكن يحرص على تقديم شخوص روايته تقديمًا منطقيًا مقنعًا بوصفهم ملتحمين بالأحداث السابقة، وإنما يقدمهم بطريقة فجائية كأنهم ينزلون من السماء، فيؤدون أفعالًا، وينغمسون في مواقف إنسانية، ثم يهتفون. وكان أولى بالكاتب أن يعامل كل شخوص روايته معاملة عادلة، فيحرمهم جميعًا من الأسماء، طالما أنه كان يعتمد ذلك، ولكنه كان منحازًا إلى بطل الرواية الذي من عليه بحرفي " أ. ص " حتى يميزه عن غيره، على غرار ما فعل "كافكا" في "قلعته"، علما بأن رمز هذين الحرفين واضح تمامًا، وهو اسم الكاتب نفسه (أمين صالح).

3- اللغة: لغة الكاتب في هذه الرواية مليئة بالرموز والتمزق والإيحاءات، ولذلك فإنها أبعد ما تكون عن اللغة المعجمية أو اللغة الاجتماعية، كما أنها لا تكتفي بالوظيفة التقليدية للغة، وهي وظيفة التعبير أو الاتصال

⁴⁷ - نفس الرواية، ص: 94 - 95.

والتواصل، بل تتجاوز هذه الوظيفة إلى وظيفة أخرى، وهي وظيفة الإدهاش والتفجير، على غرار ما نجد في الشعر الحدائي خاصة. ويمكن أن نتمثل هنا بالفقرات الآتية المقتطفة من فصول الرواية:

— "هل تسمحين بأن أرخي الستارة وأن أدخل ضفائرك النرجسية وأن أتوسد نهدك؟ دعيني يا حبيبة أفعل. أغيب في منعطفات الماضي وفي أطراف الضواحي، أتأبط تعاستي وأبكي بمرارة ساعات طويلة"⁴⁸.

— "صدرك شاسع، يقترب من أنفي، من شفتي، ألتحم بأنوثتك وأغيب.. أتياه.. ثم أبكي لأنني فقدت مصابحي ولأن البراءة تنسحق تحت القسوة الهادرة في عزلة طفل"⁴⁹.

— "ليس أفضل من الصحراء مكانا للموت المنفرد. كان معي جبل وضوضاء لهائي ومرآة. كان جسد الصحراء أملس مثل جلد أفعى، بحيث كنت أستطيع أن أبصر خطواتي تنزلق وتتدحرج أمامي، ووضعت المرآة أمامي لكي أرى فيها موتي"⁵⁰.

إن لغة الرواية يفترض فيها ألا تقع في مثل هذه التجريدات والإنشائيات التي تتأى بها عن نبض الموقف الروائي والخطاب السردي الذي يمنح العمل الروائي هويته. إن هذه المقتطفات في الحقيقة تعرقل نمو الحدث الروائي، وتعطل عجلة السرد الذي يسعى دوما إلى بلوغ هدف محدد مسبقا.

4- الصورة: لعل من ناقل القول أن نشير هنا إلى أن الصورة ليست عنصرا أساسيا من عناصر الرواية، على نحو ما نجد في الشعر، ومع ذلك فإننا نقف عندها في هذه الرواية لكونها من أهم الأدوات التي يعتمد عليها الكاتب في تأكيد شعرية عمله التجريدي.

⁴⁸ - أمين صالح: أغنية ألف صاد الأولى، ص: 25.

⁴⁹ - نفس الرواية، ص: 58.

⁵⁰ - نفس الرواية، ص: 63.

الفقرات السابقة التي تمثّلنا بها لا تخلو من صور، ولذا نكتفي بالوقوف عند العينات الآتية فحسب:

- "للنكتة طعم مسمار قديم" ⁵¹.

- "المقهى يشبه ثقب جمجمة ترتاح على ضريح مبتل" ⁵².

- "يسابقون الريح البطيئة في أروقة مغلقة" ⁵³.

- "أترككم تتعفنون مثل ضوء مصباح" ⁵⁴.

هذه الصور - كما نرى - صور حدثية تثير الدهشة لغرابتها واتسامها بالتجريدية التي لا تصلها مخيلة المتلقي بسهولة، وهي أقرب ما تكون إلى اللوحات السوربالية، مثل لوحات "سلفادور دالي".

والذي نخلص إليه أن النزوع التجريدي الحدثي يطغى على رواية أمين صالح الموسومة بـ "أغنية ألف صاد الأولى"، وهو النزوع الذي يتراءى في البناء، وفي مواصفات الأشخاص، وطبيعة الزمان والفضاء، كما يظهر في النسيج اللغوي والتصوير.

⁵¹ - نفس الرواية، ص: 4.

⁵² - نفس الرواية، ص: 5.

⁵³ - نفس الرواية، ص: 5.

⁵⁴ - نفس الرواية، ص: 28.

السوافح لفريد رمضان

اهتم الكاتب في هذه الرواية اهتماما كبيرا بأسلوب السرد، فهو لا يعني بمضمون السرد بقدر ما يعني بكيفية السرد، وهذا الاهتمام يظهر أمامنا في توظيف الحلم، وفي الأسلوب العجائبي وفي تقسيم أجزاء الرواية تقسيما يقوم على مبدأ التوازن أو التناظر، فضلا عن توظيف تقنية تعدد الأصوات.

نلفت النظر أولا إلى أن تقنية تعدد الأصوات اكتشفها المنظر الروسي "ميخائيل باختين" عند دراسته لأعمال "دوستوفسكي"، حيث أكد تمييز هذا الكاتب الروائي العالمي عن غيره من كتاب الرواية الأوروبية بتوظيف هذه التقنية التي وسمت أعماله بسمة شكلية جديدة.

"دوستوفسكي" هو خالق الرواية المتعددة الأصوات (Polyphone)، لقد أوجد صنفا روائيا جديدا بصورة جوهرية. ومن أجل هذا فإن أعماله الإبداعية لا يمكن حشرها داخل أطر محددة من أي نوع، وهي لا تدعن لأي من تلك القوالب الأدبية التي وجدت عبر التاريخ. ففي أعماله يظهر البطل الذي بنى صوته بطريقة تشبه بناء صوت المؤلف نفسه في رواية ذات نمط اعتيادي. إن كلمة يتلفظ بها البطل حول نفسه هو بالذات، وحول العالم تكون هي الأخرى كاملة الأهمية تماما مثل كلمة المؤلف الاعتيادية. إن هذه التقنية قد استخدمها "دوستوفسكي" في كثير من أعماله الروائية، ولا سيما في "الجريمة والعقاب" ⁵⁵.

أما كاتبنا فريد رمضان فقد سبق له أن جرب هذه التقنية في روايته الأولى "التنور"، لكنه لم يستطع أن ينضجها على نحو ما فعل في روايته الثانية "السوافح"، إذ إنه اتخذ من هذه التقنية الأداة الرئيسية في عرض أحداث روايته، وذلك عن وعي وتخطيط مسبق. وقبل أن نرصد ملامح تطبيق هذه

⁵⁵ - أنظر إلى ميخائيل باختين: شعرية دوستوفسكي. ترجمة الدكتور جميل نصيف التكريتي، مراجعة الدكتورة حياة شرارة، منشورات دار توفيق، الدار البيضاء (المغرب) // دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد)، الطبعة الأولى 1986م، ص: 11.

التقنية في "السوافح" يجدر بنا أن نقف قليلا عند مضامينها. يعالج فريد رمضان في هذه الرواية مكابدات فئة اجتماعية معينة من فئات النسيج الاجتماعي البحريني، وهي فئة الموالين لآل البيت روحيا ومذهبيا، وذلك إبان فترة الحماية الإنجليزية للبحرين، وخاصة في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين، كما يؤمى الكاتب صراحة في روايته في سياق وصف رمضان الكاتب: "لملابسات اعتقال حسين بن إسماعيل القلاف في مظاهرات الحادي عشر من مارس، عام 1956م"⁵⁶.

هذه الرواية تتألف من أربعة أقسام:

1- القسم الأول، ويحمل عنوان "خديجة".

2- القسم الثاني، ويحمل عنوان "إسماعيل".

3- القسم الثالث، ويحمل عنوان "خاتون".

4- القسم الرابع، ويحمل عنوان "رمضان الكاتب".

وكل قسم من هذه الأقسام يحتوي على مفصل داخلي، ويصدر بنص من أهازيج الشاعر الشعبي "حسين بورقبة" الذي ولد في الأحساء بالمملكة العربية السعودية، ثم هاجر إلى البحرين بعد وفاة والده، حيث استقر في المنامة.

أما ملامح التقنية التي توجد في هذه الرواية فيمكننا أن نحصرها فيما يأتي:

أ- تعدد الرواة:

إن الرواة في هذا العمل لا يقتصرون على "خديجة" و"إسماعيل" و"خاتون" و"رمضان الكاتب"، بل يتجاوزوه إلى رواة ثانويين آخرين، من أمثال "الجد" و"الجددة"، ولكن تدخل هؤلاء الرواة في الرواية يظل محدودا جدا، أما الراوي الآخر الذي يلعب دورا مهما في سرد الأحداث والتعليق

⁵⁶ - فريد رمضان: السوافح... ماء النعيم، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 2006م، ص: 153.

عليها، فهو الراوي الضمني الذي يمثل صوت المؤلف، وهذا الصوت كان يطالعا في سياق السرد من حين إلى آخر. وهذا الصوت (صوت المؤلف الضمني) لا يلغي أصوات الرواة الآخرين التي تظل متوجهة ومتميزة، ويحاول الراوي الضمني في كثير من الأحيان أن يغوص في أعماق شخصيات الرواية.

ب - **تفتيت الحدث**: إذا كانت الأحداث واحدة في هذه الرواية فإنها لا تسرد متسلسلة على نحو ما يتراءى في الرواية الكلاسيكية، بل تسرد مفتتة من خلال وجهات نظر الرواة التي تتفاوت في تجانسها بدلا من التطابق حتى التضاد.

اعتقال حسين: "اندفع رجال شرطة الشغب داخل البيت، كانوا يبحثون عن حسين وعبد علي، صرخنا، أنا وخاتون، ألقيت عليها بمشمرها، وركضت نحو الدار ألمم نفسي بالعباءة، وما أن خرجت حتى هالني مشهد الشرطة وهي تجر حرسين، اندفعت نحو الشرطة أرجوه أن يطلق سراحه، إلا أن شرطيا آخر وقف في وجهي وهددني ببندقيته لأبعد عن طريقهم، دفعته بيدي، فضربني بكعب بندقيته، سقطت في مكاني" 57.

هذا الحدث يروي من قبل "خديجة" ومن قبل "إسماعيل" ومن قبل "خاتون" من وجهات نظر متباينة إلى حد التناقض من حيث وقعها أو تلقيها.

ولكن "خديجة" تروي هذه الحادثة بالتفصيل لأنها كانت شاهدة على تفاصيلها ومعينة بها أكثر من غيرها، وذلك بوصفها أما للمعتقل، ولكنها لم تكن تمتلك الشجاعة، أو لم تكن تمتلك الوعي السياسي الكافي الذي يسمح لها أن تفصح عن موقفها بأكثر من طرح السؤال على نفسها: "ما ذا يحدث لنا؟! إن خديجة التي تحس بالقهر والحزن العميق نتيجة اعتقال ابنها البكر

57 - فريد رمضان: السوافح، ص: 49.

العليل الذي ما يزال غضا في مقبل العمر لم تكن تعي ما حدث، ولم تكن تستطيع أن ترفع صوتها كي يسمعه الآخرون.

وعلى هذا الغرار يستمر رمضان الكاتب في السرد، فنعرف من خلاله أن المتظاهرين كانوا يريدون التخلص من "مستشار الدولة الإنجليزي"، وأن المرض بدأ ينهش جسد "حسين" المعتقل، وأنه ظل مهملا في الرطوبة والحر في زنزانه.

إن هذه التفاصيل التي يرويها رمضان الكاتب لأول مرة تثري السرد الروائي دون شك وتضيئ جانبا مهما من جوانب حدث اعتقال "حسين"، ولكن رمضان الكاتب لم يكن مؤهلا للقيام بهذا الدور.

انكسار الزمن:

ما من شك أن النتيجة الحتمية لتعدد الرواة وتفتيت الحدث الروائي في النص هي انكسار زمن السرد وعدم تسلسله، لأن لكل راوية زمنه الخاص الذي يسلك الأحداث التي يرويها، وهي أزمنة فيزيقية ذات بداية ونهاية محددتين أو مفتوحتين، فإذا كان زمن "خاتون" و"حسن" و"موسى" ذا بداية ونهاية، فإن زمن "خديجة" و"إسماعيل" و"رمضان الكاتب" ذا بداية بلا نهاية في المتن الروائي، أما زمن الراوي الضمني الذي يهيمن على الأحداث جميعا فهو زمن بلا بداية وبلا نهاية⁵⁸. وتتداخل أزمنة السرد في الرواية، من آني راهن وماض منقص ومستقبل لاحق.

تعدد الخطابات اللغوية: كان يفترض في الرواة في هذا العمل أن يروي كل منهم بأسلوبه الخاص الذي يميزه عن غيره من الرواة الآخرين، وذلك انطلاقا من مبدأ تباين الأعمار والأجناس والثقافات، ولكن الذي يطالعنا في هذه الرواية من حيث الأسلوب اللغوي هو التجانس بين الخطابات، ولعل

⁵⁸ - راجع الرشيد بوشعير، "مساءلة النص الروائي - في السرديات العربية الخليجية المعاصرة"، ص: 733.

الكاتب كان يدرك أهمية هذا التنوع في الخطابات، ولذلك بدأ عمله بداية سليمة، فحرر نص الشكوى التي رفعتها "خديجة" إلى الإمام علي - كرم الله وجهه - بأسلوب متميز ومختلف تماماً عن أسلوبه في روايته الأولى "التنور" وعن أسلوبه في هذه الرواية "السوافح" ويكفي أن نلقي نظرة عجل على الفقرة الأولى من هذه "الشكوى" حتى ندرك ذلك:

"إلى سيدي ومولاي ومعتدي ورجائي، السلام عليك يا أمير المؤمنين وسيد الوصيين، ووارث علم النبيين وولي رب العالمين. السلام عليك يا دين الله وسفيره في خلقه وحجته البالغة على عباده. أنا الضعيفة لك، القوية بك، خديجة بنت جعفر الشرقي، أطلب منك يا سيدي ومولاي، يا حبيبي وعضدي، يا وجيها عند الله، أن تشفع لي عند الله، يا وحي رسول رب العالمين، يا علي بن أبي طالب، أسألك شاكية لك من ريب الزمان، أن تسأل ربك وأنت في الأمان، أن يصرف عني الأمراض والأعراض والأعداء، وأن يجعل حياتي طيبة، هادية، أنا وأولادي ومن أحبني وأحبيته"⁵⁹.

إن هذه الفقرة دبجت بأسلوب تراثي جزل متميز عن سائر أساليب الرواة الآخرين، ولكن هذا الأسلوب ما يثبت أن يختفي بعد ذلك ليحل محله أسلوب الكاتب الذي لا يختلف مهما اختلف الرواة.

وقد ضمن الكاتب أسلوبه بعض النصوص التراثية التي اقتبسها من ابن عربي، أو من المرويات الشفوية الشعبية، أو من الأهازيج والمواويل⁶⁰، فضلا عن العتبات المقتطفة من الشاعر الشعبي، وهي العتبات التي صدر بها الكاتب كل قسم من أقسام روايته.

وإذا كان الكاتب قد حرص على إثراء النسيج اللغوي في روايته بهذه الأساليب، فإنه حافظ على الأسلوب الفصيح في الحوار.

⁵⁹ - فريدمضان: السوافح... ماء التعميم، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 2006م، ص: 11.

⁶⁰ - يرجع إلى نفس الرواية، ص: 122 - 132 - 140.

والذي نخلص إليه أن فريد رمضان في روايته "السوافح" حرص حرصا شديدا على توظيف تقنية تعدد الأصوات التي بنى روايته على أساسها، فنجح إلى حد ما في التمييز بين مواقف شخصه أو رواته المتعددين، ووجهات نظرهم، ولكنه أخفق في توزيع أصوات الرواة وتمييز تلك الأصوات أسلوبيا.

الباب الثالث

عبد الله خليفة...حياته وأعماله

عبد الله خليفة...حياته وأعماله

يعد عبد الله خليفة من أبرز وأشهر المبدعين في عالم الأدب والثقافة بالبحرين، فهو الكاتب والروائي والناقد والصحفي الكبير، الذي اشتهر لدى قراء "أخبار الخليج" بكتابة عموده اليومي "أفق" في صفحة "قضايا وآراء" فضلا عن توليه مسؤولية تحرير الملحق الثقافي والأدبي لسنوات طويلة منذ البدايات الأولى لصدور الجريدة.

فلا ريب أن عبد الله خليفة اسم لامع في الأوساط الأدبية والثقافية، ومن الصعب نسيانه لكونه قامه أدبية أسهمت في رفع اسم البحرين، وإثراء ساحتها الأدبية والروائية، تعتبر تجربته علامة فارقة في مجمل حركة إنتاج الرواية خليجيا وعربيا.

وتميزت كتاباته بعمق الفكر وغزارة الإنتاج، حيث أصدر ما يزيد عن خمسين (50) كتابا، بما فيها أكثر من خمس وعشرين رواية، وله كتب غير مطبوعة أيضا. ولذا يعتبره كثير من النقاد "أشهر روائي في تاريخ البحرين الأدبي والثقافي المعاصر"¹.

وعمل عبد الله خليفة في بداية عمله الصحفي لسنوات في قسم التحقيقات، فتميزت إبداعاته عن سواها بالجرأة ومعالجة قضايا المجتمع الملحة. أما في مسيرته الأدبية والفكرية فقد عرف عنه الغزارة في الإنتاج والعمق في الكتابة سواء في مجال الرواية، أو مجالات النقد الأدبي والكتابات البحثية في قضايا الفكر العربي والإسلامي، ومناقشة القضايا الإشكالية والخلافية التي تشغل الوعي العربي قديما وحديثا.

قد استطاع الكاتب أن ينحت لنفسه مكانة مرموقة في عالم الأدب والرواية، ليس على مستوى البحرين فحسب، بحيث كان الروائي الأشهر في حياة

¹ - حسين صالح: عبد الله خليفة.. البحرين تودع أحد كبار كتابها المبدعين، جريدة "أخبار الخليج" البحرينية، 22 أكتوبر، 2014م.

البحرين الثقافية، ولكن أيضا في طليعة الروائيين البارزين في منطقة الخليج، والعالم العربي عموما. كان يحظى بتقدير واحترام الأوساط الأدبية والثقافية في معظم العواصم العربية، فدون شك إنه اسم شامخ للبحرين في عالم الإبداع والإنتاج الأدبي والروائي. خلال سنواته الأخيرة "طور عبد الله خليفة مشروعه الفكري والثقافي ليتجه إلى إجراء بحوث في قضايا الفكر العربي والإسلامي بحثا عن حلول لمشكلات الوعي العربي الحديث، وجذور المشكلات في اتجاهات التفكير العربي ونمط تعامل العقل العربي مع هذه المشكلات"².

وقد اختارت مجلة "الحياة الثقافية" التي تصدر من تونس عن وزارة الثقافة، تجربة الكاتب عبد الله خليفة ضمن قائمة أهم الروائيين العرب الذين عبروا في كتاباتهم عما سمته "أدب البحر" من خلال الرواية. وقال الكاتب أبو هيف ضمن دراسة نشرها في العدد الأخير للمجلة تحت عنوان "أدب البحر في الرواية العربية" إن "غالبية روايات خليفة توحى بالدلالات الكامنة في التناسع مع البحر". وأضاف في هذا السياق "تصور رواياته الصراع الاجتماعي في البحرين، ومنها إشكاليات العلاقات الاجتماعية والإنسانية في المدن والقرى الساحلية"³.

فالروائي البحريني عبد الله خليفة هو أهم روائي البحرين حتى الآن، وأحد الذين استمدوا أعمالهم من الواقع الاجتماعي لبيئته، وأحد الذين عبروا بأعمالهم القصصية والروائية عن هموم المجتمع البحريني بكل خصوصياته، ربما يعتبر رائد الرواية العربية بجانب أنه يستمد خصوصيته في هذا المجال من احتفائه بصفة خاصة بعالم البحر والغوص وما يحيط ويتصل به من أعمالها وبيئتها وأثرها وموروثها الاجتماعي الخاص.

² - المصدر السابق.

³ - علي الشرقاوي: عبد الله خليفة.. الروائي المنحاز لمعذبي الأرض، صحيفة "الوطن" الجمعة 27 سبتمبر، 2013م.

نبذة عن حياة عبد الله خليفة: هو عبد الله علي خليفة، من مواليد "المنامة" عاصمة البحرين، ولد في 3 مارس، عام 1948م، وكان مسقط رأسه منطقة "القضيبيية" بيوت العمال من إحدى مناطق المنامة، في أسرة عمالية بحرينية متوسطة الحال، إذ كان والده يعمل في شركة بابكو النفطية، وقد عانت عائلته من وفيات الأطفال المتكررة. فترعرع الكاتب خليفة وسط عائلة تخاف على أولادها القليلين من أجل المرض والموت، ولم يبق لديه من عائلته سوى شقيقته مريم وأخيه عيسى خليفة⁴.

كسبه للعلم:

بدأ عبد الله خليفة مراحل حياته التعليمية في مدرسة القضيبيية الابتدائية بشكل سيئ في البداية بسبب هروبه عن التعليم وعدم وجود توجيه عائلي صحيح وسليم. يقول عن تلك الفترة صديق طفولته علي الوادي في مقال نشره عن حياة عبد الله خليفة في صحيفة "الوسط" البحرينية: "إنه لم يكن مواظبا على الانتظام في التعليم، فالأب والأم كانا أميين، وكان عبد الله كثير الهروب والتغيب عن المدرسة، وبالرغم من هذا فقد وضع والده نصب عينيه متابعة ولده لإكمال تعليمه"⁵. فانتظم الابن في الدراسة وراح يتفوق واتجه لقرأة الكتب بتوجيه من زملائه الطلبة المتفوقين.

يصف الشاعر علي الشرقاوي (من أبرز شعراء البحرين) أحوال دراسته معه في الطفولة: "قد يذكر عبد الله أو لا يذكر، أني كنت معه إبان الطفولة الأولى، في الصف الأول والثاني تحضيري في مدرسة القضيبيية، عام 1955—1956م، حيث عشنا معا أحداث 1956م وكيف خرجنا من المدرسة إلى بيوتنا، كان هو يسكن شرق القضيبيية، في اللينات، بيوت

⁴ - فيصل عبد المحسن: عبد الله خليفة كاتب رصد يوميات البحارنة لحظة بلحظة، لندن، صحيفة "العرب"، العدد: 10161، 21 يناير 2016م.

⁵ - علي الوادي: عبد الله خليفة. مناضل وطني وكاتب تنويري، صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 1057، الجمعة 29 يوليو، 2005م/ الموافق 22 جمادي الآخرة، 1426هـ.

العمال التي بنيت بعد حريق 1954م والذي اتهم مئات بيوت سكان السعف، البيوت الممتدة من مدرسة القضيبية للبنات - إلى الساحل، عبد الله ابن العامل وابن حي العمال، ابن الطبقة الكادحة وواحد من حي الكادحين، ربما ليس صدفة أن يكون أحد المهمومين بحق الطبقة العاملة أو البرولتاريا، فعاش وترعرع على عرق والده وهو يحاول أن يجلب اللقمة الكريمة لأبنائه، وليس صدفة أن يكون أصحابه وأصدقائه الذين يلعب "الدامة" معهم هم من حي العمال والذين يعيشون نفس المنطقة ويعانون من نفس المعانات، وإن كان يسكن في عائلته في بيت من طين، إلا أن هذا البيت أيضا محاصر بمجموعة من بيوت السعف والأكواخ الخشبية للذين لم يحصلوا مثل غيرهم على بيوت الطين المعدودة بأصابع اليدين والقدمين"⁶.

من هنا فإذا كانت كتابة عبد الله خليفة عن المعدمين والمسحوقين، فهي تعبير مباشر عن الحياة التي عاشها، وعن أجواء الأحياء الفقيرة التي تشبه الحي الذي كبر بين ملاعبه والبحر القريب منه وبيوت السعف العديدة التي انتقلت من غرب منطقة الحريق إلى شرقها.

وسجل عبد الله خليفة في كثير من قصصه لمحات من جهاد الآباء في توفير العيش الكريم والتعليم لأبنائه، ومن يقرأ قصص الكاتب يحب الشعب البحريني البسيط والطيب، الذي تأخى أفراده في المسرات والأوجاع. كما حدد معالم شخصية الأم في الرواية، كأم محدودة الثقافة تعيش في قاع المجتمع، وتعمل خياطة لتعيل ولديها اليتيمين، فوضعنا القاص عبد الله خليفة في كل فقرة من فقرات قصص مجاميعه في أزقة المحرق، في تلك الأزقة الضيقة التي يتذكر من خلالها القاص خليفة طفولته، وشبابه في منطقة القضيبية والحورة ورأس الرمان والفاضل والعضوية، وهي مناطق

⁶ - علي الشرقاوي: عبد الله خليفة.. الروائي المنحاز لمعذبي الأرض، صحيفة "الوطن"، الجمعة 27 سبتمبر 2013م.

في البحرين تزدهم فيها بيوت العمال والفقراء من البحارة، والصيادين والباحثين عن اللؤلؤ من أهل البحرين في الفترة التي سبقت اكتشاف ثروة النفط.

على كل حال، أكمل عبد الله خليفة تعليمه الابتدائي بصعوبة، وأتم بعد ذلك تعليمه الثانوي، وخلال هذه الفترة برزت مواهبه الأدبية بشكل مبكر، وأنهى سنوات معهد المعلمين العالي بمملكة البحرين، فتخرج من المعهد العالي للمعلمين سنة 1970م⁷.

يكتب علي الشرقاوي في مقال له: "إن مريم أخت الروائي، كانت تعبد له طريق الحلم، كل إنسان يتأثر في طفولته بشخصية تؤثر فيه، وتمده بفيتامينات الحيوية التي يحتاجها ليوصل تحقيق الحلم الذي يحلم، وعبد الله خليفة، بالإضافة إلى والدته، كانت هناك أخته مريم التي ربما كانت ترى فيه، شخصية مهمة في المستقبل، ومن خلال اللقاءات السريعة مع عيسى خليفة، أخ الروائي عبد الله خليفة، قال: إن لمريم أختنا الكبرى دورا كبيرا وبارزا في تكوين شخصية عبد الله، ومثل رحيلها وهي في أولى مراحل شبابها، إحدى الفواجع التي عاشها عبد الله في رحلته الحياتية"⁸.

في مجال العمل: عمل الروائي عبد الله خليفة بعد ذلك في مجال التدريس حتى عام 1975م. وانخرط في العمل السياسي من خلال حزب جبهة التحرير. وتم القبض عليه بسبب مقال نشره تحت عنوان "تعليم استعماري" وذلك لأن المقال أثار خلافا واضطرابا ضد الحكومة، فألقي القبض عليه وأدخل في السجن سنة 1975م، حيث مكث ست سنوات حتى عام 1981م. كانت أصداء الحركة الوطنية تصل وتنتشر بسرعة البرق في كل

⁷ فيصل عبد المحسن: عبد الله خليفة... كاتب رصد يوميات البحارنة لحظة بلحظة، لندن، صحيفة "العرب"، اليومية، العدد: 10161، الخميس 21 يناير، عام 2016م.

⁸ حسين صالح: عبد الله خليفة.. البحرين تودع أحد كبار كتابها المبدعين، أخبار "الخليج" البحرينية، 22 أكتوبر، 2014.

مكان، إذ الصراع ضد الاستعمار كان على أشده وذلك في منتصف الخمسينات والستينات، وفي مدرسة الحورة قاد مع رفاقه في انتفاضة مارس/ آذار 1956م، جماعة شقت طريقها إلى مدرسة المنامة الثانوية للبنين و"تدفقت المجموعات الطلابية كالنهر الصاخب وعلى إثرها اندفعت خيول العسكر والجنود المرتزقة وراحت تنتشر تلك الأمواج البشرية الغاضبة ولم تهدأ الانتفاضة، بل زادت لهيبا ونارا"⁹.

في العام 1966م، تعرف مناضلنا على مجموعة منتمية إلى جبهة التحرير، فتكاتف معهم وعقدوا كثيرا من الاجتماعات، وعلى مدى ثلاثة أشهر ناقشوا من خلالها المسائل الأولية للفكر الحديث، فانخرط في صفوف الرفاق وانضم إلى خلايا تنتمي إلى منطقة القضيبيية والحورة ورأس الرمان والفاضل والعوضية. وفي العام نفسه حتى العام 1968م، وقعت أكبر ضربة أمنية لخلايا الجبهة منها صعد عبد الله إلى اللجنة القيادية للجبهة، وكان طالبا في الثانوية ثم في معهد المعلمين الذي كان يسمى عاليا، وكان عليه ألا يدرس في الخارج أو السفر، وهذه أحد تعهدات الرفاق بأن يكرس نفسه مع رفاقه والخلايا للكتابة وطبع المنشورات وتوزيعها ودعوة الناس وتوعيتهم.

عبد الله خليفة كمناضل وطني: هو واحد من آلاف المعتقلين والمنفيين الذين سالت دماؤهم وزهقت أرواحهم على تراب أرض الوطن الغالية في السجون والمنفي، في الشوارع والطرق وفي كل قرية ومدينة على أيدي المخابرات العميلة الظالمة. وهو من طاردهته المخابرات البوليسية وجهاز أمن الدولة المقبور ودفع ثمنا غاليا قدمه هذا المناضل الكبير حبا وفداء لوطنه وشعبه وللمبادئ والأحلام. إن مرحلة النضال التي خاضها عبد الله

⁹ - على الوادي : عبد الله خليفة...مناضل وطني وكاتب تنويري، صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 1057 - الجمعة 29 يوليو، 2005م.

زاخرة بالكثير من الحوادث المهمة، فهو شعلة من الحماس والاستعداد والتضحية والفداء من أجل الخلاص من قبضة الاستعمار وإحلال الحرية والديمقراطية العادلة. ففي أرض قضيبية وتحديدا منطقة بيوت العمال كان يسكن عبد الله مع عائلته المكونة من الوالدين وأخ وأختين. هذه المنطقة الحيوية المهمة عامرة بأهاليها ومبانيها وبمعالمها التاريخية وأشهرها قصر الشيخ حمد وجامع القضيبية الكبير وبعض الأحياء الشعبية التي لا تزال تحتفظ بطابعها وتراثها القديم. ومن هذه المنطقة تخرج الكثير من العناصر المتفوقة على الأصعدة والمستويات كافة، وكان طبيعيا أن يخرج من بينها رجال يحملون فكرا نضاليا ومنهم هذا المناضل الذي برز على الساحة السياسية كواحد من أشهر الكتاب ثقافة بأفكاره النيرة وحسه الوطني. وعندما أتحدث هنا عن دوره النضالي فمن المناسب لي أن أعيد إلى الأذهان تاريخه الحافل بالصراعات الفكرية والعملية ويعني ذلك مدى تقديري له وبجهد وعطائه اللامحدود الذي يبذله، فهو رمز حيوي من رموز النضال ومثال يحتذى به، إنسان أعطى لبلده على مدار أربعين عاما التي قضاها في صفوف العمل النضالي مع رفاقه كل ما من شأنه أن يضيف في سجلات الإنجازات التي حققتها جبهة التحرير الوطني البحرينية التي انصبت حقيقة في بوتقة الكفاح والتضحية.

وفي العام 1975م، كانت تجري عمليات تصعيد مفتعلة للصراعات السياسية والاجتماعية كمبرر لحل البرلمان، فكان عبد الله ضحية تلك الألاعيب، فقد نشر أحد الصحفيين تحقيقا عن التعليم تطرق فيه عبد الله خليفة إلى المشكلات العميقة داخله وكانت الإدارة تتصيد عبارات لتفجرها فأخذوا كلمة التعليم "تعليم استعماري" ليجعلوها قضية كبرى لا بد فيها من الاعتذار من أجل تفجير الاضطرابات في الشارع تمهيدا لحل البرلمان، فلم

يستجيب أحد لرغباتهم وقاموا بفصل عبد الله خليفة ورفاقه المعلمين وحرموا وخسروا سنوات العمل. "ولم تكن جبهة التحرير الوطني البحرينية سببا في التصعيد والانفجارات، وإنما هي افتعالات خلقها جهاز الاستخبارات لأن الجبهة كانت أكثر تنظيما وتأثيرا على الشارع العام بسبب واقعية خطها السياسي ومرونتها تجاه أشكال النضال كافة"¹⁰.

ومن جهته كان لديه نشاطه الفكري والأدبي وكان عبد الله في بداية الأمر يكتب في الصحافة بأسماء مستعارة، ففاز بجائزة أسرة الأدباء والكتاب للقصة القصيرة، ما دعاه إلى تكريس نفسه باسمه الحقيقي، بالإضافة إلى ذلك كان يكتب مقالات وبحوث ودراسات سياسية واجتماعية عن تاريخ البحرين وتطور القصة القصيرة.

كما قدم في مؤتمر الأدباء والكتاب العرب في الجزائر عام 1975م، وهي سنة حل البرلمان، كما هي أول وآخر سفرة له في عقد السبعينات، والتقى هناك شخصيات بارزة مثل الرئيس بومدين، وتعرف على الشاعر الجواهري، والباحث حسين مروة. فعاد مناظنا إلى أرض الوطن حاملا معه تلك الانطباعات وكان يهدف من خلالها إلى عرض ما لمس في ذلك المؤتمر للرأي العام، إلا أنه بعد عملية التصعيد المفتعلة كمبرر لحل البرلمان اعتقل وأدخل في السجن سنة 1975م، فألقي القبض عليه وفتش بيته بالكامل، وصودرت كتبه التي تقدر بثلاثة آلاف كتاب أحرقت أمام عينيه، وظل عبد الله خليفة سجيناً لمدة ست سنوات قضاها بين زنازن جو وعسكر وجدة ذاق فيها أشد ويلات التعذيب والقهر والمعاملات الوحشية السيئة، ولكن بإيمانه ووطنيته وتمسكه بمبادئه واعتناقه منهج جبهة التحرير ظل واقفا صلبا قويا عنيدا ضد كل التيارات المفتعلة والضارة. وعلى الرغم

¹⁰ - على الوادي : عبد الله خليفة...مناضل وطني وكاتب تنويري، صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 1057 - الجمعة 29 يوليو، 2005م.

من علمه بوفاة والدته فإنه كان ندا وعلاقا شامخا واشتد نضاله وعانقه مثل ما عانق قلبه حب أمه وروحها الطاهرة. "ماتت والدته قهرا وظلما وحسرة على فراقه وعلى ما رآته أمام عينيها لولدها وهو يجر من بين أيديها مقيدا بلا رحمة ولا ضمير. ولم يتمكن عبد الله من رؤية والدته وودعها على الرغم أن السلطات أعادته من جدة إلى المنامة ولكن بعد فوات الأوان، فقد ماتت قبل وصوله وعادوا به من دون علمه، ولكنه في النهاية انتصر بموقفه ومطالبه العادلة"¹¹.

عبد الله خليفة كاتب المقال الصحفي: بعد فصله من التعليم بسبب مواقفه الوطنية، باتت الصحافة بعائدها المتواضع هي مصدر عيش لعبد الله خليفة. في الصحافة ظل عبد الله وفيها لمبادئه ومواقفه. اختار لنفسه في مقاله اليومي نهجا لم يحد عنه، هو: "نهج الفكر التنويري والنقدي الذي لم يهادن فيه الدولة ولا ما يراه أخطاء وقصورا في أداء المعارضة"¹². يكفي عبد الله فخرا وشرفا أنه حافظ على ثبات ومبدئية موقفه في أصعب اللحظات في تاريخ الوطن التي انحدرت فيها الصحافة في هذا العصر إلى مستوى التهريج والسباب والشتم، واستبيحت صفحات الجرائد من الدخلاء على الكتابة والإعلام الذين حولوها إلى مصدر للارتزاق.

صاحب البوصلة السياسية الصائبة: كان الروائي والكاتب الصحفي عبد الله خليفة دائم الحضور في مسيرته الصحفية منذ البدايات الأولى لعمله في "أخبار الخليج" في المبنى القديم وحتى السنوات الأخيرة، وكان عبد الله يتمتع بالحماس للكتابة عن الواقع البحريني اليومي المعاش، وقد تميز بتواصله مع الناس البسطاء واهتمامه بالحديث عن همومهم ومشكلاتهم. وقد

¹¹ - المصدر السابق.

¹² - د.حسن مدن: الوجوه المتعددة لعبد الله خليفة، (كلمة له ألقاها في حفل المنبر التذكري لتأبين الأديب عبد الله خليفة 9 ديسمبر 2014م)، الحوار المتمدن، مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي، 14 ديسمبر، 2014م.

حدثت نقلة نوعية كبيرة في اهتماماته وكتاباته عندما بدأ يكتب عمودا يوميا في "أخبار الخليج" حيث تبلورت في كتاباته ملامح مشروع سياسي وفكري يدعم المشروع الإصلاحي في البلاد، وعبر عن رؤية سياسية وطنية سليمة، حيث كان ينتقد الأصوات الناشرة بين الكتاب والأقلام التي لم تتعامل بواقعية وعقلانية مع تحولات الواقع السياسي في البحرين. لقد كان الروائي يتمتع ببوصلة سياسية صائبة تعبر عن قضايا الوطن بحس ووعي وطني سليم نأمل أن يكون مثالا يحتذى لكثيرين من الأدباء والمثقفين في مملكة البحرين وهو ما يبدو من كتاباته اليومية في "أخبار الخليج".

عمل عبد الله خليفة منذ سنة 1981م في الصحافة الاجتماعية والثقافية في الصحف والجرائد البحرينية والخليجية، ونشر في العديد من الدوريات العربية. انتخب عضوا في أسرة الأدباء والكتاب، ورأس مجلس إدارتها واشترك في مجالس إدارتها عبر العديد من السنوات السابقة، كما اختير عضوا لاتحاد الكتاب العرب بسوريا.

يحكي لنا الشرقاوي عن علاقته بعبد الله خليفة في هذا الصدد قائلا: "توطدت علاقتي الجديدة بعبد الله خليفة، بعد أن كبرنا - حيث تخرج من معهد المعلمين وتخرجت من معهد الصحة العالي في بغداد - وبدأنا نقاشات فكرية وأدبية لم تنته بعد، ومن خلال النقاشات عرفت أنه يكتب القصة، لكنه في تلك الفترة لم يكن راغبا في النشر، حيث إن وجهة نظره في تلك الفترة هي أن النشر هو فضح للأيديولوجيا التي يعتنقها، وهذا صحيح، إلا أنني اختلفت معه في هذا الموضوع وحرصته على النشر، فبدأ نشر مجموعة من القصص القصيرة، وبعد فترة من النشر حرصته ثانية لدخول أسرة الأدباء والكتاب، فصار أحد أعضائها النشيطين"¹³. وأضاف مبينا: "التقينا

¹³ - على الشرقاوي: عبد الله خليفة.. الروائي المنحاز لمعذبي الأرض، صحيفة "الوطن"، الجمعة 27 سبتمبر، 2013م.

في الكثير من الندوات والجلسات التي كانت نقاشاتها تدور حول أوضاع العمال في البحرين، بعدها جمعنا معا عدة سنوات سجن القلعة وجدة وسافرة وجو، كل واحد منا يعمل على مشروعه الخاص، هو في الرواية والبحث الفلسفي في التاريخ العربي والإسلامي، وأنا في الشعر العامي والمسرحية الشعرية وكتابة شعر للأطفال، ورغم ما نشره خليفة مازال في جعبته الأكثر¹⁴.

ساهم في مؤتمرات اتحاد الكتاب العرب، وأول مؤتمر اشترك فيه كان سنة 1975 الذي عقد بالجمهورية الجزائرية وقدم فيه بحثا عن (تطور القصة القصيرة في البحرين)، وشارك في مؤتمر اتحاد الكتاب العرب بتونس سنة 2002م، بين 9 - 12 يناير، يبحث تحت عنوان (التضامن الكفاحي بين المسلمين)، وشارك في مؤتمر جمهورية مصر العربية سنة 2003م بين 9 - 12 ديسمبر، يبحث تحت عنوان (المتقف العربي بين الحرية والاستبداد)، وذلك باتحاد الكتاب المصريين، كما شارك في كثير من المؤتمرات والندوات الأدبية والثقافية¹⁵.

في مجال كتابة القصة والرواية: لا خلاف أن عبد الله خليفة يعد أحد أهم رموز الحركة الثقافية والأدبية في البحرين والخليج العربي، فهو من رواد الرواية والقصة القصيرة. له مساهمات نقدية عميقة، باحث دؤوب ومثابر، أصدر كتبا وروايات مهمة، إضافة إلى مقاله الصحفي في جريدة "أخبار الخليج" الذي يتميز عن سواه بمحتواه الفكري والعمل على تأصيل المفاهيم التنويرية التي نحتاج إليها.

غيابه خسارة كبيرة للوطن والثقافة في البحرين، حيث أننا في أمس حاجة لصوته كمفكر مدافع عن العقلانية وأفكار التقدم، ولكننا على ثقة أن التراث

¹⁴ - المصدر نفسه.

¹⁵ - عبد الله خليفة: جائزة كتارا للرواية العربية - السيرة الحياتية - (<http://www.kataranovels.com>)

الإبداعي والفكري الذي تركه الروائي سيخاد بقائه وحضوره ليس بيننا فقط، ولكن لدى الأجيال القادمة التي تتطلع لفكره كمنارة نور، قاله الدكتور حسن مدن عندما وصل إليه نبأ وفاة الروائي عبد الله خليفة.

يقول الكاتب السيد زهره: "رحم الله الكاتب الكبير والزميل العزيز الأستاذ عبد الله خليفة.. قدم إسهامات هائلة إلى الثقافة البحرينية والعربية بأعماله الروائية وكتاباته النقدية المتميزة، وبدوره في العمل الوطني. لعب دورا مشهودا في معركة التنوير والتقدم الفكري والسياسي التي تخوضها البحرين والدول العربية. ستبقى أعماله وأفكاره وإسهاماته الوطنية مرشدا لأجيال من الوطنيين البحرينيين الحالمين بغد أفضل ووطن أجمل¹⁶.

دخل عبد الله خليفة عالم الكتابة منذ منتصف الستينيات وأوائل السبعينيات ليتحف المكتبة البحرينية والخليجية والعربية بالكثير من إصداراته منها المجموعة القصصية الأولى التي صدرت في العام 1975م، بعنوان: "لحن الشتاء"، وسطع نجم الكاتب عبر إصداراته في حقبة الثمانينيات، فمنذ العام 1981م، حتى العام 1988م صدرت له مجموعتان قصصيتان هما: "الرمل والياسمين" و"يوم قائظ"، وروايات عديدة هي: "اللآلي" في العام 1981م، و"القرصان والمدينة" في العام 1982م، و"الهيئات" في العام 1983م، و"أغنية الماء والنار" في العام 1988م.

وتوالى الإصدارات واحدا بعد آخر في عقد التسعينيات برواية "امرأة" في العام 1990م، من إصدارات اتحاد الكتاب العرب، وأصدرت دار الحوار في العام 1992م، رواية "الضباب"، وبعدها أصدر المركز الثقافي العربي في العام 1994م، روايتين هما: "سهرة" و"نشيد البحر"، وأصدر اتحاد كتاب وأدباء الإمارات في العام 1996م، رواية "الينابيع"، وكان لدار

¹⁶- راجع - حسين صالح: "عبد الله خليفة... البحرين تودع أحد كبار كتابها المبدعين" أخبار الخليج، 22 أكتوبر، 2014م.

الحوار إصدار لرواية أخرى في العام 1997م، هي: "دهشة الساحر"¹⁷.
وليه الكثير من الروايات والأبحاث والمقالات والمشاركات، ومنها
الإصدارات المهمة في مجال الرواية التاريخية: "رأس الحسين" في العام
2006م، و"عمر بن الخطاب شهيدا" في العام 2007م، و"عثمان بن عفان
شهيدا" في العام 2008م و"علي بن أبي طالب شهيدا" في العام 2008م،
و"محمد ثائرا" في العام 2010م، وغيرها، ولا سيما الإصدار المهم للعام
2005م، "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية"¹⁸.

شكل الكاتب والروائي عبد الله خليفة عبر عقود، تراثا وتناجيا متنوعا في
تناولاته، توزع بين القصة القصيرة والرواية والبحث والتناول النقدي،
والتحليل السياسي، وإن ظل وفيما ومثابرا - ضمن خط عريض يمكن
الوقوف عليه - على رصد العذابات الإنسانية، وإضاءاته لحال التناقضات
التي كثيرا ما تكون الطبقات موضوعها، وهو الأثير عنده، حتى في
مشروعه الروائي الذي لم يكتف بالجانب التاريخي منه، من دون أن
يتجاوزه كمنص في "السير"، بل عاجه وتناوله في ما يشبه الحنين الذي
تمكن منه إلى الاشتراكية في بعد ها الإنساني والأخلاقي، تلك التي ذوت
وانحسرت، بعد حصارها من الرأسمالية المتوحشة التي كثيرا ما ندد بها
وتناولها، وخصوصا في مقالاته التي اشتغل من خلالها على تفكيك وقرأة
المجتمع البحريني خصوصا، والعربي عموما، وتركيزه على "موضوعات
الطبقات". وبالنظر إلى تناج ضخم، وعميق في جانب كبير منه، وخصوصا
في جانب الرواية، لا يمكن إلا أن ينظر إليه باعتباره عراب الرواية
البحرينية، وتطور أشكالها ومضامينها وأساليبها على امتداد أكثر من ثلاثة
عقود من الزمن.

¹⁷ - جعفر الجمري: رحيل عراب الرواية البحرينية عبد الله خليفة، صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 4428، الأربعاء، 22 أكتوبر 2014م.

¹⁸ - المصدر نفسه.

كان هاجس التاريخ مسيطرا عليه، واتضح ذلك في الكثير من أعماله الروائية، ولعل التقاط روايته "الينابيع"، بأجزائها الثلاثة تقربنا إلى محاولاته فهم الحاضر المتحول والمتوتر في البحرين، باللجوء إلى محاولة فهم سياقات التاريخ، عبر أبطاله، وخصوصا البطل الرئيس في الرواية المذكورة "عواد".

في هذه الرواية ما يشبه تتبع ما يتجاوز القرن من التحولات التي شهدتها البحرين. وبأجزائها الثلاثة التي حمل كل منها عنوانا مستقلا: "الصوت"، "الماء الأسود"، و"الفيضان"، وما يتبع ذلك من تقسيمات للفصول في كل منها، سيطرت فيها لغة الشعر على الكثير من مساحات السرد.

ولا متسع وقت يتيح لنا الإحاطة بذلك الكم من أعمال عبد الله خليفة، التي امتاز جزء كبير منها بالتنوع في المعالجات، والأساليب المتجددة، والسرد الذي يذهب في رتابته حيناً، وسلاسته حيناً آخر.

وفي استحضار ربما لبعض أعماله الأولى، وتحديدًا العام 1975م، مع مجموعته القصصية "لحن الشتاء"، وصولاً إلى أعمال مثل: "يوم قائط"، "سهرة"، "سيد الضريح"، "جنون النخيل"، "الرميل والياسمين"، "دهشة الساحر"، وفي الرواية، "نشيد البحر"، "الضباب"، "أغنية الماء والنار"، "الهيئات"، "القرصان والمدينة"، "اللآلي"، "الأقلف"، "رأس الحسين"، "ساعة ظهور الأرواح"، "محمد ثائرا"، و"ذهب مع النفط"، "عمر بن الخطاب شهيدا"، "عثمان بن عفان شهيدا"، "علي بن أبي طالب شهيدا"، وغيرها من الروايات، سنقف على منحيين:

الأول: متمثلاً في معالجاته للتاريخ عبر رجالاته، من دون أن ينأى عن اللحظة الراهنة فيما يشبه الإدانة للحاضر، ومتملساً ضوءاً فيما نفقه توجهها إلى المستقبل.

الثاني: اشتغاله على البحر، ليس باعتباره حيزا ومكانا، بل باعتبار وعاء العذاب والمكابدات والصراع الذي عاشه إنسان هذا الجزء من العالم، وخصوصا بلده البحرين، ويمكن الوقوف على أكثر من شاهد هنا، عبر قائمة من القصص القصيرة والروايات التي تناولت تلك الثيمة¹⁹.

لم تنفصل معالجته لمكابدته الإنسان مع البحر، مع المكابدات التي لها بدايات من دون أن تلوح لها نهايات على اليابسة، ضمن ممارسات استبدائية ووحشية، ترهنه إلى الذين يملكون السطوة والقوة، وهم يمتصون عناءه وثمره الذي يتم حرمانه منه، مضافا إليه تكريسه ونفيه إلى ما دون الهامش.

لم يصدر ذلك الانحياز إلى الشقاء والعذاب الإنساني من خلال أبطاله في الروايات والقصص، فقط عن اتكاء وقناعة أيديولوجية ظل وفيها لها، وعمق فهمه لها بما أصدر من أبحاث ومقالات مطولة، وحتى معالجات نقدية صدرت، بقدر ما تصدر أيضا عن المعاشية والمعاناة، وإن خفت وطأة وحشيتها ولكنها لم تنته أو تفقد حيويتها وقناعتها بانتهاء ضغط وثقل ممارستها.

سنجد ذلك أيضا في روايته "ذهب مع النفط"، بلغت السردية بالأنا التي تستثير الضمير لا "الأنا" التي حذر منها وأشبعها تعريية وهجاء حادا. صوت الداخل حين يترع بالمعاناة، يكشفه خليفة، يقوله ويتمثله: "الفرد الوحيد حين يسحق، يidas كحسرة، ويقاوم في هذا الوجود الممزق المتلاشى، يفقد رجولته وأبوته، هل يزول تماما؟ هل يبقى فيه عرق ينبض؟ بل حين يفقد كرامته، ويبيع كلمته، هل يتلاشى كلياً"²⁰.

¹⁹ - جعفر الجمري: رحيل عراب الرواية البحرينية عبد الله خليفة، صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 4428، الأربعاء، 22 أكتوبر 2014م.

²⁰ - المصدر نفسه.

أما في الاتجاه الفكري والفلسفي، فكان له حضوره المتميز، جنباً إلى جنب مع مشروعه القصصي والروائي، وكان كل تجربة تستمد رصانتها وقدرتها على تعميق وإنضاج أدواتها من ذلك التعدد والانفتاح، والانكباب على البحث، وليس ذلك وحده، بل الإضافة إلى ما يبحث فيه ويتحراه، في انتظام عجيب، وطاقه لم تعرف الكلل، مع نفس عميق، ودربة تأتت له عبر الوفاء لانفتاحه على الفكر الإنساني بكل تبايناته واختلافه والصراعات التي نشأت فيه أو على هامشه. ولعل الشاهد هنا في عمله الضخم بأجزائه الثلاثة "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية"، إذ صدر الجزء الأول والثاني في 600 صفحة، وفيه يتناول المقدمات الفكرية والاجتماعية لظهور الإسلام والفلسفة العربية، فيما يتناول الجزء الثالث تشكل الفلسفة العربية عند الكبار ممن مثلوها في تلك الفترة الزمنية، من الفارابي حتى ابن رشد.

وفيما يتعلق باشتغالاته النقدية فلم تخل من الجدة والتتبع والتفكيك، وترسيخ نظر نقدي، في فترات عانت الساحة هنا، والمنطقة عموماً من انحسار، باستثناء الجدة من جانب الأكاديميين هنا، وعلى رأسهم البروفيسور إبراهيم غلوم، والراحل محمد البنكي، والأكاديمي نادر كاظم وآخرون، وربما لسنا بمنأى عن عدد من تلك الدراسات النقدية والفكرية، ومنها: "الراوي في عالم محمد عبد الملك القصصي"، الصادر في العام 2005م، و"نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية"، الصادر في العام 2007م، و"نماذج روائية من الخليج والجزيرة العربية"، الصادرة في العام 2008م²¹. وعلى تماس مع الموضوعات تلك، وعودة إلى المشروع الروائي، لم تكن رواية "الأقلف"، بمنأى عن طبيعة المعالجات التي عرف

²¹ - جعفر الجمري: رحيل عراب الرواية البحرينية عبد الله خليفة، صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 4428، الأربعاء، 22 أكتوبر، 2014م.

بها واشتغل عليها، في تناولها موضوع التطرف الديني، ومحاولة البحث عن الخلاص، في بيئة/مجتمع، عالم كثيرا ما ينساق ويركن إلى حياة القطيع!

فلا يشك أحد أن القاص والروائي والباحث عبد الله خليفة، ظل وفيما لطاقته وقدراته وتنوعها، مثلما ظل وفيما لعذابات الإنسان الذي انحاز إليه وإلى عذباته وإن ظلت الإضاعات والقرءات والتناولات النقدية لأعماله شحيحة ويسيرة، وتكاد لا تذكر.

عبد الله خليفة - الأب الروحي للرواية البحرينية:

الروائي أحمد المؤذن يقول بعد قراءة العديد من إصدارات عبد الله خليفة من مثل: ساعة ظهور الأرواح، القرصان والمدينة، جنون النخيل وغيرها: "لقد كتب عبد الله خليفة في العديد من المجالات وقدم الكثير في المجال الصحافي، استمتعت بتذوق أدبه وأعتبر نفسي تلميذا عنده، حينما كان يوجهني في الكتابة القصصية ويهديني كتبه. سنفقده كثيرا، ولكن أدبه سيبقى كميراث قيم علينا أن نحافظ عليه لكونه جزءا من ذاكرة الوطن الثقافية"²².

لا يشك أحد أن رحيل الروائي عبد الله خليفة خسارة لا تعوض للجسم الأدبي البحريني، وهو ذاكرة تسجيلية وطنية حمل هم الأرض والوطن والبسطاء من الناس وبقي وفيما لمنهجه سواء على صعيد البحث أم على صعيد الرواية حيث انتهج الأسلوب الواقعي في الرواية ولم يجنح للفانتازيا أو الإغراق في الخيال كما لم يجنح للغرابة والغموض، ولذلك قلت إنه بحق راو بذاكرة تسجيلية تقترب من حياة البسطاء من الناس، كما تقترب من

²² - جعفر الديري: نقاد وروائيون: عبد الله خليفة الأب الروحي للرواية البحرينية، صحيفة "الوطن"، العدد: 3238، الأربعاء، 22 أكتوبر 2014م.

التحولات الاجتماعية والسياسية التي مر بها الخليج العربي والبحرين إبان الطفرة النفطية.

الناقد زكريا رضي يقول: "شخصيا شدتني تجربة الروائي عبد الله خليفة في الرواية التاريخية والتي أصدر منها رأس الحسين ومحمد ثائرا وعمر بن الخطاب شهيدا، وكذلك عثمان بن عفان شهيدا، وعلي بن أبي طالب شهيدا. إن هذا المشروع لوحده في كتابة الرواية التاريخية يعد نقلة نوعية في تجربة عبد الله خليفة حاول من خلالها استلها التراث واستنطاقه من خلال الرواية ومع ما رافق هذه الأعمال الروائية من مشكلات إلا أن كلامنا في الكتابة الإبداعية ذاتها بمعزل عن مرجعيتها الأيديولوجية وأتمنى أن تتاح الفرصة للباحثين المتخصصين لقراءة هذه الأعمال ونقدها"²³.

وإذا كانت بعض الدول تتغنى بأهراماتها الأدبية التي تعتبرها مرجعا أدبيا شامخا، فإننا لاشك نفخر ونعتز بالأب الرحي للرواية البحرينية عبد الله خليفة، فبالإضافة إلى عطاءاته الأدبية المتنوعة فإنه أبدع في شتى مجالاتها، تميز الكاتب في الأدب الروائي فكانت اللآلي، القرصان والمدينة، الهيرات، أغنية الماء والنار وغيرها، كانت اللبنة الأساسية في الرواية البحرينية، وجاءت القصة في سياق متواز لتعبر عن الحس الأدبي الذي يحمله الكاتب، أبدع قلمه حين كتب لحن الشتاء، الرمل والياسمين، يوم قانظ وغيرها، لذلك كله، فإن ما خلفه عبد الله خليفة من أدب سيبقيه طويلا في الذاكرة ولن تستطيع رياح الزمن أن تمحو ذكره. وفيما يخص أعمال عبد الله خليفة فإنها تميزت عن سواها بالجهود الفكرية والبحوث التاريخية والفلسفية، التي قام بتحليلها وإسقاطها على الواقع المعيش، لذلك كله تجد أن أعماله تركز في المعدمين والمهمشين وهي البيئة التي تربي الروائي فيها،

²³ المصدر نفسه.

ولا ننسى تأثره بالبحر وصراعاته الاجتماعية في البحرين خصوصاً قبل ثورة النفط، وتعتبر رواية "الينابيع" التي صدرت في العام 1996م، واحدة من أروع ما كتب الروائي.

دخل عبد الله خليفة عالم الكتابة منذ نهاية الستينيات في عدة أنواع أدبية وفكرية، خاصة في إنتاج القصة القصيرة والرواية والدراسة الفكرية. فمنذ سنة 1966م، مارس كتابة القصة القصيرة بشكل مكثف وواسع مع بقية الأعمال الأدبية والفكرية التي كان يمازجها مع هذا النتاج، حيث ترابطت لديه الكتابة بشتى أنواعها: مقالة، ودراسة، ونقد، وقصة، ورواية.

لكن في السنوات الأولى حظيت القصة القصيرة بشكل خاص بهذا النتاج، وقد نشر عشرات القصص القصيرة في سنوات (1966م - 1975م) في المجالات والصحف البحرينية خاصة، ومنذ عقد الثمانينيات من القرن الماضي قام بطبع نتاجه القصصي والروائي والفكري في دور النشر العربية المختلفة.

نتاجه الأدبي والفكري والنقدي يتنوع على النحو التالي:

أولاً: القصة القصيرة:

1— صدرت له أول مجموعة قصصية باسم "لحن الشتاء" سنة 1975، عن دار الغد، المنامة، البحرين.

(القصص: الغرباء - الملك - هكذا تكلم عبد المولى - الكلاب - اغتيال - حامل البرق - الملاذ - السند باد - لحن الشتاء - الوحل - نجمة الخليج - الطائر - القبر الكبير - الصدى - العين).

2— الرمل والياسمين (قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982م.
(القصص: الفتاة والأمير - علي بابا والصوص - شجرة الياسمين -

العوسج - الوجه - الأرض والسماء - المصباح - نزهة - الصورة -
اللقاء - لعبة الرمل - الأحجار - العرائس - الماء والدخان).

3- يوم قانظ (قصص)، دار الفارابي، بيروت، 1984م.

(القصص: الدرب - أماه... أين أنت - الخروج - الجد - الجزيرة).

4- سهرة (قصص)، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994م.

(القصص: السفر - سهرة - قبضة تراب - الطوفان - الأضواء - ليلة
رأس السنة - خميس - هذا الجسد لك - هذا الجسد لي - أنا وأمي -
الرمل والحجر)²⁴.

5- دهشة الساحر (قصص)، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، حلب،
1997م.

(القصص: طريق النبع - الأصنام - الليل والنهار - الأميرة والصلعوك -
الترانيم - دهشة الساحر - الصحراء - الجبل البعيد - الأحفاد - نجمة
الصباح).

6- جنون النخيل (قصص)، دار شقيقات، القاهرة، 1998م.

(القصص: بعد الانفجار - الموت لأكثر من مرة واحدة! - شهوة الدم -
ياقوت - جنون النخيل - النوارس تغادر المدينة - رجب وأمينة - عند
التلال - الأم والموت - النفق - ميلاد).

7- سيد الضريح (قصص)، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، مصر
2003م. (القصص: طائران فوق عرش النار - وراء الجبال - ثنائية القتل
المتخفي - البركان - سيد الضريح - وتر في الليل المقطوع - أطياف -
رؤيا - محاكمة علي بابا - الحارس).

²⁴ - عبد الله خليفة.. السيرة الذاتية: - عبد الله خليفة كاتب وروائي من البحرين- (<https://isaalbuflasablog.wordpress.com>)

8— الكسيح ينهض (قصص)، دار نينوى للدراسات والنشر، 2017م.
(القصص: الشاهد... على اليمين - الكسيح ينهض - جزيرة الموتى - مكى
الجنى - عرض في الظلام - حفار القبور - شراء روح - كابوس - ليلة
صوفية - الخنفساء - بائع الموسيقى - الجنة - الطائر الأصفر - موت
سعاد - زينب والعصافير - شريفة والأشباح - موزة والزيت - حمامات
فوق سطح قلبي - سقوط اللون - الطريق إلى الحج - حادثة تحت المطر
- قمر ولصوص وشحاذون - مقامة التلفزيون - موت في سوق مزدحم -
نهايات أغسطس - المغني والأميرة).

9- انطولوجيا الحمير (قصص)، دار نينوى للدراسات والنشر، 2017م.
(القصص: انطولوجيا الحمير - عمران - على أجنحة الرماد - خيمة في
الجوار - ناشر ومنشور - شهوة الأرض - إغلاق المتحف لدواعي
الإصلاح - طائر في الدخان - الحي والميت - الأعزل في الشرك -
الرادود - تحقيق - المطر يموت متسولا - بدون ساقين - عودة الشيخ
لرباه - بيت الرماد - صلاة الجائع - في غابات الريف - القائد مجنون -
الحية - العلم - دموع البقرة - في الثلجة - مقامات الشيخ معيوف)²⁵.

10— إنهم يهزون الأرض ! (قصص)، دار نينوى للدراسات والنشر،
2017م.

(القصص: رسالة من بين الأظافر - الأسود - عالية - جلسة سادسة للألم
- غياب - عودة للمهاجر - دائرة للسعف - الضمير - المحارب الذي لم
يحارب - الموت خبأ - إنهم يهزون الأرض ! - حلم في الغسق - رحلة
الرماد - أعلام على الماء - قبقب الخليج الأخير - المنتمي إلى جبريل -

²⁵ - عبد الله خليفة.. السيرة الذاتية:- عبد الله خليفة كاتب وروائي من البحرين- (<https://isaalbuflasablog.wordpress.com>)

البق - رغيف العسل والجمر - عوليس أو إدريس - المفازة - قضايا هاشم المختار - أنشودة الصقر - غليان المياه).

11- ضوء المعتزلة (قصص)، دار نينوى للدراسات والنشر، 2017م.
(القصص: جزر الأقمار السوداء - ضوء المعتزلة - سيرة شهاب - معصومة وجلنار - سارق الأطفال - شظايا - الترايبون)²⁶.

ثانياً: الأعمال الروائية:

- 12- اللآلي، دار الفارابي، بيروت، 1981م.
- 13- القرصان والمدينة، دار الفارابي، بيروت، 1982م.
- 14- الهيرات، دار الفارابي، بيروت، 1983م.
- 15- أغنية الماء والنار، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1988م.
- 16- مريم لا تعرف الحداد (امرأة)، 1991م.
- 17- الضباب، دار الحوار، حلب، 1994م.
- 18- نشيد البحر، المركز الثقافي العربي، 1994م، طبعة ثانية في الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية، عدد 71، أكتوبر، 2003م.
- 19- الينابيع (جزء أول)، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 1998م.
- 20- الينابيع (جزء ثان)، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة، 2000م.
- 21- الأقف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002م.
- 22- ساعة ظهور الأرواح (وفي بعض الأماكن "ساعة ظهور الأشباح")، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004م.

²⁶ - عبد الله خليفة.. السيرة الذاتية: عبد الله خليفة كاتب وروائي من البحرين- (<https://isaalbuflasablog.wordpress.com>) - وعبد الله خليفة: السيرة الحياتية - جائزة كتارا للرواية العربية (<http://www.kataranovels.com>)

- 23— الأعمال الروائية الكاملة (في طبعة جديدة): اللآلي، القرصان
والمدينة، الهيرات، أغنية الماء والنار، طبعة تجديدية للروايات الأولى،
المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة 2004.
- 24- رأس الحسين، 2006م – رأس الحسين، طبعة ثانية، 2012م.
- 25- عمر بن الخطاب شهيدا، 2007م.
- 26- التماثيل، 2007م.
- 27- عثمان بن عفان شهيدا، 2008م.
- 28- علي بن أبي طالب شهيدا، 2008م.
- 29- محمد ثائرا، 2010م.
- 30- ذهب مع النفط، 2010م.
- 31- عنبرة يعود إلى الجزيرة، 2011م.
- 32- الينابيع، الطبعة الكاملة، 2012م.
- 33- عقاب قاتل، 2014م.
- 34- اغتصاب كوكب، 2014م.
- 35- خليج الأرواح الضائعة، 2015م.
- 36- رسائل جمال عبد الناصر السرية، 2015م.
- 37- ثمن الروح، 2016م.
- 38- الماس والابنوس، 2016م.
- 39- ابن السيد، 2016م.
- 40- الأرض تحت الأنقاض، 2017م.
- 41- حورية البحر، 2017م.
- 42- طريق اللؤلؤ، 2017م.
- 43- بوترية قصاب، 2017م.

44- مصرع أبي مسلم الخراساني، 2018م.

45- شاعر الضياء، 2018م.

46- هدهد سليمان، 2018م²⁷.

ثالثاً: الدراسات النقدية والفكرية:

47- الراوي في عالم محمد عبد الملك القصصي (دراسة نقدية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004م.

48- الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية، صدر الجزء الأول والثاني معا بمجلد واحد، في ست مائة صفحة، وهو يعتبر العمل الفكري الكبير للكاتب، ويعرض فيه المقدمات الفكرية والاجتماعية لظهور الإسلام والفلسفة العربية، وهو صادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005م.

49- الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية (الجزء الثالث)، وهو يتناول تشكل الفلسفة العربية عند أبرز ممثليها من الفارابي حتى ابن رشد، صدر سنة 2005م.

50- الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية (الجزء الرابع)، تطور الفكر العربي الحديث، وهو يتناول تكون الفلسفة العربية الحديثة في مصر خاصة والبلدان العربية عامة، منذ الإمام محمد عبده وبقية النهضويين والمجددين ووقوفا عند نجيب محمود ويوسف كرم وغيرهما من منتجي الخطابات الفلسفية العربية المعاصرة، 2015م.

51- نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية، 2007م.

52- نماذج روائية من الخليج والجزيرة العربية، 2008م.

53- صراع الطوائف والطبقات في المشرق العربي وإيران، 2016.

²⁷ عبد الله خليفة. السيرة الذاتية: عبد الله خليفة كاتب وروائي من البحرين (<https://isaalbuflasablog.wordpress.com>)، وأيضا عبد الله خليفة: السيرة الحياتية - جائزة كتارا للرواية العربية (<http://www.kataranovels.com>)

54- الملعون سيرة وحوارات وما كتب عنه، 2016م.

55- تطور الأنواع الأدبية العربية، 2016م.

56- رأس المال الحكومي الشرقي (الينين ومغادرة الاشتراكية)، 2016م.

57- عبد الله خليفة: عرض ونقد عن أعماله، 2018م²⁸.

رابعاً: مقالات الكاتب عبد الله خليفة:

مقالات الكاتب والروائي عبد الله خليفة كثيرة ومتنوعة حول مواضيع مختلفة، نشرت في مختلف الجرائد والدوريات والصحف العربية، ولا سيما في جريدة "أخبار الخليج" البحرينية التي كان عبد الله خليفة من أبرز أعضائها وأهم كتابها الناشطين، وكذلك على موقع الحوار المتمدن، منذ أن بدأ الكتابة حتى قبل رحيله بأيام، ويبلغ عدد مقالاته المنشورة إلى 1,218.

فأرى من المناسب أن نذكر هنا بعض موضوعات أهم مقالاته التي نشرت في "أخبار الخليج"، وموقع الحوار المتمدن مع تاريخ نشرها وهي كما يلي:

* القرامطة: التاريخ والنظرية، تاريخ النشر 05 - 02 - 2005م.

* محاولة روائية سعودية، تاريخ النشر 13 - 08 - 2010م.

* غازي القصيبي والرواية الساخرة، تاريخ النشر 26 - 10 - 2010م.

* حكومات أم طوائف؟ تاريخ النشر 29 - 10 - 2010م.

* العنف والطوائف، تاريخ النشر 01 - 11 - 2010م.

* الخاسر الأكبر، تاريخ النشر 05 - 11 - 2010م.

* رؤيتان للدين، تاريخ النشر 07 - 11 - 2010م.

* من شقة الحرية إلى أبو شلاخ البرمائي (2 - 1)، تاريخ النشر 09 - 11 -

2010م.

²⁸ - المصدر السابق.

- * من شقة الحرية إلى أبو صلاح البرمائي (2 - 2)، تاريخ النشر 09 - 11 - 2010م.
- * غازي القصيبي وعالم الجن (2 - 1)، تاريخ النشر 15 - 11 - 2010م.
- * غازي القصيبي وعالم الجن (2 - 2)، تاريخ النشر 17 - 11 - 2010م.
- * توحيد شكلاني وتفتيت متعاضم، تاريخ النشر 18 - 11 - 2010م.
- * (تطوير الديمقراطية الطائفية)، تاريخ النشر 19 - 11 - 2010م.
- * مستقلون عن ماذا؟ تاريخ النشر 21 - 11 - 2010م.
- * ألمانيا والعرب المعاصرون (2 - 1)، تاريخ النشر 23 - 11 - 2010م.
- * ألمانيا والعرب المعاصرون (2 - 2)، تاريخ النشر 24 - 11 - 2010م.
- * فورباخ وتوابعه (علمية)، 2 - 1، تاريخ النشر 25 - 11 - 2010م.
- * فورباخ وتوابعه (علمية)، 2 - 2، تاريخ النشر 26 - 11 - 2010م.
- * الأمم الحديثة في تحولاتها (2 - 1)، تاريخ النشر 27 - 11 - 2010م.
- * الأمم الحديثة في تحولاتها (2 - 2)، تاريخ النشر 28 - 11 - 2010م.
- * الدعم وأبعاده السياسية، تاريخ النشر 30 - 11 - 2010م.
- * مسارات التطور السياسية - الاقتصادية، تاريخ النشر 03 - 12 - 2010م.
- * تقليدية خطيرة وتحديث ناقص، تاريخ النشر 04 - 12 - 2010م.
- * بطل ويكيليكس، تاريخ النشر 05 - 12 - 2010م.
- * مقارنة الغرب للشرق، تاريخ النشر 06 - 12 - 2010م.
- * تكون الفئات والثقافات، تاريخ النشر 07 - 12 - 2010م.
- * قيادة الرأسمالية الحكومية، تاريخ النشر 08 - 12 - 2010م²⁹.
- * الرموز الدينية والسياسية والتحويلات، تاريخ النشر 10 - 12 - 2010م.

²⁹ - عبد الله خليفة: أفق - مقالات 2010 | عبد الله خليفة: كاتب وروائي (><http://isaalbuflasablog.wordpress.com>), و
(<http://www.ahewar.org/m.a>).

- * أين تذهب النقود؟ تاريخ النشر 11 - 12 - 2010م.
- * تجاوز المعسكرين، تاريخ النشر 12 - 12 - 2010م.
- * ويكيليكس: حرية الإعلام، تاريخ النشر 13 - 12 - 2010م.
- * قفزة فوق رأس المال الصناعي، تاريخ النشر 14 - 12 - 2010م.
- * هذا أبو الأتراك فأين أبو العرب؟ تاريخ النشر 17 - 12 - 2010م.
- * مؤتمر الرواية وأسئلة الصراع المغيبة، تاريخ النشر 18 - 12 - 2010م.
- * نضال مشترك، تاريخ النشر 20 - 12 - 2010م.
- * العولمة والثقافة، تاريخ النشر 20 - 12 - 2010م.
- * تجاوز الإقطاعين معاً، تاريخ النشر 21 - 12 - 2010م.
- * البذخ الشرقي، تاريخ النشر 22 - 12 - 2010م.
- * العلمانية سياسية داخلية وخارجية، تاريخ النشر 23 - 12 - 2010م.
- * المسيحيون والمسلمون العرب...تطابق في كل شيء، تاريخ النشر 25 - 12 - 2010م.
- * المال والثقافة، تاريخ النشر 26 - 12 - 2010م.
- * ارتباك المثقفين وسط التحولات، تاريخ النشر 28 - 12 - 2010م.
- * حين يأكل النقد الجيوب، تاريخ النشر 29 - 12 - 2010م.
- * التضخم والأجور والسياسة، تاريخ النشر 30 - 12 - 2010م³⁰.
- * حيرة عمالية، تاريخ النشر 01 - 01 - 2011م.
- * تقرير عن الجوع الثقافي العربي، تاريخ النشر 02 - 01 - 2011م.
- * الخروج الأيديولوجي من الطوائف، تاريخ النشر 03 - 01 - 2011م.
- * أغلبية لا تحب الوطن، تاريخ النشر 06 - 01 - 2011م.
- * تناقضات ما قبل الرأسمالية، تاريخ النشر 07 - 01 - 2011م.

³⁰ - عبد الله خليفة: أفق - مقالات 2010 | عبد الله خليفة: كاتب وروائي (><http://isaalbuflasablog.wordpress.com>), و
(<http://www.ahewar.org/m.a>).

- * مذاهب تتباين وتتكامل، تاريخ النشر 09 - 01 - 2011م.
- * رموز الأرض، تاريخ النشر 10 - 01 - 2011م.
- * رأسمالية متخلفة، تاريخ النشر 11 - 01 - 2011م.
- * هل هو تدوير للعالم العربي؟ تاريخ النشر 15 - 01 - 2011م.
- * تونس الجميلة، تاريخ النشر 16 - 01 - 2011م.
- * تونس بعد العاصفة، تاريخ النشر 18 - 01 - 2011م.
- * اليوتوبيا، تاريخ النشر 20 - 01 - 2011م.
- * العمال وتطوير الرأسمالية، تاريخ النشر 22 - 01 - 2011م.
- * الوعي والتطور في الجزيرة العربية (3 - 1)، تاريخ النشر 23 - 01 - 2011م.
- * الوعي والتطور في الجزيرة العربية (3 - 2)، تاريخ النشر 24 - 01 - 2011م.
- * الوعي والتطور في الجزيرة العربية (3 - 3)، تاريخ النشر 25 - 01 - 2011م.
- * العرب ولحظة جديدة في التاريخ، تاريخ النشر 26 - 01 - 2011م.
- * صراع على السلطة في تونس (2 - 1)، تاريخ النشر 27 - 01 - 2011م.
- * صراع على السلطة في تونس (2 - 2) تاريخ النشر 28 - 01 - 2011م.
- * الحمى التونسية، تاريخ النشر 29 - 01 - 2011م.
- * إشكالية حزب الأغلبية، تاريخ النشر 30 - 01 - 2011م.
- * مصر والسلطة الجديدة المطلوبة، تاريخ النشر 31 - 01 - 2011م.
- * مصر: الثورة والتغيير (في عشرة أقساط - 10-)، تاريخ النشر 01 - 02 - 2011م.

- * جذور الصراع الطائفي اللبناني (3 - 1)، تاريخ النشر 14 - 02 - 2011م.
- * جذور الصراع الطائفي اللبناني (3 - 2)، تاريخ النشر 15 - 02 - 2011م.
- * جذور الصراع الطائفي اللبناني (3 - 3)، تاريخ النشر 17 - 02 - 2011م.
- * تغيرات هيكلية، تاريخ النشر 19 - 02 - 2011م³¹.
- * تكامل التحولات في الأمة العربية والأمم الإسلامية، تاريخ النشر 20 - 02 - 2011م.
- * هل تعود مصر للقيادة التحديثية القومية؟ تاريخ النشر 21 - 02 - 2011م.
- * المخاض والتحولات، تاريخ النشر 22 - 02 - 2011م.
- * إعادة بناء الجمهوريات، تاريخ النشر 24 - 02 - 2011م.
- * الانتفاضة المروعة في ليبيا، تاريخ النشر 24 - 02 - 2011م.
- * العرب والتحولات الحديثة، تاريخ النشر 26 - 02 - 2011م.
- * ديمقراطية غير علمانية.. أهي ممكنة؟ تاريخ النشر 27 - 02 - 2011م.
- * المذاهب الإسلامية والتغيير (2 - 1)، تاريخ النشر 28 - 02 - 2011م.
- * المذاهب الإسلامية والتغيير (2 - 2)، تاريخ النشر 01 - 03 - 2011م.
- * تضاريس الثورة الليبية، تاريخ النشر 04 - 03 - 2011م.
- * صناعة الثورات، تاريخ النشر 05 - 03 - 2011م.
- * تفتيت المكونات (في ستة أقساط)، تاريخ النشر 06 - 03 - 2011م —
- 12 - 03 - 2011م.

³¹ - عبد الله خليفة: أفق - مقالات 2011 | عبد الله خليفة: كاتب وروائي (...><http://isaalbuflasablog.Wordpress.com>), و
(<http://www.ahewar.org/m.asp?>)

- * بين ليبيا والجزيرة العربية، تاريخ النشر 13 - 03 - 2011م.
- * إصلاحات ضرورية، تاريخ النشر 14 - 03 - 2011م.
- * أسباب الحراك العربي، تاريخ النشر 15 - 03 - 2011م.
- * محمود أمين العالم والتغيير (2 - 1)، تاريخ النشر 26 - 04 - 2011م.
- * محمود أمين العالم والتغيير (2 - 2)، تاريخ النشر 30 - 04 - 2011م.
- * الصراعات الفكرية بدلا من التغيير، تاريخ النشر 20 - 11 - 2011م.
- * لماذا لا تتشكل عقلانية سياسية؟ تاريخ النشر 22 - 11 - 2011م³².
- * الطابع الديمقراطي للحراك العربي، تاريخ النشر 04 - 01 - 2012م.
- * كلمات عن المناضل الراحل محمد السيد، تاريخ النشر 20 - 12 - 2013م.
- * الوطنية البحرينية والعلمانية، تاريخ النشر 29 - 01 - 2014م.
- * الدينيون والحادثة (3)، تاريخ النشر 09 - 04 - 2014م.
- * مسائل اقتصادية واجتماعية، تاريخ النشر 05 - 05 - 2014م.
- * أهمية وجود تحالف شعبي مستنير، تاريخ النشر 24 - 05 - 2014م.
- * فئات وسطى متصارعة عبر التاريخ، تاريخ النشر 4 - 1 - 2014م.
- * غياب التحالف بين المدينة والقرية، تاريخ النشر 6 - 1 - 2014م.
- * المنامة تركض وراء بيروت، تاريخ النشر 13 - 1 - 2014م.
- * لا وحدة وطنية بدون موسيقي!، تاريخ النشر 16 - 1 - 2014م.
- * الفاشية بين الغرب والشرق، تاريخ النشر 21 - 1 - 2014م.
- * الفاشية في التطور العالمي، تاريخ النشر 22 - 1 - 2014م.
- * الوطنية البحرينية والعلمانية، تاريخ النشر 26 - 1 - 2014م.
- * الثقافة والسلطة في إيران، تاريخ النشر 28 - 1 - 2014م.
- * الانتهازيون خطر على الدول، تاريخ النشر 4 - 2 - 2014م.

³² - عبد الله خليفة: أفق - مقالات 2011 | عبد الله خليفة كاتب وروائي (2011...><http://abdullakhalifa.blogspot.com>).

- * جاء وقت البرجوازية الوطنية، تاريخ النشر 5 - 2 - 2014م.
- * أزمة الأرياف العربية بين عصرين، تاريخ النشر 9 - 2 - 2014م.
- * مخاطر الجملة الثورية الزائفة، تاريخ النشر 10 - 2 - 2014م.
- * تحولات رأسماليات الدول الشرقية، تاريخ النشر 12 - 2 - 2014م.
- 2 - * عناصر التحديث الفكرية لدى النهضويين (2+1)، تاريخ النشر 13 - 2014م.
- * الهند والخليج...علاقة مستمرة، تاريخ النشر 25 - 2 - 2014م.
- * الانقسام الطائفي المشرقي، تاريخ النشر 26 - 2 - 2014م.
- 2 - * الفكر المصري ودوره التاريخي (12+1)، تاريخ النشر 16 - 2014م.
- * الحدث الأوكراني ودلالاته الديمقراطية، تاريخ النشر 4 - 3 - 2014م.
- * أهمية القراءة الموضوعية للتاريخ، تاريخ النشر 7 - 2 - 2014م³³.
- * فهم غربي للحركات الدينية، تاريخ النشر 8 - 3 - 2014م.
- * قوى سياسية غير متعادلة، تاريخ النشر 13 - 3 - 2014م.
- * أهمية العودة إلى الحداثة، تاريخ النشر 16 - 3 - 2014م.
- * الراوي وعلم الاجتماع الوطني (2+1)، تاريخ النشر 17 - 3 - 2014م.
- * الرئيس أوباما بين المكر والدهاء، تاريخ النشر 21 - 3 - 2014م.
- * إعادة إنتاج العنف الموسع، تاريخ النشر 22 - 3 - 2014م.
- 3 - * تحولات الرواية عند فوزية رشيد (2+1)، تاريخ النشر 30 - 2014م.
- * صراعات الوعي العربي تاريخياً (7+1)، تاريخ النشر 24—3 - 2014م.

³³ - عبد الله خليفة: أفق - مقالات 2014 | عبد الله خليفة كاتب وروائي (>http://isaalbuflasablog.wordpress.com).

* وتزداد الشروخ في الوطن، تاريخ النشر 2 - 4 - 2014م.
* شطب الدعوى هل هو بداية مصالحة عميقة؟ تاريخ النشر 3 - 4 - 2014م.

* الشعب هو الذي يصنع التاريخ، تاريخ النشر 4 - 4 - 2014م.
* رياض الأطفال والتعليم، تاريخ النشر 13 - 4 - 2014م.
* رأسمالية دولة وعجز عن التطور، تاريخ النشر 14 - 4 - 2014م.
* الوعي التحديتي وتجاوز التقليدية، تاريخ النشر 15 - 4 - 2014م.
* الأدب العجائبي في الخليج، تاريخ النشر 23 - 4 - 2014م.
* لا يمكن العثور على الصندوق الأسود!، تاريخ النشر 25 - 4 - 2014م.
* بدايات الديمقراطية وتصحيحها، تاريخ النشر 28 - 4 - 2014م.
* الحزب الديني يرفض فهم العصر، تاريخ النشر 7 - 5 - 2014م.
* مشكلات عمال القطاع الخاص، تاريخ النشر 9 - 5 - 2014م.
* العقلانية والتراكم الديمقراطي، تاريخ النشر 13 - 5 - 2014م.
* فروق عجيبة بين رجال دين، تاريخ النشر 25 - 5 - 2014م.
* نريد كلمة واحدة فقط ضد الدكتاتورية، تاريخ النشر 7 - 6 - 2014م³⁴.

الجوائز الأدبية:

الجوائز التي نالها الكاتب والروائي عبد الله خليفة في مختلف مراحل حياته،
عن أعماله وكتاباته الأدبية والروائية عديدة ومتنوعة، وها إليكم تفصيلها:
* جائزة أسرة الأدباء والكتاب للقصة القصيرة.
* الجائزة الأولى من وزارة الإعلام البحرينية عن رواية "الأقلف" عام 2002م.

³⁴ - عبد الله خليفة: أفق - مقالات 2014 | عبد الله خليفة كاتب وروائي (...><http://isaalbuflasablog.wordpress.com>)، و(<http://www.ahewar.org/m.asp?>)

* الجائزة الأولى من وزارة الإعلام البحرينية عن المجموعة القصصية "سيد الضريح" عام 2004م.

* الجائزة الأولى من وزارة الإعلام البحرينية عن كتاب "الراوي في عالم محمد عبد الملك القصصي" ³⁵.

عبد الله خليفة في ذمة الله: لم يمهل الأجل الكاتب والروائي البحريني عبد الله خليفة من أن يشهد "لحن الشتاء" للعام 2014م، والذي هو عنوان أول كتبه، فرحل عن هذه الدنيا صباح يوم الثلاثاء (21 أكتوبر، 2014م)، بعد أزمة صحية ألمت به وسط ذهول وصدمة من قبل الشارع الأدبي والثقافي البحريني، رحل العملاق الروائي والكاتب الشهير قبل أن تحتفي به "أسرته" أسرة الأدباء والكتاب حيث كان من المقرر أن يتم الاحتفاء به في ديسمبر المقبل بالإضافة لطرح روايته الأخيرة "خليج الأرواح الضائعة"، ولكن لم يمهل الأجل حتى تلك اللحظة. عبد الله خليفة ترك برحيله فراغا واسعا في قلب الصحافة البحرينية وفي الروح التجديدية للرواية البحرينية ³⁶.

"غيب الموت الأديب البحريني والروائي الكبير عبد الله خليفة، بعد صراع طويل مع مرض "السرطان" الذي أقعده في أيامه الأخيرة عن العمل. وشيع بعد العصر إلى مثواه الأخير، في مقبرة المنامة. وفقدت الساحة الإبداعية الخليجية والعربية برحيله، إحدى القامات المهمة في مجال القصة والرواية والثقافة العربية ³⁷.

نعت الصحافة البحرينية الروائي الأديب والمفكر البحريني عبد الله خليفة، الذي وافته المنية صباح اليوم الثلاثاء (21 أكتوبر/ تشرين الأول 2014م)

³⁵ - عبد الله خليفة - (السيرة الحياتية) - | جائزة كتارا للرواية العربية (http://www.kataranovels.com)
³⁶ - سكيمة الطواش: البحرين تودع عبد الله خليفة قبل "لحن الشتاء"، صحيفة "الأيام" البحرينية، العدد: 9326، الأربعاء 21 أكتوبر، 2014م.
³⁷ - غازي الغريبي: الروائي البحريني عبد الله خليفة يترجل بعد مسيرة حافلة بالعبء، صحيفة "البيان"، اليومية الصادرة عن مؤسسة دبي للإعلام، 22 أكتوبر 2014م.

بعد مسيرة عطاء أدبية وفكرية حافلة، أثرى فيها الأدب البحريني والخليجي والعربي.

كان تنقل الروائي عبد الله خليفة هنا وهناك، متمترسا بشجاعة في مجابهة مرض مهلك وهو "السرطان" زهاء عامين تقريبا، أدرك بأنه لن يربح معركته مع المرض، لكنه أدرك أيضا بأن الكتابة وحدها بإمكانها أن تحرره من الوجع والألم، لهذا كانت صاحبه الأخير وصديقه الحبيب.

فبحق، اعتبرت الساحة الأدبية البحرينية والخليجية رحيل الكاتب عبد الله خليفة خسارة عظيمة للحركة الثقافية والأدبية في البحرين والخليج، حيث أمدها بأكثر من خمسين (50) مؤلفا، ما بين القصة والرواية والفكر النقدي، إضافة إلى إسهاماته المنتظمة في الكتابة إلى الصحافة الورقية والإلكترونية، كموقع "الحوار المتمدن"، وكذلك صحيفة "أخبار الخليج" التي أشرف على صفحاتها الثقافية حتى آخر حياته، كما واطب على كتابة عمود يومي فيها.

ودعت الأسرة الثقافية والفكرية في مملكة البحرين عصر يوم الثلاثاء (21 أكتوبر/ تشرين الأول 2014م)، بمقبرة المنامة، الكاتب والروائي والباحث والصحفي الكبير عبد الله خليفة إلى مثواه الأخير، ليسدل الستار على حياة "أديب البحر" والباحث التاريخي والمناضل في صفوف الحركة التقدمية الذي يوصف بأنه أحد ألمع الكتاب البحرينيين والعرب الذي أخلص لتجربته الروائية والفكرية، وبحثه التاريخي ودراساته ونضاله³⁸.

نعي ورثاء على وسائل التواصل: عبرت وسائل التواصل الاجتماعي على وفاة الروائي عبد الله خليفة عن بالغ الحزن والأسى بعبارات النعي والرتاء وأولها حساب التغريد (تويتز)، فغرد الكاتب الكويتي أحمد الدين

³⁸ - الأسرة الثقافية في البحرين تودع "أديب البحر" الروائي والباحث عبد الله خليفة، صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 4428 - 22 أكتوبر، 2014م.

ناقلا عبارته من حساب الصور (الإنستغرام): "رحل الرفيق الكاتب والروائي التقدمي البحريني عبد الله خليفة عن دنيانا، هو أحد قادة جبهة التحرير الوطني في منتصف الستينيات والسبعينيات"، كما نشر رئيس تحرير صحيفة "الوسط" منصور الجمري خبر الوفاة منقولا عبر رابط لخبر نشرته صحيفة "الوسط" (أون لاين)، فيما وصف الكاتب حسن مدن في تغريدته الراحل بأنه الروائي والباحث في قضايا الفكر والمناضل في صفوف الحركة التقدمية البحرينية، لروحه السلام، وتوالت التغريدات الراهية من كتاب وإعلاميين ومثقفين، في الوقت الذي نعى فيه المنبر التقدمي الراحل مذيلا تغريده حساب الجمعية بوقت التشييع في مقبرة المناممة والتعازي في مسجد البوعيين بالقضيبية، وكتب عضو المكتب السياسي ورئيس اللجنة الإعلامية في المنبر الديمقراطي التقدمي فاضل الحلبي: "خبر حزين، رحيل الأديب الكبير عبد الله خليفة، رحيله المبكر خسارة كبيرة للحركة الأدبية والإعلامية في البحرين"³⁹.

كما أعرب الكاتب جعفر الجمري عن عاطفته الحزينة حول وفاة الروائي عبد الله خليفة قائلا: "غيب الموت أمس الكاتب والروائي البحريني عبد الله خليفة، عن عمر ناهز السادسة والستين (66) عاما (مواليد العام 1948م)، مشكلا عبر عقود، تراثا ونتاجا متنوعا في تناولاته، توزع بين القصة القصيرة والرواية والبحث والتناول النقدي، والتحليل السياسي، وإن ظل وفيما ومثابرا - ضمن خط عريض يمكن الوقوف عليه - على رصد العذابات الإنسانية، وإضاءاته لحال التناقضات التي كثيرا ما تكون الطبقات موضوعها، وهو الأثير عنده، وبالنظر إلى نتاج ضخم، وعميق في جانب كبير منه، وخصوصا في جانب الرواية، لا يمكن إلا ينظر إليه باعتباره

³⁹ - المصدر نفسه.

عراب الرواية البحرينية، وتطور أشكالها ومضامينها وأساليبها على امتداد أكثر من ثلاثة عقود من الزمن⁴⁰.

الوحدة الوطنية تجلت في يوم وفاة عبد الله خليفة: يبين أخوه عيسى خليفة البوفلاسة حقيقة الحال ليوم وفاة عبد الله خليفة قائلاً: "تجلت الوحدة الوطنية في يوم وفاة عبد الله خليفة في أسمى معانيها وصورها فقد حضرت لوداعه شخصيات من كل الطوائف والتيارات السياسية، عبد الله كان جامعاً لكل هؤلاء ومحل تقديرهم. ظلت إبداعاته مستمرة حتى آخر يوم في حياته فنحن لدينا من كتاباته المجلد الثالث ل"الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية" وكتاب "الوعي العربي المبكر" وهو مدقق وجاهز ولكنه مازال في الأدراج، بالإضافة إلى 10 روايات أخرى لم تنشر بعد"⁴¹.

كان الراحل مواظباً على الكتابة الصحافية: كان عبد الله خليفة في الفترة الأخيرة من حياته، مواظباً على الكتابة الصحافية، وعمل رسمياً، وهو الذي قدم روايات وقصصاً عديدة بينها: الضباب والينابيع، في صحيفة "أخبار الخليج" وينحدر الأديب الراحل من أسرة بسيطة في منطقة "القضيبيّة" في عاصمة البلاد "المنامة"، حيث ولد هناك في العام 1948. وكان والده يعمل في شركة بابكو للنفط، كما داوم الأديب الراحل على المشاركة في الفعاليات الثقافية والفكرية العربية، كلما سُنحت له الفرصة. وكان قد حضر فعاليات مؤتمر الأدباء والكتاب العرب في الجزائر عام 1975م، حيث التقى بعدة شخصيات بارزة، مثل الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين.

وأوقف عبد الله خليفة عن كتابة عموده في صحيفة "أخبار الخليج"، يوليو/ تموز الماضي 2014م، لأسبوعين بسبب مقال كتبه تحت عنوان "تناقضات

⁴⁰ - جعفر الجمري: رحيل عراب الرواية البحرينية عبد الله خليفة، صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 4428 - الثلاثاء، 21 أكتوبر، 2014م.

⁴¹ - حسين صالح: عبد الله خليفة... البحرين تودع أحد كبار كتابها المبدعين، "أخبار الخليج" البحرينية، 22 أكتوبر، 2014م.

الدولة الطائفية... البحرين نموذجاً"، انتقد فيه العائلة الحاكمة التي رأى أن "عنفها وبذخها يزداد بسبب تاريخها العنيف". كما قدمت جمعية "الأصالة" الإسلامية، التي تمثل التيار السلفي في البحرين، بتكفيره في أغسطس/ آب الماضي 2014م، على إثر مقال له قدم فيه رؤية مغايرة لقصة النبي نوح عليه التحية والسلام⁴².

رمز كبير: نعى اتحاد كتاب وأدباء الإمارات الكاتب والروائي البحريني عبد الله خليفة، وقال في بيان له: "خسر الأدب البحريني والخليجي والعربي واحداً من رموزه الكبيرة في مجال البحث والدراسة والكتابة الإبداعية، قصة ورواية، تاركا وراءه إرثاً مهماً ساعد في لفت الأنظار إلى التجربة الأدبية في منطقة الخليج، ووضعها في صلب التجربة الأدبية العربية"⁴³.

ووجه حبيب الصائغ رئيس مجلس إدارة اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، برقية تعزية إلى الشاعر إبراهيم بوهندي رئيس مجلس إدارة أسرة أدباء البحرين، عبر فيها، باسمه وباسم أعضاء الاتحاد جميعاً، عن حزنه البالغ لرحيل الباحث والروائي الكبير عبد الله خليفة، داعياً للفقيد بالرحمة، ولأهله بالصبر الجميل. وقال الصائغ في البرقية: "لقد كان الفقيد صديقاً لنا، جمعنا به عمل مشترك منذ البواكير الأولى للحركة الأدبية في الإمارات، ورحيله ليس خسارة لأدب البحرين فقط بل لأدب الإمارات والخليج ولأدب العربي عموماً، وذلك لما تحمله تجربته من قيمة عالية على مستوى الفكر والرؤية والموقف والأداة الفنية الجمالية المرهفة"⁴⁴.

عبد الله خليفة وداعاً: فقدت الحركة الثقافية والأدبية في البحرين ومنطقة الخليج العربي واحداً من أبرز وجوهها، برحيل الأديب البحريني عبد الله

⁴² - "رابطة الصحافة البحرينية" تنعى الكاتب عبد الله خليفة، نشرت بواسطة (www.bahrainpa.org)، في بيانات 22 أكتوبر 2014م.

⁴³ - المصدر نفسه.

⁴⁴ - غازي الغريبي: الروائي البحريني عبد الله خليفة يترجل بعد مسيرة حافلة بالعبء، صحيفة "البيان"، 22 أكتوبر، 2014م.

خليفة، فهو أحد أبرز رواد الرواية في بلاده وفي المنطقة، كما كان قبل ذلك أحد أبرز كتاب القصة القصيرة وأغزرهم إنتاجا.

وإضافة إلى عطائه الإبداعي فإن لعبد الله خليفة انشغالات نقدية على النصوص السرديّة سواء في المنطقة أو حتى على الصعيد العربي، وشارك في الملتقيات الأدبية التي تقام في البحرين ودولة الإمارات والكويت والقاهرة وغيرها بدراسات مهمة حول المشهد الروائي في الخليج.

في مرحلة لاحقة من نضجه الفكري انهمك عبد الله خليفة في دراسات معمقة في التراث العربي الإسلامي، كان من حصيلتها بحثه الموسوعي عن النزعات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية، كما استوحى أعمالا روائية من سيرة شخصيات بارزة في التاريخ الإسلامي. يشكل عبد الله خليفة نموذجا نادرا بين أقرانه من حيث انصرافه الكلي للبحث والقراءة، وقد تجلّى ذلك في غزارة إنتاجه في حقول الإبداع والبحث، وعلى الرغم من العدد الكبير لرواياته ومجموعاته القصصية وأبحاثه المنشورة في كتب، فإن هناك الكثير من المخطوطات التي أنجزها ما زالت تنتظر أن تنشر. ومع دأبه وجهده ومثابرته في الإنتاج فإنه حبذ أن يكون بعيدا عن الأضواء، وجنح إلى العزلة.

كانت الكتابة في الصحافة مصدر رزقه الوحيد، ولكنه جعل من عموده اليومي في جريدة "أخبار الخليج" منبرا للفكر التنويري ومقارعة أوجه الزيف في حياتنا العامة، وفي تبني قضايا الناس، معملا ما يمتلكه من أدوات معرفية في نقد البنى المحافظة العميقة للتقدم، والمشوهة لأوجه الحراك السياسي والمجتمعي. وغرف بروحه السجالية في تناوله للقضايا

الأدبية والفكرية، لكن حتى المختلفين معه يقدرّون ما هو عليه من تأسيس معرفي مكين⁴⁵.

خلال مسيرته في العطاء منذ أكثر من نصف قرن، اقترنت الكتابة عند عبد الله خليفة بشجاعة الموقف، وبالممارسة الحياتية، وفي العمل على بناء مؤسسات المجتمع المدني وتفعيلها من موقعه كأديب، ومن خلال دوره في أسرة الأدباء والكتاب التي يعد الراحل أبرز وجوهها، الذين ساهموا في التأصيل لمفاهيم الحداثة الأدبية والفكرية، وفي تفاعل الأدب والثقافة مع التحولات المجتمعية. إننا نجد في سيرة عبد الله خليفة ما يمكن أن نعدّه شجاعة الرواد في اقتحام الدروب غير المطروقة، وفي الثبات على الموقف، القبض على جمرة الحقيقة مهما كانت حارقة⁴⁶.

فلا خلاف أن عبد الله خليفة أحد أهم الكتاب المخلصين لتجربتهم الروائية والقصصية والفكرية، لذلك فهو استطاع أن يقدم لنا أعمالاً هامة، تحتاج إلى القراءة المتأنية، والبحث الجاد، سواء في الروايات التي كتبها، التاريخية منها، أو تلك التي تتكلم عن الحداثة الاجتماعية والتاريخ الحديث، أو تلك الدراسات الفكرية التي عبرها يساهم في رقد الفكر الحديث. عبد الله خليفة قامّة كبيرة تحتاج إلى قامات أخرى قادرة على اكتشاف ما لم يكتشف في مشروعه العربي في الرواية والفكر الفلسفي.

ولا ضير في مثل هذا التذكير: للجهات الرسمية خصوصاً، تلك المعنية بالثقافة، استكتاب نقاد وباحثين يكشفون عن كم الجهد الذي بذله الراحل في صمت، ومداومة على نشر أعماله أولاً بأول، قراءة وتحليلاً وتناولاً منهجياً لتلك الأعمال، والعمل على نشر ما لم يتمكن من دفعه إلى المطابع ودور

⁴⁵ - د. حسن مدن: عبد الله خليفة... وداعاً، صحيفة "أخبار الخليج" البحرينية، تاريخ النشر: 25 أكتوبر، 2014م.
⁴⁶ - د. حسن مدن: عبد الله خليفة... وداعاً، صحيفة "أخبار الخليج" البحرينية، تاريخ النشر: 25 أكتوبر، 2014م.

النشر التي احتفت به في أكثر من بقعة وبلد، من مصر إلى الجزائر، وغيرها من البلدان العربية.

لا شك أن رحيله يشكل خسارة كبيرة، وفراغا أكبر، يمكن تدارك شيء منه بالتصدي لنشر مشروعات لديه أتم بعضها منها، لا شك أنه وضع بعضها الآخر على قائمة التأجيل.

عبد الله خليفة في عيون الأدباء والكتاب: مع صبيحة يوم الثلاثاء (21

أكتوبر 2014م)، فوجئ محبو الأديب والكتّاب، القاص والروائي عبد الله خليفة بنباً وفاته، وكان على عمر من الإبداع قد تجاوز أكثر من أربعين (40) عاماً، عاشه المبدع عبد الله خليفة كاتباً للقصة القصيرة والرواية ومنخرطاً في التحليل السياسي، إنه صاحب مشروع ثقافي رائد وكبير، رحل بعد صراع مع المرض قارب العامين، رحل وهو بعمر 66 عاماً، قضاها في إبداع متواصل.

وقد أثار رحيله حزناً كبيراً لدى الأوساط الأدبية والثقافية، والتقت صحيفة " الأيام" مجموعة من الكتاب والأدباء الذين عاصروا الكاتب الراحل فتحدثوا عن تجربته وأثرها في المشهد الثقافي البحريني والخليجي والعربي، فكانت آرائهم كالتالي:

تحدث رئيس أسرة الأدباء والكتاب إبراهيم بن هندي عن الراحل فقال: "إن رحيل الأستاذ عبد الله خليفة خسارة كبيرة على مستوى المشهد الثقافي بشكل عام، والأدبي بشكل خاص، وذلك على مستوى النقد والفكر الثقافي وعلى مستوى الإبداع الروائي، فنحن في أسرة الأدباء والكتاب حظينا بكثير من العطاء من قبل الراحل على مستوى الإداري والعمل الثقافي، فكان دائماً موجوداً في الأوقات التي نحتاجه وكان يتحمل أي مسؤولية توكل إليه سواء في تحرير بعض الأعداد لمجلة "كلمات". وأضاف قائلاً: "غيابه بالنسبة لنا

يعد خسارة كبيرة جداً، خاصة أنه في المرحلة الأخيرة تنوع في عطائه على مستوى الإبداع الأدبي والفكري، كما أن له كما كبيرا من الإنتاج الفكري والأدبي ولم يأخذ حقه من النقد، فأرجو تسليط الضوء على هذه التجربة الغزيرة التي تمثل أحد أعمدة المشهد الأدبي في البحرين⁴⁷.

وتابع "ولم يسعف الأسرة الوقت إلى أن تحتفي به حسب ما هو مقرر في شهر ديسمبر المقبل وقد كان رحمه الله على علم بذلك، حيث استقدمت الأسرة بعض الباحثين للحديث عن تجاربه الروائية وكان من المفترض أن تطرح روايته التي لم تنتشر بعد، والتي هي بعنوان "خليج الأرواح الضائعة" ولكن غيابه سيدفعنا أن نواصل في مشروع الاحتفاء به وكنا نتمنى أن يتواجد في هذا الحفل، ولكن هذا ما شاءه الله تعالى"⁴⁸. ويرى الناقد **فهد حسين** أن بداية علاقته بالكاتب الراحل متعدد المشارب بنشيد البحر، ثم توالى التواصل بين ما يكتبه وبينني من دون معرفة شخصية، ولكن مع النصف الأول من تسعينيات القرن الماضي وفي أثناء إعدادي لبحث عن نجيب محفوظ جاء لقائنا الأول في إحدى مقاهي ساحل النادي البحري، وكان معي آنذاك المرحوم عبد علي الحمالي، ومن تلك اللحظة بدأت العلاقة الأدبية الاجتماعية تنشأ، حتى وصلت إلى طلبه مني النشر في الصفحات الثقافية بجريدة "أخبار الخليج"، وبالفعل أول من شجعني على ولوج دهليز الكتابة النقدية نشرها هو الفقيه عبد الله خليفة، وقد نشر لي أول مقالة في الملحق كانت عن المكان في قصص رأس العروسة للكاتب محمد عبد الملك. رحل عبد الله خليفة الإنسان والباحث والناقد والروائي والقصص والصحفي، ليتترك لنا تركة ضخمة من النتاج، فواجب علينا على أقل تقدير

⁴⁷ - إبراهيم بن هندي: وفاة الروائي البحريني عبد الله خليفة بعد مسيرة حافلة بالعباء، صحيفة "الأيام" البحرينية، العدد: 9326، الأربعاء 22 أكتوبر، 2014م / الموافق 28 ذو الحجة 1435.

⁴⁸ - إبراهيم بن هندي: وفاة الروائي البحريني عبد الله خليفة بعد مسيرة حافلة بالعباء، صحيفة "الأيام" البحرينية، العدد: 9326، الأربعاء 22 أكتوبر، 2014م / الموافق 28 ذو الحجة 1435.

أن نحفظه قراءة ونقدا وتحليلاً⁴⁹. وفي جانب آخر يقول الكاتب سلمان الحايكي في رحيل عبد الله خليفة: "لا يمكن أن تحقق الموضوعية في كلمات الرثاء لأنه ليس للرثاء مكان تجاه الأدباء والكتاب والشعراء والمبدعين والذين يقدمون الخدمات الإنسانية سواء بالقلم أو العرق أو الجهد وبالتالي يكون الزميل المناضل عبد الله خليفة واحداً من هؤلاء"⁵⁰. المناضل والكاتب عبد الله خليفة الذي اتسع في الكتابة وتوسع فيها بدءاً بالطريق الوعر باسم مستعار ونشر العديد من القصص القصيرة في صحيفة الأضواء وعدد من المجلات الدورية والأسبوعية حتى تمكن من إثبات قدراته الفنية الفذة ثم نشر في بعض أرجاء الوطن العربي عامة والمنطقة الخليجية خاصة. كان يركز في كتاباته على الطبقة العامة. عانى الراحل التجارب المريرة في حياته وكل ذلك كان جزءاً من أسباب تفوقه في الكتابة الإبداعية والحضور الدائم في المشهد الثقافي العربي لما يمتلكه من إرهاصات وخبرات على أعلى المستويات.

أما الكاتب البحريني د. محمد الخزاغي فقد عبر عن تفاجئه بوفاة القاص والأديب عبد الله علي خليفة فقال: "عرفت الراحل منذ أن كان طالباً في معهد المعلمين، ولم تكن مواهبه الأدبية قد برزت حينها، ولكنه عندما خاض تجربة العمل كصحفي في صحيفة "أخبار الخليج" بدأت تلك المواهب بالظهور من خلال كتاباته الصحفية المتنزة والرزينة والجادة، أما عن نتاجه الأدبي فقد كتب عدة روايات يمكن أن تعتبر كتباً عن جميع الخلفاء الراشدين روايات أدبية جميلة تذكرنا بمصطفى العقاد إلى حد ما، له توجهات فكرية واضحة جداً التي قد لا تتوافر في الكثير من الكتاب"⁵¹. وتطرق الكاتب والمؤرخ البحريني منصور سرحان إلى نبذة عن حياة

⁴⁹ - حسين صالح: عبد الله خليفة... البحرين تودع أحد كبار كتابها المبدعين، "أخبار الخليج"، 22 أكتوبر، 2014م.

⁵⁰ - نفس المصدر.

⁵¹ - سكيئة الطواش: وفاة الروائي البحريني عبدالله خليفة بعد مسيرة حافلة بالطاء، صحيفة "الأيام"، العدد: 9326، الأربعاء، 22 أكتوبر 2014م.

الراحل من ناحية تاريخية وقال: "يعد الراحل عبد الله خليفة أحد كبار كتابه الرواية في البحرين وهو باحث معروف وصاحب مشروع فكري تمثل في عنوان "الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية"، حيث قام بقرأة جديدة للوعي الديني والفكري في المنطقة العربية، بالإضافة إلى ذلك فهو قاص وقد كتب العديد من القصص القصيرة الهادفة، وبدأ عمله في سلك التدريس عام 1975م، إلا أنه وجد نفسه صحفياً أكثر من ميله للتدريس فعاد للعمل كصحفي متميز بدءاً من عام 1981م، وكتب الكثير من المقالات والدراسات التي نشرت في الصحف العربية والمحلية وانتشرت مقالاته في شتى المواقع العربية وقد تميز بعموده "أفق" الذي يكتبه في جريدة "أخبار الخليج" حيث تدل مقالاته على فكر متطور محاولاً نشر ثقافة التسامح في معظم مقالاته"⁵².

وأضاف "والراحل عضو فاعل في اتحاد كتاب العرب وشارك في العديد من الندوات المتعلقة بالقصة والرواية، وحصد بعض الجوائز عن بعض أعماله الأدبية، وقد بلغ مجموع الكتب التي ألفها من قصة ورواية وفكر وفلسفة زهاء تسع وعشرين كتاباً⁵³، كان عنوان أولها "لحن الشتاء" الصادر في العام 1975م، وآخرها رواية بعنوان "عنترة يعود إلى الجزيرة" التي نشرها عام 2011م، وبهذا نقول بفقده خسرت البحرين أحد أبنائها البررة وكتابها الكبار"⁵⁴.

⁵² - سكيئة الطواش: وفاة الروائي البحريني عبدالله خليفة بعد مسيرة حافلة بالعباء، صحيفة "الأيام"، العدد: 9326، الأربعاء، 22 أكتوبر، 2014م / 28 ذو الحجة، 1435.

⁵³ - هذا العدد لكتب ومؤلفات عبدالله خليفة حسب معرفة الكاتب، وإلا في الحقيقة يبلغ عدد كتب عبد الله خليفة إلى أكثر من خمسين كتاباً ما بين قصة ورواية ونقد ودراسة.

⁵⁴ - سكيئة الطواش: وفاة الروائي البحريني عبدالله خليفة بعد مسيرة حافلة بالعباء، صحيفة "الأيام"، العدد: 9326، الأربعاء، 22 أكتوبر، 2014م / 28 ذو الحجة، 1435.

عبد الله خليفة من خلال رواياته

الكاتب والروائي، والمتقف البحريني الكبير عبد الله خليفة بعد مسيرة طويلة شاقة، وحافلة بالعطاء والتنوير، وإنتاجات دافقة ثرية ومتنوعة في الفكر والفلسفة والأدب خلفها وراءه لتشهد بآثاره التي حفرها في ذاكرة الوطن بترابه ونخيله وبحره وهوائه وشخصه وتاريخه التليد والطارف، لقد توسل بالكتابة لتقوم بالانغراس في جذور الأرض لأن كل يوم هو لحظة ألم وأمل، ولكل لحظة مضمون، وكما كان المثقف ممثلكا أدوات التعبير عن هذه اللحظة، وتمكننا من الإفصاح عما تحويه كان إنتاجه الكتابي أقدر على مقاومة الفناء والتلاشي، وأجدر بتسجيل جوهر اللحظة وتجلية خصوصيتها.

والناظر في تجربة الكتابة الروائية عند عبد الله خليفة يلاحظ تراكم النصوص وانتظام صدورها، ليكون بذلك أغزر كتاب الرواية في البحرين إنتاجا، وأشدهم حرصا على ممارسة فعل الكتابة، لإيمانه بأن الكتابة تنمو فوق الأرض الحقيقية، تسحب الصواري من عند البحارة الذين غطسوهم موتى وهياكل خالية من المعنى في قعر الخليج، فتغدو الرواية الكبيرة المخططة في الرأس روايات عديدة، تزخر به الواقع من صغير الشؤون وعظيمها، ذلك لأن روايات عبدالله خليفة كلها مشدودة إلى الواقع شدا وملتصقة بالحياة التصاقا، تكشف ما يمور به المجتمع من قضايا ومعضلات، وتعمد إلى فهم حركة التاريخ، ومظاهرتطوره، وما ينعكس فيه من تجاذبات وصراعات وتغيرات ثقافية واجتماعية وإيديولوجية وسياسية، وتنظر في بنية المجتمع، وتنشغل بمحركات التاريخ، لتقتنع بالتصور الذي ينتصر لمقام الكادحين والعمال. فقد صرفت الروايات اهتمامها إليهم، وأخذتنا إلى الفلاحين يكدحون في حقول ملتبهة، والغواصين يجوبون بحارا قصية، ويركبون الأهوال والآلام من أجل الكفاف والعفاف، ورحلت بنا إلى

المصنع حيث العمال "مندفعون في تيار الحديد والنار والهواء البارد واللاهب"، وتنقلت بنا بين القرية والمدينة، والماضي والحاضر، والأنا والآخر، وفتحت لنا المجال للنظر في علاقة الإنسان بالمكان والتاريخ والتحويلات الفكرية والاجتماعية، وصلته بمصيره والسلطة.

لقد أبرزت تجربة عبد الله خليفة الروائية المتمثلة في (اللآلي 1981م، والقرصان والمدينة 1982م، والهيترات 1983م، وأغنية الماء والنار 1988م، والينابيع بأجزائها الثلاثة 2012م) واقع الفئات الشعبية المغمورة، واستفاضت في نقل همومها وأحلامها، فعدل الكاتب إلى تصوير فضاءات المهمشين حيث الشخصيات الموسومة بالعجز والضياء والتأزم تكتوي بنار الخصاصة والشقاء والحرمان، وتتزوي في بيوت من سعف النخيل، وأحياء فقيرة تقطنها المستنقعات، ويقرضها البعوض، ويأتي فضاء البحر، في أغلب هذه الروايات، ليسحق أجساد الغواصين في مهنة الغوص، وفيها يتعملق النوخذه النهم الذي لا يشبع، ومع رواية (الينابيع) يتحول الغواصون من فضاء البحر إلى فضاء الجبل ليستعبد وجودهم المستعمر الأجنبي مسخرا إياهم في التنقيب عن النفط، داعما عوامل الطبقيّة والتبعية له، مثبتا مركزيته، وبذا يدور الكادحون بين ماضيهم وحاضرهم في فلك علاقة إقطاعية طاغية تجسد مرارة معاناتهم، وشدة وطأة الحياة عليهم.

يتحول الكاتب في روايات أخرى ليصور مآلات هذا الواقع المأزوم على الذات الإنسانية، فتعد روايات عبد الله خليفة من أبرز الروايات التي جسدت ما ينخر المجتمع من عاهات تفكك لحمته وتخرم وحدته، وتفضي به إلى تعطيل حركة التقدم وعجلة التغيير المنشود. ففي رواية (القرصان والمدينة 1982م) يتجلى لنا كيف تخان الثورة عندما تسلم قيادتها إلى العدو، وبذا يفرط الخائن بالأرض رمز الحق التاريخي والهوية والحرية والشرف

والكرامة، ولعل صورة الخائن هذه وما يلازمها من عوامل الخلل، ومظاهر الشين لا تباين صورة المثقف الانتهازي الذي يتزلف إلى السلطة طامعا في الصيت والمال والحظوة، وهو ما جسده شخصية (ياسين) في رواية (التمثيل 2007م). غير أن رواية (ذهب مع النفط 2010م) تعكس سعي الكاتب إلى تجاوز صورة المثقف تلك بأخرى أكثر نضجا وحرية تعتمد إلى تنوير الشعب، وتغذية مكان القوة والفعل فيه بحثا عن أفق وجود أفضل. وإذا ألقينا النظر على الروايات التاريخية التي أنتجها الروائي عبد الله خليفة مثل (رأس الحسين 2006م، عمر بن الخطاب شهيدا 2007م، علي بن أبي طالب شهيدا 2008م، ومحمد ثائرا 2009م) تبين لنا ضخامة الجهود التي بذلها للتصدي لشخصيات إسلامية عظيمة. وفي تأكيد ذلك يقول: "إن كتابة الرواية التاريخية عملية صعبة، ليس بسبب الدخول لتجسيد الصراع الاجتماعي في ذلك الزمن التأسيسي المقدس للأمم الإسلامية، بل كذلك بسبب تصوير ما هو ملموس من أشياء ومناخات وأمكنة". وهذا هو ما دعاه إلى رصد مسيرات تلك الشخصيات، وسبر أغوارها، والمقارنة بينها وبين غيرها من الشخصيات التاريخية في الرواية والنفاز إلى توضيح أوضاع الحكم في عهدها، والتغلغل إلى أسباب الصراع، وتبين مسؤولية الخاصة والعامية، ويأتي كل ذلك من أجل استغلال أفق تاريخي زاخر ومزدحم بالوقائع والخلافات والصراعات على مختلف الأصعدة، زهز لا ينفك يتكرر في الزمن الراهن، وبذا يتحول التاريخي إلى جدلي يعدل إلى مساءلة الواقع الاجتماعي والسياسي، ويدعو إلى التأمل في قضايا إنسانية جوهرية.

لقد كانت السياسة، وتداعياتها على الواقع الاجتماعي والثقافي، هي الشاغل الأبرز في غالب تجربة عبد الله خليفة الروائية، ومن هنا هيمنت على عوالمه الإبداعية لينخرط إبداعه الروائي ضمن الأدب النضالي الملتزم

بقضايا مجتمعه، وقضايا الإنسان عامة، بغية العمل على تحريره من كل أشكال القهر والاعتساف والاستلاب والظلم، وتحديد الشروط الكفيلة بتأسيس مجتمع منشود ينهض على الحرية والعدالة والمساواة.

ومما يجدر توضيحه هنا أن عبد الله خليفة أصدر بعض الأعمال الفكرية والفلسفية والنقدية في فترة تتزامن مع إصداراته الروائية، الأمر الذي يكشف نهوض الممارسة الروائية لديه على خلفية نظرية يصدر عنها في إبداعه الروائي، وقد ترتب على ذلك عمق استيعابه إشكالات الواقع، والمنابع التي تنهل منها، وسهل عليه المزاجية بيت الأصالة والمعاصرة، وأمكنه من تنويع الأساليب والبنى السردية وأنساق الخطاب ومستويات اللغة، وجميع ذلك يجعل تجربته الروائية تتميز بوعي نقدي بفعل الكتابة شروطاً وأدوات وآفاقاً.

الباب الرابع

روايات عبد الله خليفة

دراسة تحليلية انتقائية

عبد الله خليفة روائيا

نشط الإبداع الروائي في الساحة الأدبية بالبحرين في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، إذ لم تكن الساحة الأدبية في البحرين قبل هذا الوقت إلا مسرحا لقصائد الشعر والمقال النثري والقصة القصيرة، ولم تكن الكتابة الروائية بزخمها المتشابك ونسيجها السردي الحديث، وخصوصيتها في سبر أغوار العالم الأدبي إلا مطمحا عاليا للمبدعين في البحرين.

وكانت أول رواية بمعناها الفني صدرت في الثقافة البحرينية هي رواية "الجنوة" لمحمد عبد الملك عام 1980م، تتابعت عقب ذلك روايات أمثال: "أغنية ألف صاد الأولى" لأمين صالح عام 1981م، ورواية "الحصار" لفوزية رشيد سنة 1983م، كما صدرت روايات "اللألي" عام 1981م، و"القرصان والمدينة" عام 1982م، و"الهيئات" عام 1983م، لعبد الله خليفة.

ويمثل إنتاج عبد الله خليفة القاسم الأكبر في عدد الروايات التي صدرت في مسيرة الأدب البحريني - إذ تمثل رواياته الثلاث نصف عدد الروايات الصادرة تقريبا التي تمثل البواكير الأولى لمحور الرواية في الأدب البحريني الحديث.

وعالم عبد الله خليفة الإبداعي سواء ما ظهر في قصصه القصيرة أو في رواياته، هو عالم البيئة الاجتماعية البحرينية بخصوصياتها ومتغيراتها وتحولاتها، وبكل ما تكتنف جوانبها من هموم ترتبط بالبحر والسواحل وحياة الصيد والغوص لاستخراج اللؤلؤ وتجارته، وكذا بكل ما طرأ على بنيتها الأساسية من متغيرات ملحة. خاصة بعد اكتشاف النفط في أرضها ودخول البحرين عالم التقنية والمال وغزو العمالة الآسيوية، وما صاحبها من تطورات على البنية الأساسية للبيئة البحرينية ثقافيا واجتماعيا

واقصاديا. والتعبير عن الواقع السائد في المجتمع البحريني هو الهم الأكبر للشكل الروائي، سواء كان هذا الواقع بيئيا ينبع من صلب البيئة وما يطأ عليها من تغير نتيجة للإنجازات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التي تحدث في بيئتها للمجتمع كما حدث في بيئة البحرين بصفة خاصة والخليج بصفة عامة، كما أن الواقع النفسي الذي تضطلع به الرواية في الأعمال التي تتميز بهذا اللون من الكتابة، الذي تحشد له من الشخصيات التي تفرز من همومها وطموحاتها واقعا نفسيا يمثل هو الآخر واقعا اجتماعيا له خصوصيته. وقد كانت البدايات الأولى للرواية في البحرين متأثرة تأثرا كبيرا بهذا الواقع خاصة أن المؤثرات التي تمر بها الساحة الأدبية في العالم الغربي والعالم العربي كانت تجد لها صدى في هذه البدايات، وكان المضمون العام لهذه الروايات ينسحب في إسقاطاته على الواقع الاجتماعي الذي تعيشه المنطقة.

ولعل فكرة الربط بين الشكل والمضمون في الأعمال الروائية البحرينية من ناحية أنها تتناول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في هذا المجتمع والمشكلات الناجمة عنه جعل رواد الرواية في البحرين يحتفون بالأشكال الواقعية التي تعبر عن مدلول البيئة، وما يصاحب ذلك من تعبير عن النقد الاجتماعي والتمرد ضد مظاهر التسلط والقهر والقمع، وهي سمة احتفى بها رواد الرواية في العالم كله حينما بدأت الأشكال الروائية تأخذ طريقها إلى الظهور، وكان التعبير عن الواقع هو الهم الأكبر لدى معظم من كتبوا الرواية في بداياتها الأولى، كما أنه هو من يكون البنية الأساسية للبدايات الأولى في كل مرة - وهذا ما يؤيده الكاتب شوقي بدر بقوله: "وكلنا نذكر أعمال ديستوفيسكي وجوجول وتولستوي في روسيا، وبلزاك وستاندال وفلوبير وزولا في فرنسا، وديكتر وتوماس هاردي وسومرست موم في

إنجلترا - فقد كانت كتاباتهم الروائية جميعها تتبع من بيئتهم الخاصة وتعبر عن هموم مآسي مجتمعاتهم، وتجسد المشكلات الذاتية، والهم النفسي، وتأزمات العصر، والواقع على المستوى العام والخاص على السواء"¹.

كما أن الرواية العربية هي الأخرى عندما بدأت طريقها في دروب الساحة الأدبية، كان الاتكاء على الموضوعات المستمدة من البيئة هو أهم موضوعاتها، نجد ذلك في رواية "زينب" للدكتور محمد حسين هيكل، وأعمال نجيب محفوظ، وروايات حنا ميناء، ومحمود أحمد السيد، والطيب صالح وغيرهم.

ولعل الروائي البحريني عبد الله خليفة وهو أهم روائي البحرين حتى الآن، وأحد الذين استمدوا أعمالهم من الواقع الاجتماعي لبيئته، وأحد الذين عبروا بأعمالهم القصصية والروائية عن هموم المجتمع البحريني بكل خصوصياته، لعله يعتبر رائد الرواية البحرينية بجانب أنه يستمد خصوصيته في هذا المجال من احتفائه بصفة خاصة بعالم البحر والغوص وما يتصل به من أعمال لها عقبها وتراثها وموروثها الاجتماعي الخاص - وفي حديث له عن تجربته القصصية والروائية قال:

"لقد بدأت محاولات الكتابة القصصية منذ عام 1966م، وقد نشرت عشرات القصص والمقالات الأدبية منذ تلك السنة، ومنذ البداية كانت تسكنني هموم وطني وآلامه، وقد عبرت عنها حسب تجربتي الأدبية والفكرية، حيث كنت أتوجه إلى الفكرة والحدث بوضوح وبلا موارد، وقد حاولت استيعاب فن القصة، وبعد هذه الفترة رحت أتأمل التجربة بشكل أكثر عمقا واستيعابا، كما أنني حصلت على تجارب كثيرة ومختلفة حياتية، استطعت من خلالها الاقتراب من الواقع بشكل أكثر حميمية، ومن أجل ذلك

¹ - يوسف، شوقي بدر: "غواية الرواية...دراسات في الرواية العربية"، جمهورية مصر العربية، الجيزة، وكالة الصحافة العربية، ص: 141.

صارت القصص حسب رأي أكثر اتساعا وإحاطة بالحياة، كما أن هذا الاتساع والإحاطة مهذا لعملية الكتابة الروائية، فمنذ أن يحدد الكاتب شخصياته، ويقوم بتعميقها، ويشكل فصولا في قصته القصيرة حتى يبدأ في طريق الرواية - وقد كتبت قبل روايتي "اللآلي" ثلاث روايات قصيرة لم أقم بنشرها، كنت أتجه فيها إلى الغرابة، واستحداث أجواء عجيبة ولكني مع الاهتمام بموضوعات شعبية أخذت أقرب من الرواية، وبدأت ملامح الأشخاص في الظهور، كما أخذ واقعهم الذي يعيشون فيه بالتبلور شيئا فشيئا، قد دفعني هذا إلى محاولة السيطرة على الصراع الروائي، ووحدته وعملية تطويره².

تجربته في الرواية: فصل القول كاتبنا الروائي عبد الله خليفة في حياته الروائية وعبر عما جرى به في مسيرة الرواية، كيف كانت بداية دخوله في مجال كتابة الرواية، وماذا عانى من معانات ومشاكل في سبيل كتابتها حتى وصل إلى مرحلة النضج في التجربة الروائية، ونجح في إثراء المكتبة البحرينية والخليجية بإنتاج روايات مهمة يبلغ عددها حوالي ثلاثين رواية، سواء كانت مطبوعة أو غير مطبوعة، فاعتبره النقاد والكتاب من رواد الرواية العربية ومن أكبر كتابها في البحرين. وإنني أود أن أنقل إليكم عبارته لتتضح الصورة بلسانه جلية وهي كما يلي:

"كانت الرواية الأولى التي نشرت باسم (اللآلي) بها الشرارة التي بحثت عنها. هنا وقفت على أرضي، هنا تلقت فوجدت وطني، رأيت أبي وخالي وأمي. رأيت السلاسل والأزهار والأساطير. إنها عن الربان المقامر، عن النوخذا القاسي الذي يؤخر سفينته بعد انتهاء موسم الغوص طمعا في المزيد من اللؤلؤ الثمين فيواجهه بعاصفة مفاجئة تطيح بالسفينة على إحدى

² يوسف، شوقي بدر: "غواية الرواية - دراسات في الرواية العربية"، مصر، الجزيرة، وكالة الصحافة العربية، ص: 143.

الجزر"³. ويضيف كاتبها: "ليس عرض صراعات الغوص، وظلالها المعاصرة، هي فقط ما شدتني إلى تلك الشخصيات التي ظهرت فجأة بل أيضا اللغة المتشظية المنفجرة المتداخلة سردا وحوارا والراجعة دائما إلى الوراء بحثا عن خيوط الشخصيات وأسرار المكان. إنها عودة دائمة للزمن الخفي كمحركات أساسية في شق تربية الحاضر أمام تطورات الصراع المشهدي المتفانم باستمرار. هذه اللغة التي أحببت أن ترافقني وأنا أعيد النظر الفني في تاريخ الخليج وزمنه الراهن، وأن لا تتوقف مسيرة الغواصين عند جزيرة النوارس الفارغة من التاريخ والبشر في [اللآلي]، بل أن تمتد خيوط السرد من قلب البحر إلى الطوابق المتعددة المهذمة المتصارعة المتشكلة في روح الإنسان وفي بنى الاضطهاد المتصاعدة. وأنا في السجن وفيما بعد في أحداث الحياة الحافلة وفي البطالة الطويلة والتشرد المنزلي وكتابات الصحافة، انشغلت بالتقنية التي راحت تتهدم وتتبنى بايقاعات مضطربة، خائفا دائما من تآكلني التقارير ولغة الصراخ. كان الصراخ هو الانفجار النفسي والفني الوحيد الممكن في شريط تجري معاصر. كثيرا ما نصرخ في الليل موقظين الصحراء العسكرية إلى فقداننا للهواء، خائفين أن نفقد الفن وخائفين أن نفقد اللغة والحياة فجأة، وهذا الشعور يدفعنا للمغامرات الفنية بأساس حينما وبدون أساس حينما آخر، فقد تشبعنا من مسامير الواقع وصدئه الكثيف في أعمال الانعكاس، ومن هنا أخذت في التركيب الشخصي والحداثي وفي تعدد الرواة إلى درجة التداخل الشديد أحيانا كما في [القرصان والمدنية]، فشخصية المدرس المحورية لم تكن تروي لوحدها حدث خطف زوجته من قبل الفنان الكبير كامل، بل إن الربان المهتم بالقرصنة كان يروي كيف خان الثورة وسلم مراكبه للعدو..

³ - عبد الله علي خليفة: "عبد الله خليفة - عرض ونقد عن أعماله"، 2018م، ص: 12.

روايتان على مستويين زمنيين مخالفين متداخلين، فيهما هذا الطموح بمعالجة التراث والعصر معاً. وفي اللغة التي تغدو غاية غير منفصلة عن المعمار، وفي الشخصوص والأحداث المركبة وفي التكتيف تكونت أساسيات الروايات الأولى: "اللآلي"، "القرصان والمدينة"، "الهيبرات" (أي المغاصات)، و"أغنية الماء والنار"، و"امرأة"، و"الضباب"⁴.

عادت هنا لغة التواصل المباشرة وانقطعت استراحة المحارب الشعرية، وعاد القاص المنعزل إلى صحفي على أرض ملاء بالحطام وبفتات المناضلين وباستيلاء الماضي السحري والديني على الحاضر الضائع وبازدهار الغموض وعبادة الأشكال. يبين عبد الله خليفة ما كان يفكر حين دخوله في مجال كتابة الرواية:

"كنت أمشي نحو المجلة التي اشتغلت فيها أكتب فيها تحقيقات حامضة، أركض نحو المزارع والأحياء، وأوقن أن مسألة الكتابة القصصية والروائية المتصلة مستحيلة. لا يزال النوخذا المهووس باللآلي سابقاً وبالذهب والنفط والرقيق والآثار راهناً، والمغامر بحياة بحارته، لا يزال يمسك الدفة بين صخور العصر وناפורات النقود، وقد تحول إلى مجنون يبيع أرضه ونخله وبحارته وأبناءه وتمائله لمن يدفع، وصار الواقع جملة من القوابيس، وغدت المقاومة نفسها انتحارا أوجنونا آخر"⁵.

أما ما يتعلق بإنتاجه الرواية التاريخية فقد يقول عنها مبينا تجربته: "شدت دراستي الطويلة عن الوعي الديني أنظاراً، وغدت دائرة الحوار مع اتجاهات متعددة تتسع، فقد غدا الدين محور الوعي في هذه المرحلة الشائكة، وفي لحظة خاطفة غريبة: قلت لماذا لا تغدو الرموز الدينية مجالاً للرواية، وقد شدتني خاصة شخصية الحسين، فكتبت عملاً عنه ولكنني

⁴ - عبد الله علي خليفة: "عبد الله خليفة - عرض ونقد عن أعماله"، 2018م، ص: 13 - 14.

⁵ - المصدر نفسه.

انقطعت عن ما كتب عن وجود الحي، أخذا رأسه المقطوع الدامي في رحلة روائية لم تؤخذ من قبل. هكذا رحت أعمل على صعيد الرواية التاريخية والرواية المعاصرة معا، لتتكشف أبعاد الزنزانة في الماضي والحاضر، ولتكون مرئية مجسدة متوترة للقارئ، سواء كانت عن عمر بن الخطاب أم عن بطل مغمور في القرن العشرين. إن الشخصيات العظيمة كشخصيات الصحابة العظام أو قادة الاستغلال القدامى، الشخصيات الميثة، تحيط بنا منذ الطفولة، تغلف حياتنا، تحدد معاييرنا⁶.

إن كتابة الرواية التاريخية عملية صعبة ليس بسبب الدخول لتجسيد الصراع الاجتماعي في ذلك الزمن التأسيسي المقدس للأمم الإسلامية، بل كذلك بسبب تصوير ما هو ملموس من أشياء ومناخات وأمكنة، فمعرفة النباتات والفواكه لا تنفصل عن وضع الشخصيات في تلك المواقف الدرامية والمأساوية للشخصيات العظيمة وهي تقتل في ذروة الانتصارات والانقسامات العميقة النارية التي تتصاعد بين صفوفها، وهي تخفق مع إنجازاتها في تحقيق الحلم الذي نعيد رؤيته الآن وصنعه في زمن مختلف وبأدوات ثقافية مغايرة.

هذه لمحات خاطفة عن تجربته الروائية التي بدأت عند شواطئ قصية للوطن العربي، ومبعدة عن التعليم والثقافة، وأدوات الكتابة والنشر.

فنتيجة لممارسته القصصية وتجربته الطويلة العميقة في مجال كتابة الرواية العربية جاءت رواياته إلى حيز الوجود متنوعة على النحو التالي:

1- اللآلي، 1981م

2- القرصان والمدينة، 1982م

3- الهيراث، 1983م

⁶المصدر السابق، 13 - 14.

- 4- أغنية الماء والنار، 1989م
- 5- مريم لا تعرف الحداد، أو "امرأة"، 1991م
- 6- الضباب، 1994م
- 7- نشيد البحر، 1994م
- 8- الأقف، 2002م
- 9- ساعة ظهور الأرواح، 2004م
- 10- رأس الحسين، 2006م - رأس الحسين، طبعة ثانية، 2012م.
- 11- عمر بن الخطاب شهيدا، 2007م
- 12- التماثيل، 2007م
- 13- عثمان بن عفان شهيدا، 2008م
- 14- علي بن أبي طالب شهيدا، 2008م
- 15- محمد ثائرا، 2010م
- 16- ذهب مع النفط، 2010م
- 17- عنتره يعود إلى الجزيرة، 2011م
- 18- الينابيع، الطبعة الكاملة، 2012م
- 19- عقاب قاتل، 2014م
- 20- اغتصاب كوكب، 2014م
- 21- خليج الأرواح الضائعة، 2015م
- 22- رسائل جمال عبد الناصر السرية، 2015م
- 23- ثمن الروح، 2016م
- 24- الماس والابنوس، 2016م
- 25- ابن السيد، 2016م
- 26- الأرض تحت الأنقاض، 2017م

- 27- حورية البحر، 2017م
28- طريق اللؤلؤ، 2017م
29- بورتريه قصاب، 2017م
30- مصرع أبي مسلم الخراساني، 2018م
31- شاعر الضياء، 2018م
32- هدهد سليمان، 2018م⁷.

⁷- نفس الموقع السابق.

دراسة تحليلية

لبعض روايات عبد الله خليفة

الآن نرى من المناسب أن ندرس بعض روايات كاتبنا عبد الله علي خليفة دراسة تحليلية، ونقوم بإبراز ما فيها من الطابع الاجتماعي والثقافية، والخصائص الأدبية، والملاح الروائية، وما عليها من المآخذ والنقائص الفنية التي يديها الكتاب والناقدون في ضوء كتاباته، حتى نستطيع على إعطاء ما يستحق به أديبنا من الأهمية البالغة والمكانة الأدبية والروائية بين أوساط الأدباء والروائيين على مستوى البحرين، ودول الخليج، والعالم العربي.

رواية "اللآلئ" لعبد الله خليفة:

تشكل رواية "اللآلئ" نعمة خاصة في أعمال عبد الله خليفة، فهي الرواية الأولى له، وهي تعبر عن مجتمع البحر وصيد اللؤلؤ، وما يكتنف هذا العالم من مخاطر الغوص، والعلاقات التي تربط بين العاملين بالبحر، وممارسات أصحاب السفن، وجشعهم، وتسلطهم، ومظاهر القهر الاجتماعي، والتحكم الذي يفرضه (النواخذ) صاحب سفينة صيد اللؤلؤ على الرجال الذين يعملون على سفينته سواء كان ذلك في أعمال الصيد أم في تسيير دفة السفينة.

ومن خلال الحدث الذي يتنامى ويتصاعد في الرواية من موت صائد اللؤلؤ (مطر) بعد إصرار النوخذا على معاودة نزوله الماء مرة أخرى، ومحاولة الرجال المستميتة إقناع النوخذا بالاكْتفاء بهذا الصيد الثمين، مروراً بهذه الأم التي تدفع صغيرها ليعمل في الغوص بدلاً من أبيه المكبل بديون النوخذا، وكان البحر انتزع صيادا ماهرا للؤلؤ بعد رحلة حياتية شاقة، فدفع له البر المتمثل في هذه الأم بالبدل (الصغير) ليجدد دم هذا العالم المتميز،

عالم الغوص العجيب المثير. ويصور الروائي عبد الله خليفة إصرار الأم على عمل ابنها في عالم الغوص، غير مبالية بنظرات الرجال النهمّة، وبالمصير المجهول الذي ينتظر ابنها:

"فرغ الصغير، قام وعاد إلى مكانه. جاءت أمه وهي تجره وراءها. دخلت عليه في المجلس بين الرجال. تساءل: ماذا تريد هذه المرأة؟، تطلعوا إليها وإلى الصغير الذي اختفى وراء عباؤها. إن وجهها لم يزل جميلاً. وهذه عيناها وراء البرقع تنبئ بذلك. لم تزل تملك بعض الموارد حتى وزوجها مشلول"⁸.

وتبدأ رحلة الصيد والغوص وسط العواصف والأنواء والأمواج، ويصور الكاتب معاناة الرجال وصراعهم ضد الطبيعة الثائرة. وكذا هذا الصراع للنوخذاء وحرصه على لآله التي استخرجها من البحر. إنه لا يخاف الطبيعة بقدر ما يخاف ثورة البحارة عليه، إنه لا يخاف هذه الأمواج التي تعلو كالجبال، كما يخاف رجاله الذين يستغلهم أبشع استغلال، ويعرض حياتهم للخطر والموت في سبيل لآله المزعومة:

"بحث عن حزامه، ها هو ذا، سكب السائل البلوري على قطعة مخمل، تشع اللآلي كالنجوم. أدخلها في جيب منه. أحكم إغلاقه جيداً. بحث عن خنجره فوجده تحت وسادة. [لأستعد جيداً. هؤلاء البحارة مستريحون في فقرهم ونومهم وموتهم. وأنا علي أن أواجههم في يقظتهم وغضبهم]"⁹.

وفي خضم هذه العواصف يفقد النوخذاء الطفل الذي دفعته أمه إلى البحر ليتعلم فنون الغوص بدلاً من أبيه. لقد ارتطمت السفينة بصخرة كبيرة. ولكنها الحقيقة اصطدمت بالواقع الأليم، وبدأ الرجال رحلة المعاناة مع الطبيعة والصحراء والماء واللالئ والموت:

⁸ - رواية "اللالئ" لعبد الله خليفة، دار الفارابي، بيروت، 1982م، ص: 17.

⁹ - نفس الرواية، ص: 23.

"أين الرجال ؟ إنهم قطع خشبية تطفو في محيط صاخب ضار فهل تستطيع إمساك جذوره ؟ أين الرجال وهم ينهارون في قبضة العملاق ويتفتتون كرمال يابس ؟ تقدم إذا بغيت الهلاك. أين الرجال وهم يبحثون عن جحور يختبئون فيها ؟ الدفة قطعة خشب كعصا معلم أعمى. الرجال والدفة والظلام واللالئ والموت بانفجار الرأس والمراقبة طوال النهار، والركض حيث تولد اللؤلؤة، والسياط على الرجال، والدم الذي يتسرب واهنا... ، وأكوام المحار. أين الرجال وأحلام الآلات والدخان والحدائق. تعال الآن ليخرس هذا الفم إلى الأبد، تعال لتزرع عظامك فوق هذه الصخرة الشيطانية"¹⁰.

وتتحطم السفينة ولكن النوخذا يحتفظ بحزام اللالئ وينتظر على الشاطئ المهجور بينما أخذ الرجال في التنقيب عن الماء والطعام والأسماك الصغيرة في البحر.

وهذه إحدى خصائص البحريين الفريدة. وأحصى النوخذا خسائر الرحلة في الرجال فجاءت ثلاثة ومن بينهم الصبي. وقبعوا على رمال الشاطئ المهجور ينتظرون النجدة ويحتمون من البرد.

وتجوس كلمات الكاتب لتعترف من باطن الشخصيات حكاياتهم وأوشاقهم للأهل والزوجات. ثم يعارك الرجال الصحراء برمالها وشمسها عملا على الوصول إلى ميناء ينقذهم من الهلاك جوعا في هذا الشاطئ المقفر بقيادة الربان أو النوخذا الجديد من زملائهم الذي يعمل اللالئ والنقود، في حين يتحدث الجميع عن اللؤلؤ الضائع وعن المياه الآخذة في النضوب.

وفي وسط الصحراء التي تعبر عن الخواء النفسي للرجال الذين فقدوا هويتهم الخاصة تبدأ رحلة البحث عن الأمن والأمان وسط الرياح والعواصف والجوع والعطش، وينشط الصراع مرة أخرى بين الطبيعة

¹⁰ - نفس الرواية، ص: 28 - 29.

والإنسان، وبين الإنسان والإنسان - ويتوه أحد الرجال وسط إحدى العواصف الرملية - وتختفى اللآلئ - وينشط الرجال بحثاً عن اللآلئ المفقودة وكأنهم يبحثون عن جوهر الإنسان المفقود - جوهره الحقيقي المرموز له بهذه اللآلئ البراقة التي تشبه النجوم في السماء.

وأخيراً يعثر الرجال على اللآلئ مكان اختفائها - ويبدأ الصراع حولها وسط هذه الصحراء يحاول الرجال الاستيلاء عليها من النوحذا، ويقف كل منهم في مواجهة الآخر، وحولهم تقف الطبيعة بخداها وزيفها تهددهم جميعاً بأسلحتها المشهورة، الجوع، العطش، الرياح، الرمال، ويهدأ الرجال ويتدخل عقلائهم لإنهاء هذا الصراع، وتبدأ رحلة العودة إلى الأهل والزوجات وتبدأ ممارسات النفس البشرية وسط مظاهر اليأس والجوع، وتمثل جوع الماء بالنسبة لهم وكأنها ثروة كبيرة وتطول لياليهم الخاوية - ومعاناة الجوع والعطش تهددهم بالفناء - ويفقدون رجلاً ثم رجلاً وينفذ الماء حتى يصل بهم الأمر إلى مكان مأهول بالرحالة - فيقدمون لهم الماء والتمر ويعرفون بقصة اللآلئ فيحاولون الاستيلاء عليها منهم ثمناً لإنقاذهم من الهلاك - ويبدأ الرجال في مواصلة رحلة العودة إلى الوطن والأمان بعد أن فقدوا حماسهم للآلئ وسط هذا الصراع المصيري المميت.

الرواية مليئة بماخذ البدايات - كما أنها تتسم ببعض مظاهر الرومانسية بزخمها الشعاري ومجازها الخاص، واستخداماتها اللغوية التي تعبر عن هموم النفس ومعاناتها العاطفية وسط ممارسات الواقعية والدرامية التي تتعرض لها شخصيات الرواية - بدءاً من موت "مطر" أثناء الغوص في البحر، وفقد الصبي وسط الأمواج الثائرة، وحتى موت "حمد" في الصحراء أثناء البحث عن طريق العودة - وحتى منطلق الصراع كان دائراً بينهم وبين الطبيعة، وبينهم وبين أنفسهم كان هو الآخر يمثل قيمة رئيسية في نسيج

الرواية. كما أن صوت الراوي أو صوت الكاتب كان عاليا في ثنايا الرواية مما كان له أثر سلبي في تعميق الحدث وجعله يعبر عن نفسه من خلال مواقف الشخصيات وممارساتها الدرامية كما أن رسم الشخصيات كان مسطحا ووصف الأحداث كان يستغرق صفحات طويلة أكثر من اللازم مما كان له أثر سلبي على الإيقاع الروائي للحدث.

القرصان والمدينة

الرواية الثانية في عالم عبد الله خليفة الروائي هي رواية "القرصان والمدينة"، وهي تختلف اختلافا جوهريا عن روايته الأولى "اللآلئ" من ناحية الشكل والمضمون، ومن ناحية الرؤية والأداة، ومن ناحية الفكر والصياغة - فهي عمل روائي يعتمد في إدارته على اللغة ذات الدلالة اللفظية والمجازية، وعلى محاولة توظيفها في خدمة مجموعة من الممارسات النفسية لشخصيات هلامية تظهر وتختبئ وتتحدث وتمارس حياتها بكل وضوح من خلال الحدث الذي يشبه جبل الجليد العائم - تبدو قيمته على السطح، أما الجزء الأكبر منه فيختفي وراء السطور - الشخصيات التي تظهر في نسيج الرواية بعضها رتمه عال، وبعضها يكاد لا يكون حاضرا بالمرّة - فشخصية كامل المدرس الكاتب صاحب الفكر الأيديولوجي المحرك لمحور الرواية بكل أبعادها وإسقاطاتها ورموزها ومجريات الأحداث فيها - والزوجة الحاضرة الغائبة هي التي تطل من ممارساتها ظلال الحقيقة التي تعيشها المدينة المهترئة بزيفها وعبثها، وتمردها فهي تتكر على زوجها وصديقه الذي أتى معه جلوسهم على أثاث المنزل، بحجة أن جسدهم المليئ بالوحل الناجم عن مصر الطيق بينما هي ترتمي في أحضان الوحل غير عائبة بوجود زوجها وابنتها ندى التي تمثل الوجه البرئ الطاهر - كامل ينتشل نفسه من جدران بيته ويندفع مع طوابير مظاهرات مصنع الأسماك العملاق - الحدث في الرواية يعتمد على تداعي الخواطر وإلغاء الزمن وتيار الوعي والاستناد إلى الفعل ذي الدلالة اللفظية والتعبيرية، وكذا المونولوج الداخلي المعبر عن خواء النفس، وبحثها الدائم عن ذكريات تجترها وتدفع بها إلى لحظات الواقع كنوع من التعادل بين النفس والواقع. إن عبد الله خليفة يعتمد في روايته "القرصان والمدينة" على

تفتيت الكلمة والتركيز على اللفظ وكأنه عالم صغير، بحيث إنه يحاول أن يبرز طاقة الفعل ويجسده ويشكل منه لحظة مشحونة بالممارسات الحياتية الواقعية، وكما يقول إزرا باوند: "ما الأدب العظيم إلا لغة مشحونة بالمعاني إلى أقصى درجة"¹¹. الرواية تصف: "تمضي، والمقبرة لا تنتهي والحب ومضة تتحول في القلب إلى جذوره، أو لعبة لإنتاج الأبطال - الرصيف لم يعد خالياً، ظهر عشرات الرجال فجأة بل مئات تدفقوا من استاد رياضي أو سينما أو المقبرة ذاتها، تدفقوا وملأوا الرصيف والشارع لغات شتى وهي تمضي بكبرياء تدخل في الزحام اتفقوا وأبعده إلى الجدار، امتلاً كتفه بالتراب وأحس بالضغط الشديد، عيناه تبحثان عن الشعر الأسود والبلوزة الزرقاء كالسماة الربيعية داس أحدهم على قدمه فتألم بصوت مسموع، إلا أن الدائس مضى ولم يعتذر"¹².

كما اهتم عبد الله خليفة في هذه الرواية أيضاً بهروب الشخصية من واقعها - من الزمان والمكان، من الثابت إلى المتغير، من الوعي إلى اللاوعي - عبر عن ذلك بتداعي الخواطر وتيار الوعي الذي يعتمد على مجموعة من الأحداث المترابطة في بناء عضوي يؤدي إلى دلالة خاصة يحكمها الموقف الدرامي للحدث، لذلك نجد أن عبد الله خليفة يعتمد في روايته على إغفال عنصر الزمن، وبالتالي الابتعاد كلية عن مكانية الحدث - وترك الحدث نفسه ينتقل داخل شخصيات الرواية في تلقائية وعفوية تملئها عليها دلالة الموقف - فعند ما يتهم كامل زوجته بالخيانة لأنه رأى سيجارة في المطفأة نراه ينتقل فجأة ليصافح الأكواخ ويحتسي القهوة في الدكاكين، إن عملية الانتقال من الثابت إلى المتغير داخل وعي الشخصية يضع هذه الشخصية داخل إطار محدد بحيث تظهر ملامحها وتستحيل مكوناتها إلى رمز ودلالة،

¹¹ - د. طه وادي، "الرواية السياسية"، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، 1996م، ص: 170.

¹² - رواية "القرصان والمدينة"، لعبد الله خليفة، بيروت، دار الفارابي، عام 1982م، ص: 67.

إن زوجته التي ترمز إلى المدينة التي يتهمها بالخيانة التي تلفظه بعيداً، وتتهمه بالعمالة والفساد هي الوجه الآخر المعبر عن زخم الحياة في المدينة، إن الزوحة أو المدينة هي رمز للعهر - ورمز للتصل من الانتماء إلى الواقع والبعد عن أدق المقدسات: "البيت مظلم لابد أنها نائمة - أشعل النور، ولم يزل الصمت عميقاً، فتح غرفة النوم، كانت فارغة، فتح غرفة ندى فوجدها نائمة لوحدها، لو أنها جلست فجأة لأصابها رعب في هذا الظلام، هل هربت؟، هل اختفت؟، فتح مرة أخرى غرفة النوم، الملابس كلها هناك، النظام يسود مخدع الأحلام المقفر.... كان كل شئ رائعاً قبل ساعات - قبل يديها وحضنها في صدره - كانت ترتجف من الانفعال، الكآبة والعزلة والخوف كلها انفجرت في لحظة مباغتة - اقترب منها - أحس بها امرأة معادية، كل الماضي الجميل أشلاء - الغد أذية مهترئة، زحف تحت قدميها، صدره اختنق بموج متلاطم، تصور نفسه شحاذاً يسأل هدوءاً وحباً، بدت الزاوية التي تكمن فيها بعيدة، وهو يقبل يديها - تستطيعين أن تحيلي حياتنا إلى جحيم - تستطيعين أن تحولي ندى إلى جثة - البعد والحزن الغريب الذي نما في عينيها، التأنيب الذي استعر وحده جعلها تتحول، تحضنه بقوة وتبكي بنشيج مرير"¹³.

لقد عبر عبد الله علي خليفة برواياته "القرصان والمدينة" عن زخم الحياة المعاصرة، والحضارة المهترئة - واستطاع بمعمار هذه الرواية التي تختلف جوهرياً عن روايته الأولى "اللألى" أن يوطد أقدامه في عالم الرواية، وأن يؤصل معطيات الحداثة في بواكير الرواية البحرينية، وأن ينتقل في ثاني أعماله الروائية من محور الواقعية إلى محور الرمز، وأدوات الحداثة مستلهما أيديولوجيته الخاصة في التعبير عن هذا الواقع، وموحياً إلى التابع

¹³ - رواية "القرصان والمدينة"، دار الفارابي، بيروت، عام 1982م، ص: 103.

في رسم ما يدور داخل مصنع السمك الكبير الذي كان دائما عرضة
للمظاهرات والاضطرابات غير المعروفة.

الهيرات

رواية "الهيرات" لعبد الله خليفة هي الرواية الثالثة له - وهي عودة مرة أخرى للتعبير عن البيئة الاجتماعية في عالم البحر والغوص - ولكن من خلال سلسلة من الصراعات بين رجال البحر وطبيعة المهنة التي تعتمد أحياناً على السخرة، وعلى تحكم النوخذا في البحارة - تماماً كما عبر عبد الله خليفة في روايته الأولى "اللآلئ" عن الصراع بين الطبيعة والبشر في البحر والصحراء - وترصد الموت لمجموعة من البحارة، وعلى رأسهم النوخذا من أجل اللؤلؤ والثروة.

إذا قمنا بدراسة روايته الثالثة "الهيرات" وجدناها تصور مجتمع الغوص بأزماته ومشاكله ومعاملاته - والهيرات هي مغاصات اللؤلؤ - تجيء إليها السفن لصيد اللؤلؤ بينما هناك سفن أخرى وقوارب يقودها "الطواشين" تسعى إلى سفن الصيد لتشتري اللؤلؤ الحر.

يبدأ الكاتب روايته بسفينة السيد أحمد التي تسرع بكل ما تستطيع إلى الهير للحصول على اللؤلؤ - كانوا أربعة بحارة وصييا ورجلا عجوزا - البحارة يجدفون بقوة والصبي في مؤخرة السفينة يستعد لخدمة النوخذا كلما ألمح له بذلك - والرجل العجوز يمسك الدفة.

كل من يعمل على السفينة تتداعى خواطره، ويجتر ذكرياته مع نفسه، ومع هذا البحر الوحشي الكبير الذي لا يعرف الرحم - ويستخدم عبد الله خليفة في روايته أسلوب تيار الوعي في إدارته لها، كل شخصيات الرواية تغوص في أعماق لتحدد لنفسها مكاناً على وجه هذه البسيطة - وتحدد شخصيات من خلال هذا التداعي الذهني - ويتضح إصرار النوخذا على اللحاق بهذه الصفقة قبل غيره ليحقق من وراءها ربحاً وفيراً يسد به نهمة إلى المال واللؤلؤ - كما يلقي الروائي الضوء أيضاً على جزء هام من قانون التمرد في

البحر - فالنوخذا هو الحاكم بأمره في عرض البحر، نجد ذلك حينما يتمرد أحد البحارة فيربط في صاري السفينة بعد أن يجلد للتجرؤ على محاولة حرق السفينة، والتطاول على النوخذا أثناء عملية الصيد - وعملية صيد اللؤلؤ من الأعمال المقدسة التي يحرص عليها النوخذا، كما يحرص عليها البحارة - فهي لها طقوسها، واحترامها، وقديستها، ولا يسمح لأي من الرجال أو البحارة المساس بها بأي حال من الأحوال.

يصور عبد الله خليفة تفاصيل وقائع عملية صيد اللؤلؤ من الهيرات - فالسيد أمجد النوخذا "يرفع منظاره ويوجهه نحو بقعة ما في حين أوامره لرجاله لا تتوقفوا جذفوا نرجو أن نصل، اقتربت الطريدة والصيد يستعد - أدوات خزينته الحديدية تتكدس فيها الأوراق المالية، وطاسات اللؤلؤ، والابتسامة الممتدة على طول الفم، والكلمة الناعمة المتسائلة من القلب - جذفوا ولا تتوقفوا إلا عند الهير- يريد أن يسابق التجار الآخرين - وجهه اكتسى بالقلق والترقب، وعيناه تحدثان في الشمال"¹⁴.

في حين يوصي الصبي "حمدان" خدمة السيد النوخذا بصيد سمكة وشيها وتقديمها له وكأنه يواصل الخدمة في البيت الكبير الذي دفعته أمه إليها دفعا - ويفكر الصبي في مخاوف أمه من هذه الرحلة البحرية - كما نتعرف على عديد من الشخصيات في عالم الغوص مثل "سيف بن ناصر" الذي مات أبوه قبل سنة وترك له تجارة عامرة - هذه السفينة، وهذه الجزيرة، وعدة مصائد وقوارب، وأراض وبيوت - وتبدأ المساومات، المال باللؤلؤ - ويحاول كل تاجر مع الآخر، بينما البحارة يشحنون ذهبنهم في العودة إلى الزوجات والأهل حيث الدفء والحنان - وحين تقترب السفن من بعضها يسأل البحارة بعضهم البعض عن ذويهم وأحوالهم - وينتدرون ويضحكون،

¹⁴ - عبد الله خليفة، رواية "الهيرات"، 1983م، ص: 164.

بينما في أعلى السفينة يجلس النوحذا يساوم زميله على صفقة اللؤلؤ الذي يمثل شريان الحياة لهم جميعا.

وأخذت تظهر ملامح التغيير من مجتمع البحر واللؤلؤ إلى مجتمع المدينة والمكاتب - حين يبدأ ابن النوحذا المتعلم في إقناع "الصبي حمدان" في تعلم القراءة والكتابة.

ويرصد الروائي عبد الله خليفة التحول من مجتمع الصيد والغوص إلى مجتمع التجارة والوظيفة والمدينة. بينت الرواية "شخصية النوحذا في "اللؤلؤ" - كما كانت في "القرصان والمدينة"، كذلك كان لاستخدام تيار الوعي بكثرة في أعمال عبد الله خاصة في رواية "القرصان والمدينة" أثره السلبي لحاجة هذا اللون من القص إلى درجة وعي كبيرة بحقيقة الشخصية، والموقف الذي تعبر عنه هذه الخاصة - في هذا الصدد يقول الناقد "روبرت همفري": "إن كاتب تيار الوعي ككل الكتاب الجادين لديه ما يقوله - إحساس ما بالقيم يود أن يقدمه إلى القارئ - ومع ذلك فإنه على خلاف الكتاب الآخرين يختار العالم الداخلي للنشاط الذهني الذي يجعل فيه من تلك القيم قيمة درامية - لكن النشاط الذهني شيء خاص، وينبغي أن يقدم باعتباره شيئا خاصا، وذلك لكي ينال الكاتب ثقة القارئ ونتيجة لذلك كان على كاتب "تيار الوعي" أن يفعل شيئين - أولهما أن يقدم النسيج الحقيقي للوعي، وثانيهما أن يستخرج للقارئ معنى ما في هذا الوعي - وذلك يشكل معظلة بالنسبة للكاتب، لأن طبيعة الوعي تحتوي على إحساس خاص بالقيم - وعلى ألوان خاصة من التداعي، وعلى صلة خاصة متصلة بذلك الوعي، ومن أجل ذلك كان لغزا بالنسبة لأي وعي آخر خارجي"¹⁵. ولم تكن المواقف التي نسجها عبد الله خليفة في روايته "القرصان والمدينة"

¹⁵ - روبرت همفري، "تيار الوعي في الرواية الحديثة"، ترجمة: د. محمود الربيعي، دار المعارف، القاهرة، ص 45.

والشخصيات التي عايشت هذه المواقف تتناسق في تداعي خواطرها، بل أحيانا كانت تبدو بعض هذه المواقف وقد شابها الغموض - واتسمت بالضبابية - نجد ذلك في شخصية "ناصر" في "اللآلئ" و"كامل" في "القرصان والمدينة" و"حمدان" في "الهيئات"، ومواقفهم النفسية التي تداعت لها خواطريهم، ونشط لها ذهنهم، نجد أنه من خلال ذلك قد استكانوا إلى واقعهم وهم يحاولون تلمس الحقيقة المرتبطة بالصراع الذي يدور داخلهم وخارج ذواتهم.

أما اللغة التي استخدمها الروائي في رواياته فإنها تمثل سمة تعبيرية رئيسية - فقد اهتم عبد الله خليفة باللغة القصصية اهتماما كبيرا، وأعطاهما ما تستحقه من الجهد والمعاناة، بحيث يعرف المتتبع لأعماله القصصية والروائية أن اللغة تشارك في بطولة هذه الأعمال مشاركة فعالة، كما أن مستوياتها الفنية في تلك الأعمال تبدأ من اللفظة والمفردة والكلمة، ثم تسير إلى الجملة التعبيرية ذات الدلالة، ثم إلى السرد الفني ذي النسق الخاص، كما نجد أن عبد الله بجانب احتفائه بمستويات اللغة يحتفي أيضا بتفتيتها بإعطاء الألفاظ دلالاتها بالمناسبة لها في موقع وجودها، ولعل الومضات اللغوية التي استخدمها الكاتب، وسرعة إيقاع الكلمات، والملمس البصري الذي تتميز به كل كلمة، وكل مفردة جعل الصورة التعبيرية في أعمال شتى بما تريد وتسجل الموقف فحسب - كما جعلها توحى ولا تصرح:

"الليل وعطرها الذائب في الجسد، وساعات من الوحشة مرت ولا نشوة فرح، احتواها بحنو وهي صامئة، ساكنة منطلقة بعيدا عنه، قبلها في خدها، وفمها، ارتعشت، وهو يمشط صدرها بدورية دائبة - أين هي الآن؟ ينبغي أن تطلع من البحر كالجنينة، ينبغي أن تتحطم هذه الحواجز الغريبة، تحركت أصابعها قليلا ولمست ظهره - إنها لا تريد طفلا جديدا، تبلى الحبوب

بانظام، لكن الضجر أو الكرة، أو الطفل، يمنعها عن الرغبة - لم لا تزال عاطفته متأججة؟ كيف واصل طقوس عبادتها طوال هذه السنين؟ ناهاها بود وهي تبدو كقالب الثلج، سقطت يدها على الفراش، قد تنام في أية لحظة - حين التقى بها في الشارع، لم يستطع أن يتكلم - حين نظر في عينيها وتلعثم - ضحكت في وجهه - كانت السماء شاحبة، وريح نابضة بالشهوة تداعب الفساتين والشعر"16.

في هذا العالم الثري الخصب من السرد وبواكير البدايات الأولى لعالم الرواية في البحرين استطاع عبد الله خليفة باعتباره أحد رواد هذا الحقل من حقول السرد، وأحد كتاب الرواية المتميزين في منطقة الخليج، وأحد الروائيين العرب الذين عبروا عن مجتمعاتهم بصدق وتميز - أن يضع إضافات متميزة في مسيرة الرواية العربية وأن يجعلنا نضع أيدينا على علامات لها موروثها الخاص، وخصوصيتها الموروثة من صلب منطقة متميزة في الوطن العربي الكبير.

16 - عبد الله خليفة، رواية "الهيرات"، عام 1983م، ص: 83.

أغنية الماء والنار

لا تزال الحركة الأدبية في البحرين حركة شابة، وغير معروفة على نطاق واسع في الوطن العربي، ربما باستثناء شاعرها الكبير قاسم حداد، وجزئياً حمدة خميس وهي شاعرة متميزة تقيم الآن في الإمارات، ثم الكاتبة ظبية خميس التي أقامت سنوات طويلة في لندن وباريس وساهمت بإصدار مجلة "أوراق" الأدبية، وهي شاعرة أيضاً. أما في مجال الرواية فلعل الكاتب البحريني عبد الله علي خليفة هو أول روائي يعرف في الوطن العربي، وربما بسبب إقامته الطويلة في دمشق، حيث أصدر من هناك روايته "أغنية الماء والنار"، ليلقي من خلالها الضوء على جوانب من الحياة في قطر جديد من الأقطار العربية، وخاصة تلك التي يجهل كثير من المواطنين العرب من أنشطتها الثقافية والأدبية.

فنتناول روايته "أغنية الماء والنار" وقائع الحياة اليومية لفئات اجتماعية فقيرة وبائسة تعيش على هوامش الحياة وفتات الأغنياء، تماماً كما يعيش الحي الذي يقطنونه في قرية ساحلية على أطراف المدينة.

ما من شك أن البحر هو مصدر الحياة الأول، ويكاد يكون الوحيد للسكان في هذه المنطقة، وهذه الصورة نجدها تتكرر في العديد من الأعمال الروائية في دول الخليج، كما هو الحال في "وسمية" لليلى العثمان، و"تل الصنم" لعلي أبو الريش.

غير أن الفقر الذي يطحن الناس ويفسدهم بوعود الأغنياء يجعل فئة منهم يتصلبون في مواجهة الجوع والخديعة، ويمضون في طريق الكفاح لإزالة قوى الاستغلال والشر، وتحقيق العدل بين الناس في المجتمع.

لكن عبد الله خليفة، الذي يضم كل هذه المعاني والقيم في روايته، لا يفصح عنها أو يقدمها بطريقة تقريرية أو خطابية، بل يجعلها تتسلل بهدوء

خلال ثنايا العمل الفني بلغة شاعرية وبأسلوب سردي هادئ وممتع، مما يؤكد الحقيقة الثابتة بأن أعظم الأفكار وأكثرها ثورية وحماسة، يمكن التعبير عنها بأرق الأساليب وأنعم الكلمات، ولعله هنا بالضبط يكمن الفارق النوعي بين الفن الجميل والخطاب السياسي.

يلعب دور البطولة في رواية "أغنية الماء والنار" سقاء فقير اسمه "راشد"، ووظيفته هي أن يحمل دلاء الماء إلى البيوت ليجمع في آخر النهار دريهمات قليلة لا تكفي لملى معدته بالطعام، فيقضي ليله قلقا متقلبا وضجرا بانتظار يوم جديد ليس أفضل من سابقه.

هذه المعاناة اليومية التي يعيشها راشد يخفف عنها حبه للغناء وقص الحكايات للأطفال ومساكسة النساء. وكان يمكن للحياة أن تستمر على هذه الوتيرة بآلامها الكثيرة وأفراحها القليلة، لولا أن أخبارا بدأ تتسرب عن إيصال المياه إلى البيوت مباشرة بواسطة أنابيب غريبة تمر من تحت الأرض ثم تتدفق داخل البيوت بواسطة الحنفيات.

هذه الأخبار تصيب راشدا بالرعب، فهو لا يتقن عملا آخر غير مهنة السقاء، ثم إنه لم يتعلم في المدارس ليحصل على وظيفة في شركة النفط.

صار لزاما على راشد أن يبحث عن بديل لعمل السقاء، ولأنه لا يجد حلا لهذه المشكلة الكبيرة فإنه يستعيز عن قسوة الواقع بحلاوة الأحلام، فيتخيل بأنه سيجد مهنة جيدة، كما يحلم بأنه سيتمكن من إغراء "زهرة" بالحب لتقبل به زوجا، ثم إنه يحلم ببيتا جميلا مبنيا من الحجر وتدخله الكهرباء والماء ويمتلئ بالأطفال، كم ستكون الحياة سعيدة آنذاك.

ولكن راشد في واقع الحال لا يجد عملا، أما زهرة التي يميل إليها لا تلتفت إليه، بل إنها تميل إلى صاحبه جابر، وقد سمعها في إحدى المرات تمارحه ضاحكة وهي تعتذر إليه بالتأخير في اللقاء:

"لا تحقد علي الآن، كنت طوال هذه المدة أذكرك وأتعذب"¹⁷. فيكون راشد أن يمتلئ به صدره بالغیظ والحقْد على كل ما في هذه الحياة من قهر وقسوة وخيانة.

هذه الحالة التي وجد راشد نفسه فيها دفعته نحو الإدمان على الخمر الرخيص لينسى بؤس الواقع الذي يعيش به، كما دفعه رفض "زهرة" له لكي يقيم علاقة مع إحدى المومسات، مضحيا بآخر ما يمتلك من دراهم. إن حالة الانهيار والانحطاط التي وصلها راشد شكّلت، كما سنرى، المقدمة الضرورية لارتكاب المزيد من الآثام والشرور، فإذا كان طريق العمل الشريف والنظيف مغلقاً فإن سكة الشر والجريمة دائماً مفتوحة، وقد تهيأ راشد للمسیر بها.

في طرف المدينة ثمة بيت حجري كبير بنوافذ واسعة، وهو البيت الوحيد التي دخلته الكهرباء فحركت فيه المراوح، هذا البيت هو الصورة التي حلم راشد طويلاً بامتلاكها، خاصة وأن في هذا البيت تقطن سيدة وحيدة على درجة عالية من الجمال والغنى وكأنها خارجة من إحدى حكايات ألف ليلة وليلة... امرأة فاتنة ساحرة، شعرها الأسود يصل إلى أصابع قدميها، ويقال إنها لا تشرب إلا بكؤوس من الذهب الخالص، وتحكي عن حياتها الأساطير. أخذ راشد يحوم حول هذا البيت، يقترب من النوافذ ليسترق النظر إلى عوالم البيت الداخلية، وليلي نظره بسيدة البيت الفاتنة.

تلاحظ سيدة القصر تردد السقاء على بيتها وتجوله المستمر حوله فتستدعيه لكي يجلب الماء لبيتها، ثم لا تلبث أن تعجب بفتوته وبإمكاناته للعمل، وبتعلقه الشديد بها، وباستعداده لتقديم أية خدمة لها فتقربه أكثر وتعينه ليحل مكان السائق العجوز، ثم يرتقي في وظائفه ليعمل جابياً لأموالها، ويقوم

¹⁷ - عبد الله خليفة "أغنية الماء والنار"، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1988م، ص: 93.

بعمله بهمة وحماسة دون رحمة بأحد، حتى بأقرب الناس إليه، وعلى الرغم من معرفته لأوضاعهم البائسة، فالمهم بالنسبة له هو رضاء السيدة.

كانت سيدة القصر تراقبه بتلذذ وهو يندفع لتنفيذ رغباتها، على أمل الوصول إليها، على الرغم من أنها تزوجت من رجل غني.

تقول زهرة عن حياتها القاسية التي عاشتها في أيام ماضية: "عشت في قسوة طويلة، حين اغتصبني الشيخ الثري وأنا صبية كرهت كل شيء كرهت الناس، كرهت أبي الذي كنت أحبه كثيرا. بدالي عاجزا ضعيفا وكنت أتصور أنه عملاق يصل إلى السماء. لم أشعر بأي لذة. لم أفكر بعدها إلا أن أملك وأملك"¹⁸.

لقد تغيرت حياة زهرة إلى درجة حولتها إلى وحشي حقيقي ليس لديه مانع من أن يلتهم حتى لحم أخيه الإنسان... فتخطط لإيقاء راشد بحبائلها لكي ينفذ لها مآربا بعيدا يلبي نهمها الشديد لتملك: ألا وهو حرق أعشاش الفقراء وبيوتهم حتى ولو التهمت النيران نصف ساكنيها.

ففي أحد الأيام استدعت السيدة راشدا وقالت له وهي تسلط تأثيرها الحارق عليه:

"إنني متضايقة من هذه الأكواخ، هل تخلصني منها؟"¹⁹.

ثم تضيف وهي تمنحه نظرة شيطانية مليئة بالوعود: "صفيحة من البنزين وعود ثقاب؟"²⁰. في هذه الأكواخ البائسة، التي كان يجمع أجرتها للسيدة، يقطن أعز الناس عليه، صديقه سالم وجارته فاطمة التي طالما عطفت عليه وهيات له الطعام أيام الجوع والفقر. ولكنه لا يبالي، فيقدم على إحراق هذه الأكواخ معرضا حياة من فيه للخطر، من أجل مصلحته الشخصية. من هنا نجد سكان الحي يقرعون راشد وينفضون من حوله ويقاطعونه، قد يجد

¹⁸ - عبد الله خليفة، رواية "أغنية الماء والنار"، ص: 125 - 126.

¹⁹ - المصدر نفسه، ص: 43.

²⁰ - أغنية الماء والنار، 1988م، ص: 44.

طفلا يلاحقه أو صبية تتجاوب مع غزله أو صديقا مثل سالم أو جارة طيبة مثل فاطمة، ولكنهم، وعلى الرغم من هذه المقاطعة لراشد ورفضهم لتوبته، فإن غضبهم الحقيقي يظل موجها نحو سيدة القصر التي تتحمل المسؤولية الأساسية عن كل ما حدث، حتى إفساد راشد نفسه. إن الوصول إلى هذه الاستنتاجات النفسية والذهنية بالنسبة لواقع الرواية ما كان بالإمكان الوصول إليها لولا توافرت خاصيتان متلازمتان لدى الكاتب:

الأولى: إخلاص عميق للعمل الفني، وترك شخصيات الرواية تنمو وفق شرطها الاجتماعي التاريخي، وكذلك وفق مكوناتها الذهنية والثقافية والنفسية، وبهذا يمكن بالفعل أن تتشكل شخصيات حية وحقيقية ومقنعة، وليست شخصيات مصنوعة بوعي بارد يخططه الكاتب.

أما الخاصية الثانية التي أوصات هذه الرواية إلى النجاح، فهي الالتزام الواعي للكاتب وقدرته على قراءة مكونات البنية الاجتماعية والاقتصادية، وانعكاسها على وعي الناس وسلوكياتهم وخياراتهم.

إن مثل هذا الإخلاص الفني والالتزام الواعي يجعل الكاتب يرى، بصورة شديدة الحساسية والنفاد، مواقع الناس وظروفهم وفق استحقاقات المختبر الاجتماعي الموضوعي فيه، ودون أن يكونوا مجرد آلات أو أدوات منفذة أو خاضعة.. فثمة إرادة عند الإنسان عليه أن يستخدمها إذا ما أراد تغيير شروط حياته الاجتماعية والتاريخية.

إن رواية عبد الله خليفة "أغنية الماء والنار" تنقلنا بحميمية وعفوية لنتعرف على جانب من حياة الناس في البحرين، لتضيف لنا ثقافة معرفية جديدة، ولكن قبل ذلك لكي نحصل على متعة فنية مذهشة استطاعت هذه الرواية تحقيقها بجدارة.

ذهب مع النفط

تتهل رواية "ذهب مع النفط" للروائي البحريني عبد الله خليفة، من الواقع العربي، في الخمسينات والستينات، وما أفرزته الثروة النفطية في دول الخليج العربي من تشكيل لأشكال الحياة، وما فرضته من تعامل وعلاقات بين الناس في هذه البلدان، كعلاقتهم بالفكر السياسي، وكذلك فهمهم المزدوج لهذا الفكر، والتباس الكثير من العلاقات بين السلطة السياسية والفرد، طوال تلك العقود من القرن الماضي بسبب الحرب الباردة، السابقة بين القطبين العالميين، القطب الاشتراكي والرأسمالي، وانعكاس ذلك الصراع على منطقة الخليج العربي، باعتبارها مركز الصراع العالمي على الثروة النفطية، وخضوع المعسكرين للمفهوم الاقتصادي - السياسي الكلاسيكي المتعارف عليه: من يضع اليد على منطقة الخليج من المعسكرين، سيضع خصمه تحت رحمته إن شاء خنق اقتصاده، وإن شاء أطلق له آفاق التطور والحياة والرفاه الاقتصادي.

تقنيات الرواية:

تنتمي تقنيات الرواية، إلى ما تعارف عليه النقاد رواية السيرة الذاتية، فالروائي عبدالله خليفة مع بطله الرئيسي في رحلة كشف، مستمرة من خلال فصول قصيرة، تستخدم فيها كل وسائل الروي، الدايولوج والمولوج، الذي يستخدمه بطريقة مؤثرة في العمل، حيث يكون "للمنولوجات الذاتية والنقل المباشر، ويكون تأثيرها القوي عندما تستخدم طرائق البوح الشخصي لصالح رسم منسجم ومتناغم للشخصية بين صوت السارد، وصوت أناه في الماضي، وبصيغ تمهيدية تنزاح عن الصيغ المألوفة، ويتراكب منظوراها لما هو قادم من العالم الخارجي وبصيغ تركيبية غامضة أو غير مكتملة والعالم الداخلي للشخصية، وكذلك الوصف الصوري السينمائي والسرد

الذي ينتمي في بعض فصول الرواية المؤثرة، إلى الرواية الفرنسية الجديدة، التي بدأها الآن روب غريبييه، والروائية فرانسوز ساغان وغيرهما، حيث الوصف الشئني، لما يحيط بالبطل من أشياء، لرسم الأجواء النفسية، وتحولات الواقع حول الأبطال، ورصد تلك التحولات من خلال سيرة الشخصيات المحيطة بالشخصية الرئيسية المحبطة بصنيعها في هذا العالم، حيث يتحول السارد، من خلال الحوار مع الذات إلى واصف أيضا لباقي الشخصيات، ومتحدثا باسمهم، وبالرغم من استخدام الكاتب الوصف الواقعي والشخصيات والأحداث الواقعية، يصل في نهاية المطاف إلى ما نسميه بـ "الكذب الروائي" (Fiction novelist)، ومتهات الرواية اللاواعية، خصوصا في وصفه لكارثة لم تحصل في الواقع، ولم تسجل من قبل كحدث تاريخي في المنطقة العربية، من خلال الغرق الكلي لدولة عربية بكامل شعبها في البحر، والتي يتحدث عنها الكاتب في روايته، وأن الانتقال من واقعية نقدية، إلى الرواية الفنتازية، ورواية الواقعية السحرية، التي اشتهر بها كتاب أمريكا الجنوبية كأمثال أستورياس، وبورخس، وماركيز وغيرهم، هي محاولة من الكاتب لتعميم النموذج الذي طرحه في روايته، وجعله شموليا لا ملامح وطن خاص له، أو لما حدث على أرضه من أحداث واقعية في متنه الروائي.

عنصر النفط في الرواية:

يضعنا اسم الرواية في تماس مباشر مع الحدث الرئيسي للرواية، بل إن اسم الرواية هو العتبة الحقيقية للمتن الروائي، حيث تضعنا هذه العتبة أمام أسئلة عديدة منها، من هذا الذي ذهب مع النفط؟ هل هو الوطن الذي غرق تحت البحر؟ أم شاهين وهيمنته السلطوية، الذي يوجه رسالة صوتية في نهاية الرواية من منفى أوروبي بعيد؟ أم ذهاب ذكورة سلمان أثناء التعذيب، خلال

فترة اكتشاف النفط، وذهب هذه الذكورة يعني بمفهومها الشرقي للذكورة، ذهابا بيولوجيا للشخص المعني في العمل الروائي؟ تبدو صفحات الرواية الأولى من "ذهب مع النفط" توطئة لعمل روائي طويل، يحكى عن فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضي ليحكي لنا عن علاقة المواطن العربي، الأكثر وعيا، بحكومته المحافظة في ظل صراع دولي مصيري بين الشرق والغرب، حول (النفط) الثروة الاستراتيجية، التي اعتبرت السبب الأول في عدم استطاعة الألمان ودول المحور الفوز في الحرب العالمية الثانية (1939 — 1945) لافتقارهم لهذا المنتج الاستراتيجي بكميات كافية، والتي اختص الله بها الوطن العربي بوفرة، حيث بدأت أولى حقوله الأكثر غزارة في العالم في منطقة الخليج العربي تكتشف في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، ليكتشف بعد ذلك بعقدين في مناطق أخرى من الوطن العربي.

"التماثل والاختلاف بين روايتي "ذهب مع النفط" و"التماثل" لعبد الله خليفة : في صفحات (التوطئة) من الرواية، نجد سلمان أحمد سلمان الضحية السياسية، والمعتقل السابق، والذي أغدق عليه الوضع الاقتصادي النفطي الجديد، مميزات الرفاه المعيشي، لا يزال غير سعيد بل ومهددا وجوده بسبب تطرف ابنه الديني، والرواية تبدأ بمغزى هذا الابن، وضياح الأب في أحزانه وإدمان الشراب ومفردات الرفاه الجديد، الذي يحتقره سلمان في دخيلته أشد الاحتقار، لكنه يعيشه بكل تفاصيله اليومية:
"التلفزيون أخرس. الخدم يمشون على رؤوس أصابعهم . الفضاء أسود. الريف المليئ بالفلل والقصور والحدائق، ذي الأنوار الساطعة، لا يراه"²¹.
ويقول معبرا عن ذلك الرفاه الموجع للرأس: "ويحاول أن ينهض لكنه لا

²¹ - عبد الله خليفة، رواية "ذهب مع النفط" الانتشار العربي، بيروت، لبنان ط1، عام 2010م، ص: 5.

يستطيع، ويتذكر حشد الخادمت اللواتي كن فئات متعددة بعضها يطبخ وبعضها يغسل وبعضها يتلوى على السرير. الآن عليه أن يدفع فواتيرهن المتأخرة وتكاليف إجازتهن"²². ويصف منصور صديق سلمان: "الأستاذ الكبير سلمان أحمد سلمان الذي كتب المقالات والأبحاث عن الفقه والعقل وأصول المحاكمات والقانون الدولي ينهار، ويترك العزاء ويشرب ويشرب بدون خروج؟" وبالرغم من كل هذا الوصف إلا أن سلمان لا يشعر بالأمان الاقتصادي "فالمبدع أو المفكر الذي يعيش في المجتمع أو الأسرة ويطلب منه العون والرعاية الصحية والمادية لنفسه وأسرته أو لمن يعول، ولكننا لا نجد على مر التاريخ البشري والعربي خاصة إلا حفنة معدودة من المفكرين والمبدعين استطاعت أن تستمد من هذه المهنة كفايتها المادية"²³.

ويقول عنه سلمان للتعريف بصديقه: "هذا منصور يعرفه ولا يعرفه، استحما في بركة السجن واصطادا السرطانات للعشاء المحاصر وراء الأسلاك وحين خرجا ظل منصور يعلق الجمل نفسها، ويدخن الشيشة كل يوم"²⁴.

ويشعر القارئ من بداية متن الرواية وحتى نهايتها بالضياع مع سلمان، إذ يضع الروائي بين أيدينا شريحة اجتماعية متكاملة من الطبقة الوسطى، التي عانت شظف العيش قبل اكتشاف النفط، ثم تغيرت حياتها بعد اكتشافه، ليصير العمل السياسي هدفها، وهي تبحث عن أجوبة لمعنى أن تحيا، وهي في تصادم مباشر ومستمر مع من يمثل رجل السلطة، في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، الذي يمثله المسؤول الحكومي شاهين، السياسي الذي لديه نفوذه السلطوي، وتجارته، ووضع المميز في المجتمع، وقتذاك، وشخصيات أخرى مركزية في الرواية كفريدة زوجة سلمان، وابنه

²² - المصدر نفسه، ص: 7.

²³ - د. عبد الستار إبراهيم، "الحكمة الضائعة - الإبداع والاضطراب النفسي والمجتمع -"، عالم المعرفة 228، الكويت، 2002م، ص: 116.

²⁴ - رواية "ذهب مع النفط"، ص: 8.

أحمد، وأبو سلمان عامل الصباغة، الذي يموت وهو بكامل صحته بسبب سوسة نخرت خشب السلم الذي يعمل عليه، فسقط وهو يتسلق درجاته من شاهق في أحد الأيام، فاقتدا حياته، وأم سلمان التي يصيبها مرض السكر، ويجعلها شبحاً ثقيلًا، وهي تدور على كرسيها في أنحاء البيت، رابطة بوجودها السينوغرافي في الرواية عصر ما قبل النفط وأخلاقه وأساليب تفكيره.

التصالح مع الماضي:

لم تبق شخصية سجين "شرق المتوسط" رواية عبد الرحمن منيف وحدها تمثل بشاعة حياة السجن السياسي العربي في المعتقل، بل جاءت هذه الرواية لتضيف نموذجاً آخر أكثر تأليماً للوجدان، والضمير الإنساني، فقد أضر التعذيب والمعاملة القاسية في السجن بطل رواية "ذهب مع النفط" كثيراً حتى أنه خسر رجولته، ولم تفد بعد ذلك كل ما حاوله البطل لاستعادة هذه الرجولة من زيارة مكوكية للأطباء، ووصفات الدواء المختلفة: "الآلام مضيئة والأسئلة والدهشة أكبر منها، لأن ما فعله لا يستحق كل هذا العنف، بضعة اجتماعات وبيانات في اتحاد الطلبة في الخارج. لكن الرجلين كانا مستميتين في تمزيقه، الضربات على الخصيتين كانت مروعة، سقط بعدها وخيط طويل من الدم كان ينهمر من قضيبه"²⁵. وينقل لنا الراوي الصورة الكالحة التي بناها المعتقل السابق عن عدوه شاهين، في أيام عذابه السابقة: "ليس ثمة وجه يراه سوى شاهين، كل يوم يغرز نضاله، ويتصور نفسه ذاهباً إليه مخفياً خنجراً في ثيابه"²⁶. إلا أن تلك الصورة العدائية تتغير إلى نقيضها، حالما يطلق سراحه فيصير مستشاراً قانونياً لشاهين، وكاتباً ليوميته في تصالح أليم مع الماضي، لا يخلو من حقد متأصل إلى درجة

²⁵ - رواية "ذهب مع النفط"، ص: 16.

²⁶ - نفس الرواية، ص: 20.

الشيزوفرونيا المرضية، والماسوشية التي يحرص المريض بها على تأليم الذات، وإهانتها، أقصى درجات الإهانة للحصول على الراحة المؤقتة والتصالح المرضي مع النفس، والمحيط من حوله مبررا ذلك بالحصول على منافع مالية، واعتبارية من علاقته بمن تسبب في آلامه السابقة.

تقول فريدة معاتبة زوجها سلمان الذي لم يعد كما كان قبل الاعتقال: "كل مرة تقول ذلك، وتدفعني إلى السرير وتتعري وتكتسحني بالقبل ولا شيء يحدث"²⁷. لتجعلننا قي قلب الأزمة الروحية للأسرة التي تزعزعت بهذا التغيير البيولوجي للزوج، الذي يعقبه تغير مواز في علاقة سلمان بشاهين فيقول واصفا جلاده على أمل التصالح مع الماضي، لتغيير الحاضر والحصول على نوع من التعايش في ظل المصالحة بين النقائص التي تبدو مستحيلة: "ليس ثمة كرم من أي نوع يا سلمان، سوى عمله الخاص، وحتى السيارة اشتراها من هذا العمل المتدفق عليه بالمال، لكن أن يسلمه شيئا أو يفتح له كنزا فهذا أشبه بحلم، وعليه أن يعاود الركض في قاعات المحاكم وصالات الرقص والشرب يقتنص المتخلفين عن الدفع"²⁸.

الأقنعة في الرواية:

يستخدم الكاتب في روايته عددا من الأقنعة، وذلك ليضعنا أمام مستويات مختلفة للحدث الرئيسي، فالابن أحمد هو صورة من الأب سلمان، وفريدة هي صورة أنثوية أخرى لزوجها سلمان في بحثها عن الحياة السوية، والتي ليس في داخلها ما ينبئ على روح التضحية الحقيقية بل هي حالما تكتشف عجز زوجها الجنسي بعد مغادرته السجن، وبعد فترة قصيرة من ذلك الاكتشاف، تقرر الطلاق منه والاقتران بالآخر، وقد اعتقلت هي أيضا فيما بعد بسبب عثور الشرطة على أسلحة وعدة تعود لابنها المتطرف في بيتها

²⁷ - نفس الرواية، ص: 30.

²⁸ - نفس الرواية، ص: 71.

الذي تعيش فيه مع زوجها الجديد، فهي صورة أنثوية للزوج السابق سلمان، الذي يعتقد أيضا في قرارة نفسه أنه لم يفعل شيئا خطيرا ليعتقل، أما الابن الذي لا يجده القارئ إلا من خلال والده وما ينقله عنه من أفكار وصور وأخبار، نجده صورة مجسمة لشباب الأب، ما عدا النزعة الدينية، فلدى الأب نزعة باخوسية مهيمنة، محبة شديدة لمتع الحياة، وفهم واقعي لمجرى الأحداث من حوله، ونجد ذلك مقلوبا في القناع المستخدم كابن في العمل الروائي: "سمع سلمان أصوات حياة في البيت منذ مدة طويلة لم يكن هناك سوى أنين الحجر. ولغو الحياة يصدر من حجرة الابن. على العتبة حشد من النعال والأحذية المتهرئة. هذه بشارة الجنون" (29).

القناع الآخر المستخدم في الرواية قناع شاهين، فهو الوجه الآخر لرغبات سلمان المدفونة في صميم وجدانه، ولكي يستطيع الأخبار عن أدق أسرارها، التي يعرفها سلمان، فقد ابتكر في الرواية تسجيل سيرة لحياة شاهين، يحكي فيها كل ما عاشه شاهين أثناء مراحل حياته المختلفة، ويتساءل شاهين وهو متوتر الأعصاب في أحد فصول الرواية:

"ماذا فعلت بكتاب حياتي؟"

لم أنجزه، كتبت بعض الفصول الأولى.

هل القصصات القليلة التي قدمتها تسميها فصولا؟

هي بداية مشروع كبير" (30).

طوابع الموجة الجديدة في الرواية: تتميز رواية "ذهب مع النفط" بتعدد أفنعة السارد، وتنوع الرؤى المطروحة في المتن الروائي، إلى درجة التصادم، وكذلك تنوع التقنيات المستخدمة فمن السيرة/ لا سيرة، إلى الرواية/ لا رواية، حيث يتداخل السرد باليوميات، والتاريخي بالمعاش،

²⁹ - المصدر السابق، ص: 98.

³⁰ - المصدر نفسه، ص: 107.

والأسطوري بالواقعي السحري، وهي تقع ضمن رواية الموجة الجديدة في الأدب العربي³¹، حيث لا نجد بينها وبين الأجناس الأدبية المستعملة فاصلاً، فهي أيضاً متواليات قصصية، وتجد فيها كل شروط القصص المستقلة، لكل فصل من فصولها أو لكل عدد من فصولها، ويربط بين فصولها شخوص يعيدون حكاية ما عاشوه في كل مرة بشكل مختلف، ويمكن اعتبار هذه الرواية من الروايات القليلة التي كتبها الروائي عبد الله خليفة، وهو يضع في اهتمامه أن يكتب نصاً روائياً متميزاً ينهل من التاريخ من دون أن يلتزم بأحداثه، ومن السياسة من دون أن يلتزم بمحدداتها المعروفة، وقد وضع نصب عينيه أن يجعل مداد قلمه، أن يكتب عن أزمة الإنسان في معاشته، لمتغيرات الواقع السريعة في بلداننا، وكفاحه الدائم للتأقلم مع الواقع، من أجل أن تستمر الحياة. والرواية بالرغم من دراماتيكية أحداثها فهي دعوة للحياة والتصالح مع الذات لصنع المستقبل القادم، وأيضاً هي إدانة له باستقراء روائي تنبؤي لما سيحصل في العقود القادمة.

³¹ - يمكن مراجعة مقالة للدكتور عبد المالك أشهبون بعنوان: "إدوار خراط وقضايا تجنيس النصوص السردية"، مجلة العلوم الإنسانية، العدد: 16/17، عام 2009م، الصادرة عن كلية الآداب بجامعة البحرين، ص: 40.

الأقلف

تتطلب حركة الكتاب أيا كان نوعها أو اتجاهها حرية أخرى يمتلكها الكاتب لكي يتخلص من بعض القيود التي تكبل عمله الإنتاجي، وكاتب العمل الإبداعي بحسب ما نتصور يكون أكثر حرية في الطرح، والدخول في الدوائر المحظورة عند بعض فئات المجتمع أو بعض طوائفه، لما يستخدم من لغة، وقدرة على التخيل، وفنية المراوغة اللفظية.

ونحن أمام رواية جديدة تضاف إلى رصيد الروائي البحريني عبد الله خليفة، الذي أسهم بشكل مباشر في إثراء الحركة الأدبية البحرينية سردا وكتابة تحليلية ونقدية، فضلا عن كتاباته المرتبطة بالشأن العام المحلي والعربي والعالمية. وهذه الرواية هي رواية "الأقلف" الصادرة في العام 2002م، ضمن مشروع الإصدار المشترك مع إدارة الثقافة والفنون بوزارة الإعلام البحرينية، وتقع في 172 صفحة من القطع المتوسط.

رواية "الأقلف" رواية واقعية، تنطلق في تكوينها من قطعة مكانية مرسومة جغرافيا، وفي إطار زمني محدد. تحكي واقعا يفرز مرارة الإنسان العربي، قد تركت كل حفنة من تراب وطنه بصمات الحرمان في نفسه "فقد رزح الوطن العربي بمختلف أقطاره لاستعمار يستغل ثرواته وطاقاته وقدراته، ويحاصره في كل مكان بصنوف القهر والكبت والاستبداد، فقامت الرواية بمهمة الضمير العربي في مواجهة التحديات والأزمات التي عانتها الأمة العربية في طريق تحررها وتقدمها، فعبرت عن أفكار الأمة ورصدت حركات الجماهير ونضالها عن طريق رسم شخصياتها، وعلاقاتها ونزواتها، وتصويرها لمختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية"³². الرواية إذن تسجيلية لا تعدو أن تكون عملا شفيفا لمرحلة

³² - "الرواية العربية والمقاومة الوطنية"، العدد: 15، شؤون عربية، مايو، 1982م، ص: 140.

تاريخية، بيد أننا عبر هذا التحليل سنستشرف جوانب فنية قد انفردت بها هذه الرواية، ذلك لأن الأيديولوجية الواقعية التي تتحرك في فضاء الرواية تتحرك من بؤرة التحولات النفسية التي يرسمها الروائي في شخصيات كتابته الروائية.

ظهرت في الرواية مجموعة من الشخصيات على مسرح أحداث الرواية، بعضها لعب الدور الرئيسي، مثل: يحيى، وبعضها لعب الدور الرئيسي المساند، مثل: إسحاق وميري، والبعض الآخر لعب أدواراً مهمة في بناء الحدث الروائي من أجل انطلاق الشخصية الرئيسية إلى الأمام، مثل: الجدة وجين والدكتور تومسون والمعلم البستاني، فضلاً عن العديد من الشخصيات التي ظهرت هنا أو هناك مساندة للحدث، مثل: المهندس البريطاني توم، وعلي المدخن وابنه، والحاج مرزوق ونظرتة إلى التغيير الذي طرأ على يحيى، وكذلك عائشة المبروكة وغيرهم.

هذا وسوف يكشف لنا جلياً عبر هذه الدراسة أن الملمح الفني (الواقعية) الذي نسج خيوط الرواية، لم ينفلق على نفسه، بل كان منفتحاً على طبقات فصول الرواية على معطى فني جمالي مستمد من أبعاد الحركة النفسية المرسومة لشخصيات الرواية.

وقد يبدو لدارس هذه الرواية أن كاتبها البحريني عبد الله خليفة أراد ترسيخ الدمغة الاجتماعية المتخلفة على خلق الله اللقطاء باعتبارهم بشراً من الدرجة العاشرة إلا أن الأمر ليس كذلك بالضبط، فقد أراد مؤلفها إثبات العكس. فهذا يحيى الأقف الذي تحمل الرواية صفته الاجتماعية لاسمه يغدو في نهايتها حاملاً هموم الناس يطارده تأنيب الضمير ويحمل هموم الأمة على كتفيه. ما هي جريمة هذا اللقيط الأقف "يحيى"؟ ليس هناك أكثر من أن والده القادم من "غابات المحبة" غامر بحياته متجهاً نحو الصحراء

ليلقح نخيل الشرق. لكن مصيبة يحيى أنه بقي وحيدا في هذا العالم الصامت مع جدته الخرساء! لماذا هذه المصادفة؟ أهى صدفة أرادها الروائي أن تكون تحديا للشرق والأصالة والإسلام وبالتالي بلاده البحرين مكان الحدث الروائي؟.

هل هي صدفة أن يخرج يحيى "كالتنوء" من بيئة غامضة مليئة بالقاذورات والحرمان والعدم وأن يكون كل هذا العالم المنسي المظلوم تحديا خطيرا للاستعمار الغربي وثقافته التبشيرية رغم تنصره وحمله الصليب؟

وهل هي صدفة أخرى أن يقف على حياته اللأليغوري لقيط آخر لا نعلم إن كان هو أيضا أغلف أم لا، ولكن لم يعد الأمر في هذه المرة يعني شيئا في السرد الروائي إذ أن هناك موضوعات أهم منها.

هل هو تأكيد لأليغوريا الروائية والمغزى الفني لهذا العمل الذي تنبأ باصطدام الشرق بالغرب أم أنها رفض للمفاهيم الاجتماعية البالية والراسخة في أذهان الناس وتقسيم البشر إلى أصناف وأنواع ودرجات اجتماعية؟

الجواب بالتأكيد: كلا الأمرين، فالروائي يضيف إلى هذين الهمين هموما ومعاناة أخرى وأراد أن يكرس روايته لها.

يحيى نتاج بيئته الصماء، كوخ أبكم يضم جدته الخرساء لكنه في حقيقة الأمر ليس أخرس حقيقيا بل مخرسا إن جاز لها التعبير، طفل مهمل لم يحصل على مستلزمات العيش والحنان الكامل.

فالقارئ لا يسمع يحيى يتكلم مع الآخرين إلا بعد لقائه مع زميله في "النعولة" إسحاق حيث يبدأ التعبير عما في خلجات النفس البشرية لدى هذين الكائنين البشريين ليتقاسما مشاعرهما ومعاناتهما من الاضطهاد والفقير والحرمان. إسحاق هو اللقيط الآخر، بطل الرواية الرئيسي أو بالأحرى منافس يحيى في البطولة، بل إنه ينافس في كل شيء بدءا من

المعاناة الروحية والفقر والحرمان وانتهاء بالبطولات والمغامرات والثبات والتحدي بغض النظر عن الأهداف والأساليب.

يشكل إسحاق التحدي الثاني الذي يقدمه الروائي في هذه الرواية، وهو النتاج الثاني الأكثر إيغالا في معرفة قسوة المكان ووحشيته. إنها في حقيقة الأمر جريمة يقتزفها البشر يوميا يحاول الروائي من خلالها أن يميظ اللثام عن رياء المجتمع. ولا بد من الإشارة إلى أنه لا يمكن الحديث هنا عن هذا الأغلف من دون عينه الثانية، إسحاق مرآته الحقيقية التي يتمثل فيها التحدي الأكبر لعامة الناس "الأسوياء" والاحتلال البريطاني.

يقول هذا اللقيط إسحاق محدثا زميله يحيى عن نفسه: "وحين أنهار من التعب، ويسجنني المخزن في عفونته وظلمته وأغدو كيسا من أكياسه، تحرقني مشاعر غربة عنيفة وأصرخ: لماذا... لماذا... لماذا يعمانني أهلي بهذه القسوة؟ رحمت أحق في جلدي الغريب، لم أكن ابنهم. وجدني الأب عند باب المسجد، صرت ابن حرام!"³³.

إذن هما لقيطان يواجهان مقولة "النغل نغل" التي يرددها الناس في كل مرة يستأوون فيها منهما، وهو التحذير الأكبر، الذي أراد الروائي عبد الله خليفة أن يقدمه للمجتمع المحلي والاحتلال البريطاني.

وإذا كان التلاقح غير المبرر بين الشرق والغرب قد ولد يحيى بلا اعتراف أبعد "غرلته عن موس المسلمين" لترميته في عزلة على هامش المجتمع، تطارده زرقة عينيه دليل الهجينية المريب، فإن اللقاء الثاني بين هذين العالمين يتم في مستشفى الإرساليات حيث يلتقي بالمرضة "ميري"، التي تصبح حبيبته وشريكة حياته فيما بعد. وهو لقاء بين شخصين غير متكافئين، فالأول مريض، فقير، معدم، مهمش، لقيط ومحروم من كل

³³- رواية "الألف" لعبد الله خليفة، ص: 20.

الحقوق الإنسانية، أما الثانية فهي ممرضة نصرانية غريبة، تعمل في مستشفى الإرسالية الأميركية بعقد عمل يصون كامل حقوقها. يقول يحيى لميري: "أبي ليس منهم. لوني وزرقة عيني تفضح انتمائي إليكم. ثمة بحار أو طيار بذر في أمي بذرة ورحل، أنا لا أنتمي إلى هذه المقابر الكالحة، أنا لا أنتمي إلى هذا الخوص الكالح"³⁴.

وهي لغة تمثل بلا شك صوت الكاتب وليس الشخصية الروائية مما أبعدها كثيرا عن الطابع البوليفوني بسبب البون الشاسع بين لغتها ومستواها الفكري والاجتماعي وهذا ما يؤكد أليغوريته، حتى التوسل بان على لسان رفيقه في الحرمان إسحاق "بجاه النبي مصطفى وسيدنا عيسى المسيح عليهما السلام.

هذا وقد يكون كل هذا الأمر ليس بالصدفة بل من وحي الكاتب واستلهاماته بحيث يبدو جليا في طريقة تفكير ميري كأنها صياد يطارد فريسته بينما يقوم القس بتقديم الإرشادات لها.

تتميز هذه العلاقة الأليغورية أيضا باستعلاء الطرف الأول المنقذ ميري على الجانب الآخر الذي تتجسد فيه مظاهر العصور الوسطى. تفكر ميري قائلة عن يحيى: "وقد تراه ذات يوم يجلد نفسه في الشوارع أو يجر امرأته المحببة بحبل"³⁵. فيقع يحيى فريسة بين مخالف التبشير بسبب حاجته إلى المساعدات الإنسانية في المستشفى ويبدأ بقراءة الإنجيل ويدهش مدرسه اللبناني من التبتل الدراسي لهذا الشاب، ومداومته وحفظه السريع وأكله للمعرفة أكلا، وتجاوزه لأقرانه السئمين من الكتب والحروف، وبمطالبه المعرفية المتزايدة، وضجره من البطء. وهل هناك أسهل من استدرج هذا الأقف المعاني للتمهيش والحرمان والرفض حتى من عاهرة تبيع الهوى!

³⁴ - رواية "الأقف" لعبد الله خليفة، ص: 85.

³⁵ - المصدر نفسه، ص: 39.

"أنت نجس أيها الكافر غير المختن!"، إلا أن تنصر يحيى يحمل أيضا أليغوريا شائعة في الشرق "الصبي الأخرس يريد أن يكون موظفا كبيرا، أو شرطيا قاسيا"، بعد أن يقرأ الإنجيل تمحي صفة الحرس عنه "إن الصبي الذي كان أخرس يغدو معلما"³⁶.

يدفع تطور الأحداث اللاحقة يحيى إلى اتخاذ موقف آخر مغاير لحالته المسكينة وهو يعاني الضغط والحرمان والفقر، فإن ظهور شاحنات إنجليزية مليئة بالجنود الذين بدوا هادئين كالصخور وخوذاتهم وألبستهم البنية وبنادقهم المنتهية بحراب لأمعة، بدت مخيفة، لكن الجمع المغبر الصارخ الكثيف سار. كأنه يعرف بعض هؤلاء الضباط أيضا، كأنه التصق بهم في حفلات أعياد ميلاد البهيجة.

هذه المجابهة العسكرية بين الغرب والشرق حسمت الأمر بالنسبة إلى يحيى حيث يلتحق بالشعب ويساعد البحار المصوب برصاص الإنجليز مذكرا بموقف جان فلجان بطل "البؤساء".

يعتقل يحيى ويتم التحقيق معه من قبل ضابط إنجليزي. وعندما تبدأ حالة البوح عن المشاعر والمناجاتية والتعلق بعالم الصباء المتجسد برقيق العمر والشباب ودروبه فيما بعد إسحاق. ولكن هناك غموضا حول تطور يحيى وتوظيفه محررا أو مترجما في صحيفة "الاحتلال" بعد أن أعتقل من قبل الإنجليز. وهذا ما يلاحظه القارئ في الفصلين 36 و37 من الرواية، حيث تتميز اللغة بالغموض وكثرة الانتقالات بين الوعي واللاوعي، والحقيقة والخيال، والحلم وتطور الأحداث.

ومقابل جذر الصلة الروحية بينه وبين الرمز الشعبي إسحاق، الذي أصبح له مريدون وحماية شعبية تنتهي علاقته بميري حيث يقول يحيى في هذه

³⁶ - "الأقف" لعبد الله خليفة، ص: 69 - 70.

المرّة: "ليس لهم علاقة بالإله الذي صلب، إنهم حشد من الضئاب الضارية القادمة من وراء الصكوك والأسهم"³⁷. أي كل ما كان ينظر إليه نظرة سوداوية وانتقادية في عالمه القديم أصبح اليوم طعمه أكثر حلاوة وأقرب إلى النفس. ومن خلال هذه العلاقات تتجسد قيمة اصطدام الحضارات والأديان والمصالح الاستعمارية وبالذات الشرق والغرب، الإسلام والنصرانية. العلاقة الأولى لهذه المواجهة الخطيرة يعبر عنها السائق الحاج سلمان بقوله موجهها كلامه إلى يحيى: "كيف تغير دينك؟، هذا حرام"³⁸. بينما يجاب يحيى برد فعل أعنف من قبل إسحاق نفسه، الذي يتهم قائلاً: "أنت أغلف وهذه السكين ستحرك"³⁹. إلا أن هذه المواجهة تأخذ فيما بعد طابعاً آخر يبدأ برد فعل يحيى نفسه الذي يضع يده على القضية ويكتشفها بنفسه وينظر إلى هؤلاء القادمين من الغابات الغربية نظرة شكوكية رغم أنه لا يزال على ديانتهم ومنتمياً إليهم ويحمل الصليب في رقبته، كيف نزع أننا مخلوقات الإله ثم نتقاتل على بقعة زيت وقطعة قماش.

ويكشف فيما بعد حقيقة القس الأب تومسون أهذا هو ذاته الراعي الطيب الذي ينتزع أو رام الأجساد والأرواح والقطيع الهائج والبائس إلى مملكة الرب؟ أين ذهبت ترانيم الأحد وصلوات الأعالي؟ بدا له أنه خرف أو أصيب بلوثة مفاجئة.

ويشير الروائي في مكان آخر من الرواية إلى هذه الأليغوريا ما بين النخيل والغابات على أنها علاقة الشرق بالغرب أن ابنة يحيى عائشة تجسيد لهذا التلاقح، تجمع هذين الطرفين المتضادين والمتصارعين منذ الأزل.

لكن هذه الطفلة الهجين عائشة لم تشفع لأبويها ولا للعالم كله كي تحل العقدة ويعم الوئام بين البشر، بل تغدو سلاحاً بيد الغرب ضد الشرق حيث

³⁷ - المصدر السابق، ص: 149.

³⁸ - المصدر نفسه، ص: 75.

³⁹ - المصدر نفسه، ص: 105.

يهدده الضابط الإنجليزي قائلاً ليحيى: "سوف تدلنا على مخابأ إسحاق"⁴⁰. وبهذا يضع الكاتب بطله اللقيط البحريني، الهجين، المتنصر أمام اختبار يعد من أهم عناصر الرواية المعاصرة ليختار بين الانتماء إلى مكانه السفلي وبيئته بكل ما فيها من حرمان وقذارات وسفالات والتضحية بحياته وكل امتيازاته مقابل إنقاذ حياة إسحاق وعدم الغدر به.

يفضل يحيى الخيار الأول فتفصل بينه وبين حياته رصاصة يطلقها الضابط الإنجليزي في رأسه ليودع ابنته التي قد تستمر على دربه الأليغوري. لم تكن عملية تنصر سهلة، بل مرت من خلال عدة مظاهر يتجسد فيها التخلف واحتقار الإنسان مثل مقابر المسلمين الوسخة، كانت مقبرة المسلمين الموحشة لا تستقبل سوى الفقراء والجنازات الكئيبة المتقشفة، أما مقبرتا اليهود والمسيحيين فكانت جنازاتها مختلفة، والبشر الحزاني يبدون بجمال غريب، بدلات سوداء وباقات زهور ونعوش خشبية جميلة فيظن أن القوم ذاهبون إلى فرح صامت، ويقول في مكان من الرواية: "وفي النهار تتفجر الصيحات من مآذن المساجد، ليندفع كورس جماعي يزلزل الفجر والنائمين، وتتدفع بعده أصوات الحمير والكلاب والديوك والبشر، ويخرج أناس يقطعون أجسادهم ويضربونها" أنظر إلى ص 24، وص 46 من الرواية. وعلى سبيل المثال يمكن هنا أيضا الإشارة إلى قصة العلاقة الخفية بين المعلم النصراني التبشيري نصيف البستاني والمرأة المحجبة من عائلة العنود التي ترتدي الملابس السوداء من رأسها إلى أخمص قدميها.

المكان في الرواية:

يبدو المكان في الرواية أبعد عن التوثيق، حاول الكاتب التمويه من خلال الابتعاد قدر الإمكان عن ذكر أسماء الشوارع والمدن والمحلات وكأننا

⁴⁰ - المصدر نفسه، ص: 165.

نعيش في مدينة ما في الشرق. لكنه يستعين بالزمكانية ليشير إلى مكان الحدث. فهنا كل شيء معلوم ومعروف بالنسبة إلى القارئ الواعي العارف والمطلع على تاريخ البحرين المعاصر. كما نقرأ في الرواية: "وجد نفسه ملحقا بكوخ، وبأرض خلاء، وبسماء عالية، الأرض الخلاء الواسعة التي تلي الأكواخ، تبدو رمادية كالحة تنتشر فيها الحفر الكبيرة التي تتخذ أمكنة لقضاء الحاجة، وهي تتحول إلى مستنقعات سبخة عندما ينهمر المطر. وتقع فيها مزابل وأراضي رحبة مليئة برمل ناعم، وفي شرق هذه الأرض تقع أكواخ تمتلئ بعبيد سابقين.

أما مدينة الأحداث فإن الروائي يشير إليها بدون ذكر اسمها من خلال وجود شركة النفط ولكن ما هي هذه البلدة مدينة النفط؟

أول مرة يذكر فيها الروائي شركة النفط في صفحة 44 "لكنك تعرفين أننا أخوات جننا لمهمة مقدسة، وليس لإقامة صداقات مع مهندسي وموظفي شركة النفط"⁴¹. ويقول أيضا عن مكان الحدث الروائي بطريقة غير مباشرة: "إن البلدة تغرق في النوم والظلام، ذهبنا إلى مدينة النفط ذات البيوت الأوروبية"⁴². إن الروائي عبد الله خليفة لم يبين واقع الرواية ويرسم أفضيتها من فراغ، بل اتكأ على مجموعة من العناصر التاريخية التي ساهمت في إبراز العمل إلى حيز الوجود، ومن هذه العناصر:

تلك العمليات التبشيرية التي مورست في البحرين في فترة من الزمن، مؤكداً أن هناك بعض الشباب لجأ إلى تحوله الديني بناء على إغرامات مادية ومعنوية قد لا يجدها في دينه الأصلي أو مجتمعه أو بين أسرته، كذلك تلك الممارسات الجنسية التي تمثلت في البغاء والدعارة المسموح لها رسمياً وفي مناطق محددة، فضلاً عن العلاقة المنافرة بين الشعب والناس

⁴¹ - رواية "الأقلف، لعبد الله خليفة، ص: 44.

⁴² - نفس الرواية، ص: 46.

وبين الاستعمار البريطاني، وعملية المحاولات للتعبير عن هذا الرفض. كما أن الشخصية الروائية أيا كان دورها، فإن نموها في العمل السردى مسألة ذات أهمية قصوى لتعرف خطوات مسيرة هذه الشخصية، وبناءها الفني، وعلاقتها بالمكونات السردية الأخرى، مثل: الحدث والزمان والمكان، والمتلقي الضمني، والكاتب. ولو وقفنا عند شخصيات العمل الروائي لرواية "الأقلف"، وقراءتها ضمن الأحداث المرتبطة بها لعرفنا أن الشخصيات بنيت في نموها بناءين اثنين:

الأول: البناء المادي المرتبط بالزمن الأفقي الذي يأخذ الشخصية في نموها الجسماني، والتطور الحدثي في السرد.

أما الثاني: فهو البناء الداخلي المرتبط بالزمن العمودي المتعلق بحالة الشخصية النفسية والاجتماعية، وغيرها من صراحي معرفي ووجداني ونفسي.

من ثم نجد هنا شخصيات الرواية التي كانت لها الدور الفاعل في تحريك الأحداث شخصية يحيى وميري وإسحاق. وعلى الرغم من سعي الكاتب إلى بناء هذه الشخصيات ماديا ومعنويا، إلا أنه كان حاضرا في كل شخصية، فهو الذي يرسم حدودها الفنية، وهو الذي يتابع نموها، حيث لم يتركها تتحرك، وتسير في الرواية وفق أحداثها، أو ما تقتضيه البنية الفنية، وإنما بحسب ما يريد هو نفسه لهذه الشخصية أو تلك.

فقد رسم الروائي شخصية يحيى وهو رافض واقعه الذي تمحور في البحث عن الهوية الروحية له، أما شخصية إسحاق فقد جعلها رافضة لواقعها من خلال مواجهة المغتصب سواء كان مغتصبا لذاته، وسالبا إرادته أم الأجنبي الذي كان مسيطرا على أرزاق الناس، كما كانت شخصية ميري الداخلية في صراع بين الحب الإلهي، ودعوة التبشير، وبين الحب المادي الجسدي،

والإرتقاء في أعضائه. إن الجرأة التي تميزت بها الرواية هي طرح تلامي
الحضارات والثقافات بطريقة مختلفة عما هي عليه، أي طرح السؤال
المرفوض عادة، وهو خروج المسلم من دينه متجهاً إلى اعتناق دين آخر،
ليطرح الإشكال الآخر، وهو لك هذا الخروج؟ ولما الحساب على حرية
التفكير والتحول في البناء الفكري للإنسان. فهذه تجربة قام بها الكاتب ليؤكد
أن التجريب في العمل الإبداعي هو إثارة السؤال وإثارة الجدل، كما أن
التجريب في الرواية شارف كما يقول صبري حافظ: "على الخروج عن
التقاليد المألوفة، والرغبة في ارتياد أفاق بكر، واستكشاف معالم
مجهولة"⁴³.

⁴³ - البكري، سليمان، "التجريب في القصة والرواية"، ص: 11.

ساعة ظهور الأرواح

تعتبر هذه الرواية عن منحى مختلف عند الروائي، فالمبنى التخيلي الأسطوري يتدفق بلغة شعرية تجسد ضياع حارة (العدامة)، التي كانت تجمعاً من الأكوخ ومستنقعا زيتيا غير مكتشف، وقام السحرة والمقاولون فيها بالبحث عن كنوز الأجداد الضائعة، وشكلوا اتصالات غرائبية مختلفة بشتى جهات الكون للعثور على الكنز المفقود وتغيير الإنسان في الحارة، لكن قوى أخرى غزت (العدامة) واستولت على المستنقع الفضوي، كما تمكنت من إعادة تشغيل الأرواح بصورة مختلفة، وحبسها في الكهوف والحصالات، ونشر أجهزة إلكترونية بديلة عنها. أسلوب الكاتب في صنع هذا العمل الواقعي الأسطوري يتتبع هذا الغزو المعقد للسيطرة على أرواح الحارة ورمزها التراثية، وجعل البشر أشباحاً مفرغة من جذورها ومستقبلها لتتآكل وتذوب في ضباب مدن غرائبية تعجن البشر في كتل من الأصوات والمطاط والأجهزة.

إن الكتابة بواسطة أشكال وأنواع سردية متعددة، تنتج معرفة حول المنتج للتجربة الروائية، وحول تصوره للكتابة الروائية. ويمكن اختصار تلك المعرفة في العناصر التالية:

* إن الكتابة من خلال أشكال تراثية سردية، تقدم قراءة المبدع لهذا التراث، في علاقته بالمستجدات السردية الحديثة (الرواية).

* استدعاء أساليب سردية قديمة، وتشغيلها داخل السرد الروائي، يجعل منها إمكانات متجددة.

فتنتمي رواية "ساعة ظهور الأرواح" لعبد الله خليفة إلى النوع الروائي الذي لا يهادن ما اتفق عليه في القراءة، ويعود الأمر إلى تركيبته البنائية التي تجعل النص تجربة تخيلية تعيش حالات مستمرة ومتنوعة من التطور

التقني والإجرائي والأسلوبي والمعرفي، مما جعلها منفتحة على الإحياء في أبعاده المنتجة للتعدد والتنوع في التأويل.

نسجل في البداية صعوبة اختزال قصة رواية "ساعة ظهور الأرواح" في حكاية واحدة، باعتبارها عبارة عن محكيات تولدت عن زمن اشتغال التغريب في حارة العدامة، التي استيقظت على نشاط غريب عرفته السماء مع زوبعة الريح، فأحدث تحولات في نظام الحياة، وشكل التفكير، وفي علاقات الناس مع بعضها ومع تاريخها، وفي ظهور منطق جديد في التعاطي مع التاريخ والذات وذاكرة العدامة، مما حول حكاية (التاريخ/الحياة) العدامة إلى محكيات أهلها الذين فاجأهم التحول حين انتقلت العدامة إلى مدينة الإسمنت، يتحكم في تدبير شأنها عناصر غير مرئية، ترسل تعاليمها من وراء الأفق. فعبرت ردود فعلهم عن حكايات تأثرهم بزمن التحولات. لهذا نلتقي بمحكيات كل من الشيخ درويش ويوسف وجوهر ومريم وبشير وغيرهم. وهذا ما جعل الوقائع في هذا النص لا تعيش الامتداد الأفقي، مما يسمح بإمكانية تأطير الحكاية الكبرى ضمن مجال معين من الأحداث. ولكن هناك اختراقات وتوليدات وتفجير محكي من آخر، ما يجعل بعض التنظيرات الروائية تتكسر أمام اشتغال السرد على الحكاية في هذا النص، مثلما نجده في تقسيم تودوروف للرواية باعتبارها قصة (حكاية) وخطاب. وهو تقسيم يعطي الانطباع بالحكاية الواحدة والمنسجمة، وبالتالي يدفع هذا الوعي النظري إلى إنتاج تصور معين حول الرواية باعتبارها حكاية مكتملة يتم صوغها سرديا.

يشغل السرد في رواية "عبد الله خليفة" ضمن استراتيجية توليد المحكيات عبر تكسير وهم الحكاية الأصلية، ويتبنى من أجل ذلك عينة من التدابير السردية التي تتشخص في الإجراءات التالية: منطق الاختراق: يفتح السرد

على حالة عادية مألوفة في ثقافة التواصل، ثم فجأة يحدث الاختراق، ويتم الانتقال فجأة إلى حالة عسية على الإدراك، تلحق الشخصية والحدث والساد واللغة، وتغير ملامح العدامة ومنطق العلاقات.

الانتقال من العادي إلى الغرائبي:

"دهش الأولاد وهم يصطدمون بأجسام رهيبة، شفافة، كانت تدخل جيوبهم وأذانهم وأفواههم، وتثير ضجة في خلاياهم، ثم راحت هذه الأجساد الرهيبة تستوي وجوها، ملأى بعيون وابتسامات وأفواه متفجرة باللغة، وبأقنعة من ورق الزهر سرعان ما تتمزق لتتشكل، وأمسكت قبضتان قويتان جوهرًا. كان قد استحال إلى كتلة من الطين والتراب وبدا كشبح، أو كجسم غير مرئي يناديه رفاقه ويعرفون موقعه من أصواته، وفجأة تحول إلى عمود من نار، أو شعلة ضوء طويل كمسمار راح يحفر الأرض والسماء"⁴⁴.

تشخص هذه المقاطع السرديّة حالة اجتاحت أهل العدامة، وهي حالة أثارت الدهشة من قبل أهلها، وشكلت لحظة ارتباك وتردد في إدراك ما يحدث لدى كل الشيخ درويش وجوهر ويوسف الذين تمظهرت فيها الحالة الغرائبية: "هل كانت الزوبعة وليدة صبوة شديدة من الأعالي لعناق أرض جافة مأكرة"⁴⁵. يتساءل الشيخ درويش بعدما أصيب ولده في النشاط الغريب للسماء، وبالتالي نكون أمام الغرائبي الذي يتحدد في علاقته بالواقعي والمتخيل. وفي حالة التردد التي يعبر عنها كائن لا يملك إلا قوانين الطبيعة أمام حدث فوق طبيعي. وهو تردد في الفهم عبرت عنه أيضا اللحظة السردية التي لم تحسم فيما حدث، بأن ترجعه إلى حلم أو وهم، أو اشتغال الخيال لدى الشباب (يوسف وجوهر). ولكن السارد وهو يسرد الحالة من خلال صدى الشخصيات، فإنه يقترح احتمالات غير وثوقية في طبيعة الحالة (وبدا

⁴⁴ - رواية "ساعة ظهور الأرواح" لعبد الله خليفة، ص: 7 - 8.

⁴⁵ - المصدر نفسه، ص: 17.

كشبح، أو كجسم غير مرئي تحول إلى عمود من نار، أو شعلة من ضوء). وعملية التردد بين إكمانيتين لتفسير الحالة بين إرجاعها إلى الواقع، أو إلحاقها بالمتخيل هي التي تخلق الغرائبي. وعليه، حين يتعطل التردد ويتم الحسم يتم تجاوز الغرائبي لصالح حالة أخرى قريبة منه وهي العجائبي. هكذا يشتغل الغرائبي على خرق السرد الأفقي الذي تعودت عليه الذائقة الروائية، غير أنه خرق لا يتم بشكل مكشوف وصريح، كما نجد في النصوص التي تتخذ من التجريب قاعدة أساسية، وإنما يقترح بناء نص "ساعة زهور الأرواح" شكلا مغايرا لزمن الخرق، لتحقيق التجريب وفق خصوصية نصية عبر الغرائبي والخارق والماورائي باعتبارها اشتغالات سردية تخلخل التواصل مع منطق الأشياء، وتعمق البعد التخيلي للنص، وتفتح آفاقا مفتوحة أمام توسيع دائرة التأمل في شكل الحكاية.

يمارس الغرائبي قوة التجلي على مستوى سلوك الأفراد، ويخترق المكان والزمن كما أنه يطبع الوصف بسماته، يصف السارد بوسمة حاكي العدامة بشكل يمزج بين الواقعي والغرائبي، يقول: "هيئته العملاقة، بطوله الفارع وجسده المقتول، ورأسه التي تتوج عليها غترة ملفوفة بشكل غريب ملفت، تشاهد من أول الحشد كحمامة مقلوبة"⁴⁶. فالوصف هنا يخرج الشخصية من مساحتها البشرية، ويدرجها في المساحة الغرائبية، لتتحول إلى كائن تخيلي مزدوج، يتحرر من الحكاية الأولى وينخرط في تجربة مغايرة تعطيه أبعادا جديدة في تجليه، وتجعله يمد من عمر السرد، ويفتح أمامه آفاقا تمكنه من توسيع الحكاية التي تتولد من رحم تطور الغرائبي. هكذا، يصير الواقع الذي عاشه يوسف مع ثورة السماء حكاية يحكيها إلى رفاقه: "في حشود الأضلاع والجدران والسيبورات السوداء والطباشير وحشرة اللغة

⁴⁶- رواية "ساعة ظهور الأرواح"، ص: 21.

جمع طايبورا من الصغار راح يروي لهم مغامراته في القصر المسحور⁴⁷. كما يصبح الغرائبي سلوكا ذهنيا يتحول إلى ذاكرة ومرجعية في الفهم والإدراك والتأويل. بل تصبح له سلطة تدبير شأن العدامة من خلال التأويل الجديد لمفهوم السر الذي شكل سؤال البحث لدى الشيخ درويش وأصحابه. ويصبح مرجعية في التأويل خاصة مع التحول الذي لحق مجموعة من الشخصيات، مثل مريم التي شفيت من تيبس العظام.

غير أن الغرائبي لا يعيش الثبات في شكل حضوره، إنه ينمو في اتجاه التحول إلى وضع آخر، يقيم علاقة جديدة ومختلفة مع الشخصيات، ويتخلص من بعد الغرائبي، وذلك بفعل نشاطه المستمر، واختراقه الحياة اليومية للشخصيات، وتحوله من موضوع إلى آلية للتفكير. يتحول في هذا الصدد إلى عجائبي، يحد من حدة التردد والاستغراب لدى الشخصية التي تعودت أن تدرك الأشياء بواسطة قوانين الطبيعة، ويجعله مقوما قابلا للتعاشي معه، نظرا لكونه قد أصبح مألوفا في نظام الحياة، وأخذ يشكل منطق المعاملات في العدامة. لذلك، لم يعد يطرح تواجهه استغرابا أو دهشة.

انبثق الخارق والغرائبي في بداية النص من الواقعي المألوف، إذ انفتح السرد على سياق اجتماعي لأهل العدامة بأمكنتها وأهلها وأطفالها، ثم فجأة يتحول الاجتماعي إلى الغرائبي، مما يثير دهشة السكان نتيجة سرعة التحولات وإيقاعها وقدرتها على التأثير الملموس في المكان والزمن والعلاقات والمواقع، وفي ظهور عناصر تصبح لها قدرة تسيير بعض الشخصيات مثل جوهر الذي أصبح وسيطا بين تلك العناصر والشيخ درويش من أجل إعادة كتابة تاريخ العدامة، انسجاما مع زمن التحولات.

⁴⁷ - المصدر نفسه، ص: 13.

وتعويض الورق الأصفر بالأبيض والذاكرة بالآلة، مع خلق زمن اقتصادي جديد يدفع باتجاه بيع الجسد (مريم).

غير أن هذه الحالة وفق اشتغالها البنيوي، باعتبارها قد أصبحت مكونا سرديا، ستتطور وتصبح حالة واقعية في التخييل بموجب انغراسها في تربة العدامة، وفي تفكير أهل الحارة، ثم لكونها أضحت سؤالا جديدا على أهل العدامة. لم تعد تثير الاستغراب والدهشة واستدعاء قوانين ما وراثية لإدراكها من قبل الشخصيات. ولهذا يحدث الانجراف وراء القرارات القادمة من وراء الأفق، والتي أصبحت تشكل الحياة في العدامة بمنطق الخريطة الجديدة، والأسئلة الجديدة.

نشيد البحر

رواية "نشيد البحر" للروائي البحريني عبد الله خليفة، رواية جديدة بالتأمل، جديدة بالإعجاب. إذ الكاتب يجول في العالم، وفي عوالم الشخصيات في ساحة رمزية عميقة، تحتاج إلى التأمل، كما تحتاج لفك علاقات التداعي والوصف المكثف والمركب من داخل السياق والموقف اللذين يتداعيان فيه، لأنهما السمة المتكررة في سرده الروائي، وفي سياقات الحديث عن السياسة تتبدل التعبيرات والأوصاف خصوصاً، ولا يعني هذا أن الكاتب يهرب من الموضوع السياسي أو من إعلان موقف الشخصية السياسي، بل هو يختصر ما بداخه وداخل الشخصية في صور شعرية وتعبيرات رمزية تشي بما في داخله.

فجوهر الرواية السياسية بين ساعات الالتزام بتقاليدها وبين أيام هجرها، من أجل التسلق إلى أحلام مادية أخلاقية أو غير أخلاقية. وترصد الرواية سلوك أبطالها الفقراء وغير الفقراء، ومن كانوا فقراء وتخلصوا من مبادئ كانت عائقاً في سبيل تحولهم لأثرياء يبيعون ما يملكون. وقد ألح الروائي أن يبدأ روايته بما يشي بذلك، إذ فتح المشهد الأول على علاقات غيرسوية بين مجموعة من الطلاب في شقة مفروشة من خلال استخدام ابنة أحد فقراء الحي واستغلالها جسدياً، وحتى يظهر الفارق بين الطبقات الاجتماعية منذ البداية وصف صديق الراوي "صلاح" بصفات واقعية تنم عن فهم للواقع وللناس، في حين وقف الراوي (وهو أحد الأبطال) مختاراً في فهم سلوك الآخرين، وفي سياق العطف عليهم.

فالمشهد الأول رسالة تأتي من الخليج في حزن أمه الدافئ تستعجله العودة، أما هو فقد ذاب في حارات المدينة وعاش كل أحوالها، ولسوء ما حدث "صرخوا في وجهه: هيا أذهب يا ابن الخليج المدلل! فيرد: ليس لديكم سوى

الكلام! فيشرحون: حولتهم الشقة إلى مبعى"48. وتختتم الحوارات بأنهم لن يسكتوا عن موضوع بهية المغتصبة التي وصفها بزهرة نبتت وسط الوحول. وتفرق هذه اللحظة بين الراوي وبين صديق عمره صلاح، المادي الواقعي، أما هو فقد صمم أن يتزوج الفتاة ليحميها. ولكنه في إشارة سريعة مفاجئة يكتشف نفسه رومانتيكيا ومصالحا بلا قضية. ففي مشهد خطبته لبهية:

"صاحت بهية إنه مجنون يا أبي.

رجل مثلك قادر على تفتيت الجبل يبيع بهذا الرخص، لماذا؟
حدق فيه الرجل بغضب شديد: كف عن السخرية بي وإلا ألقيتك في الخارج.

إنني أود أن أصح خطأ صديقي ومستعد للزواج من بهية.

ينتطلع فهو الرجل بذهول: لماذا تسخر من فقرنا وعجزنا"49.

ومن هذا المشهد الذي هزم فيه ينتقل إلى مشهد أهم يخلع فيه الراوي كل أوصاف المعارك على حركة اللاعبين في كرة القدم حتى يعلن الحكم النصر لفريق منهما. وعند عودة الراوي البطل إلى بلده وجد المطار وقد غرق في أفراح واحتفال ظنها له: "انتبه للرايات الحمراء فدهش. أي نصر يتكلم عنه هذا المجنون في عالم الهزائم. بحق فهو خائف! لقد انتزع فريقنا الكأس"50.

ويقارن هنا بين صراع على كرة وصراع لقمة العيش والحرية في الحي الذي يعيش فيه ومع زملائه من مهتمي السياسة، بل حين يقارن بيته الشعبي ببيت صلاح حين دخله "فوجد أول غرفة بحجم بيتهم"51. ويتيح لنا الراوي

48 - عبد الله خليفة، رواية "نشيد البحر"، ص: 24.

49 - رواية "نشيد البحر"، لعبد الله خليفة، ص: 29.

50 - المصدر نفسه، ص: 36.

51 - المصدر نفسه، ص: 48.

التعرف على الشخصيات بالعودة للماضي (فلاش باك) لتتعرف على حسن وأمه العجوز، وعلى نجم منصور وعلي محمد الصغير وهي شخصيات ستعيش في الصفحات التالية. لكنه يعود مرة ثانية للحديث عن بهية التي تبيع نفسها. وينهى بذلك الوحدة الأولى من السرد مبينا منابع الشخصية وسلوكها الذي ستستمر به حتى النهاية.

لكنه يبدأ الإشارة للبطلات التالية بعد بهية، ألا وهي "خوخة" التي تستمر حتى نهاية الرواية. لقد عاد دون الحصول على شهادة وكانت أسرته (الأب المريض، والأم المهلكة من العمل، والأخت العاملة) تحتاجه كما تحتاج القروش التي ترسلها ليتعلم. وخوخة تحاول الزواج من محمد الصغير. وفي وقت يملك فيه حسن قصرا، يحول صلاح حياته ويتحول إلى رجل أعمال. ويظهر صلاح مع خوخة مرة أخرى ليصنع ضحية ثانية بعد بهية، حيث يدخل عليهما رجلان وقد سجلا شريط فيديو لهما واصطحباها عارية مغطاة بلحاف. بينما المشهد الثاني في حنة (المعلم) حسن مع صديقه نجم منصور، في قصر حسن الذي يصبح في أوصافه قصور العباسيين أو الأندلسيين. أو كما وصفه الراوي دنيا العجائب السبع.

وبالحس (الكافكاوي) يخرج من قصر الأحلام، إلى جحور الشحاذين، والمنتفضين، في مشاهد مأساوية قاسية تشبه الكابوس، إنه الواقع الكابوس الذي يرينا الراوي العليم بكل التفاصيل زوايا المتعددة: الفقر والغنى، والشرف والخسة، الإخلاص والكذب، التطلع والانتهازية، وهي ثنائيات توزعت في أثناء العمل كله، وهي التي تحكمت في سلسلة المشاهد الروائية المتعاقبة بين الأحياء الفقيرة والأحياء الغنية، الجحور والبيوت البسيطة والقصور، الانقلابات السياسية التي أوقعت الجميع في مأزق، فيما عدا رجال الأعمال الذين اعتصموا بسلطانهم وعاشوا حياتهم صحيحة كاملة، بينما

تحول آخرون إلى شحاذين في كل المواقع الأخرى، أصبح ما يصفه الراوي في مصير الشخصيات خاصة الشخصيات النسائية مثل بهية وخوخة وأخريات يدين الواقع الذي أوقع المرأة في يد الأفاكين والكاذبين يتسترون بالسياسة ويهتكون أعراض المرأة إذن حين تبيع بهية نفسها، وحين تستدرج خوخة للزواج من شيخ يدعي أنه يحميها فتسقط تحت عجلات التجمعات السرية مرة أخرى، فتكون خوخة ضحية الأوضاع الاقتصادية والسياسية في آن واحد، ليس لها اختيار، بينما كان لبهية اختيار من قبل. وسيكون هذا المصير مصير "أميرة" بعد ذلك. بل إن البنات والأمهات اللاتي حافظن على شرفهن وعشن حيوات أهليهن تحولن إلى شحاذات .. وهنا يبدو الواقع الكابوس في مصائر المرأة في هذه الرواية. إنها إدانة للظروف السياسية والاقتصادية، التي ربت الشخصية الانتهازية والمنافقة، التي جعلت من الأخريات ضحايا، ومن الأخريات أضحيات لتحقيق المتعة والتسرف أو تحقيق شروط الحياة الدنيا. وبذلك يأخذ البحر ويأخذ النسر صوراً رمزية تشي بما في البحر والخليج من مشكلات وتضع النسر المطلق دائماً رمزا للمخلص القابع في عمق الراوي، ويحاول الصعود والتحليق فوق المياه كرمز لظهور المخلص، لكنه لا يستطيع في كل مرة أن يخلص أحداً من الرجال أو النساء، بل أخذ موقف الراصد المتفرج الذي يدين ويشجب دون أن يساهم - فعلياً - في كل مشكلة من المشكلات. إنه نسر لا يخلق إلا بأمر الكاتب وفوق المياه دائماً.

ولا عجب أن يأتي الراوي مرة أخرى ليدين الواقع من جديد، ولكنه هذه المرة بدل مباريات كرة القدم التي امتصت مشاعر الشجاعة والحرب، وأعطت بدلاً منها روحاً مرحية من الكرة والتسابق القريب، يدين الراوي هذه المرة استخدام التراث في شكل سباق الجمل حيث يتحول عنتره، وامرؤ

القيس، ولكن الفارس غريب، فقد ركب ديقيد ظهر عنتره، وركب ماكدونالد ظهر امرؤ القيس، أي تحولت البطولة والفروسية، وريادة العشر والكلام إلى يدي غربيين، يجددان السير في السباق وهناك المذيع الذي يصف بلا خجل ما يحدث فيقول: "ولم يستطع المذيع تكلمة صراخه إمالا ابتلاعه الميكروفون أو لبكائه العارم، أو لسقوطه من طابقه المرتفع. ولم يستطع نجم أن يرى شيئاً. الحشود الهائلة الجاثمة بقربه، هبت فجأة ونزلت عدة طائرات عمودية راحت تصور اللحظات الأخيرة من السباق. وخرق صوت طائرة نفائسه طبقات الأرض وطبقات آذان المشاهدين وأطلقت وراءها ذيولاً من الدخان الملون"⁵².

بل يتحول المشهد كله إلى رقصة الحرب التي تستخدم كل أدوات الحرب في غير ما للحرب، ففي الحفل ينادي عريفه:

"أيها الرجال والحريم، لقد أحضرت إليكم عطر الأرض، وأنفاس الأجداد ورائحة التراث. فبعد شهر كامل من الرش بالمياه المعدنية قام بها سرب من الحوامات، وإلقاء بعض العطور الخاصة والمواد الكيماوية بمساعدة السلاح الجوي، وعزف حزين مرير من ألف ربابة، عزل المنطقة عن العصفير والمشردين والمحبين، تم إنتاج هذا النوع المذهل من الفقع ... ولكن لم يعطى أي واحد منكم قطعة إلا إذا اشترك بقوة في رقصة الحرب استعداداً لنهاية الليل"⁵³.

وهكذا يظهر الكابوس حين تسمى الأشياء بغير أسمائها وحين تستخدم أدوات في غير مواضعها. إذن ستكون النتيجة هزيمة تحول الفاعل الحضاري القديم إلى مفعول حضاري حديث فتضيع كل المكتسبات، حيث نجد أم نجم تمارس الشحاذة، لتحصل على ثمن العشاء، بينما أخته سجيناً

⁵² - رواية "نشيد البحر"، لعبد الله خليفة، ص: 153.

⁵³ - المصدر نفسه، ص: 157.

بين رجل معتوه، ولا تدفع رواتب العمال لشهور، ويرى الراوي وهو يخاطب كل الشخصيات قرب انتهاء الرواية، التي يبشر عنوانها بنشيد البحر، وتصدمنا أحداثها بكل ما هو خلاف المظهر. يقول في صورة شعرية تصوغ موقفه من أحداث الرواية:

"لهذا الزمن طعم الرماد. دعني أسكر وأرقص وأسبح في الهواء. موتي يتكلمون، ولغات من قشور الموز اليابس المداس بالجزم، ونمل ينمو فوق خشب يطفو على مياه آسنة. دعني أسكر وأغني يا محمد، وأنت يا ثامر وسالم وظافر وجمعة وعامر وفهد وأقول لكم إننا لم نصنع شيئاً، طرنا ودرنا وغنينا وعدنا إلى الخرابة الواسعة، أعلم أنكم محبطون، وأن أبناء الهزائم تتوارد من كل مكان. لكن هنا في هذه الصحراء المترامية الأطراف ذات المدن الحاشدة، خيمة العرب، هناك شعلة متوقدة ستضيئ الكون كله"⁵⁴.

وهكذا يرى أن ثمة شعلة أخيرة يمكن أن تضيئ هذا الكابوس الذي يسيطر على كل مكان، وعلى كل العلاقات، وعلى سلوك كل الشخصيات والأحداث. أصبحت كل الأماكن فاسدة متخثرة، ليس الهواء فقط، بل الماء العذب والماء المالح، النهر والبحر والخليج، الصحراء والمدن والقرى، ومع ذلك يملك الراوي العليم كل الأمل في جزء من المستقبل.

وينتقل الراوي نقلة جديدة بالشخصيات والزمان والمكان، لنرى شخصيات جديدة تزهر على فضاء الرواية حيث نجد "الملا جعفر رجل الأعمال، وابنته زينب يملك قطعة أرض صغيرة يرفض بيعها، ونجد مهدي ميرزا تسيطر عليه امرأته، وفاطمة أحمد، ونجد مهدي أم غراب القوادة العتيقة المتسولة"⁵⁵. وقد تعرضوا جميعاً لمواقف حاسمة حولتهم إلى مهزومين أيضاً، ولم يجدوا إلا البحر ملاذاً، كما تعود الراوي في لحظات الحسم

⁵⁴ - المصدر نفسه، ص: 183.

⁵⁵ - المصدر نفسه، ص: 194.

الصعبة. ثم تحدث المعركة الحقيقية في البحر، ليس في قرية الصيادين فقط، بل في كل المواقع التي تطل على المياه، وبدأ عهد جديد، فيه محمد الجديد الصغير يحاول أن يكبر ويقود هذه الجماعة، وحاول أن يصل (عبر البرازيل) لمدينة باب البحر المتقدمة المضيئة. ونسمع نجم منصور يخاطب سيد الماس في العالم، كما ضاعت الشخصيات السابقة، ضاع نجم منصور وتحولت أمه إلى صورة محجبة تقوم بأعمال السحر وتعود متصايبة غنية. ولم يكن لدى البطل نجم منصور إلا أن يختار جملة لإعلان في الجرائد يشير إلى قرب نهاية النضال العربي، يقول الراوي:

"سينشر إعلانا في الصحف يقول: مقاتل سابق يبحث عن رفاقه القدامى، رجاء الاتصال بسرعة شديدة، لأنه ليس لديه ثمن الفطور، أليس من الأفضل العودة إلى أمه، ومساعدة خان في تنظيف دور المياه؟"⁵⁶. ذهبت الأحلام الكبيرة، فلا جدوى من النضال والصدقة وخطب المساجد. لقد تحول الجميع إلى رجال أعمال "ياسمين رئيسة جمعية رفق بالحيوان، وحسن وصلاح وجمعة وثامر وفهد وناصر وقاهر وثائر وظافر مؤسسون لجمعية تعاونية.

وينتهي الراوي روايته بعرس خوخة وصلاح بعد تخلصها من يد الشيخ القاسي، وتداعت في ذاكرة صلاح، بعد هذا التاريخ كله صور من عرفهم ومصائرهم. وكان على الراوي أن ينتهي بقوله: "أسقط الكرسي واندفع نحو البوابة"⁵⁷. لينتهي هذه المأساة الكابوس دون أن يشير إلى تغيير في سلوك صلاح المغتصب الدائم الأناني.

إنها أما شخصيات متنوعة، استطاعت أن تشكل الكابوس السياسي والاجتماعي والعسكري والإنساني لهموم الإنسان في مدينة باب البحر،

⁵⁶ - المصدر نفسه، ص: 228.

⁵⁷ - المصدر نفسه، ص: 250.

المدينة التي لم تنشد نشيد البصر حتى الآن. حتى أصبح حلمًا يمكن للقادمين - في يوم من الأيام - أن ينشدوه. إننا أمام رؤية شعرية ورمزية مثلت قناعا روائيا ساح فيه الراوي البطل والكاتب في آن واحد.

ولم تكن الرؤية الشعرية من أجل تجميل اللغة، لأن ذلك ليس هدف الكاتب، إنها رؤية تعطي للنص قدرات إضافية في فهم العالم والنفس البشرية، هي محاولة لتوسيع الدلالة دون الوقوع في ثرثرة التفاصيل، أو الوقوع في المباشر. لقد أعطتنا هذه اللغة عالم متعدد الدلالات ومتعدد المستويات يمكن أن تفسر شخوصه وأحداثه وزمانه ومكانه بعدة تفسيرات وتأويلات فيعطيك ما يمكن أن يكون مشتركا بين قضايا هذا الواقع المحدد (الغربي) وبين المماثل له (في التاريخ القديم) أوفي الواقع المعاصر (في أمريكا اللاتينية) أو ما يشبه ذلك في أي مكان من العالم شرقه وغربه.

لقد تبنى الكاتب عبد الله خليفة مقولة الحرية، وبحث عنها داخل الإنسان وخارجه، ولم يجد ملاذا إلا الغوص بلغة شعرية وكابوسية سحرية في بعض الوقت، ليصل إلى رسالته من هذا النص أنه لا يزال يبحث عن أقاليم الحرية والصدقة، الإخلاص والكرامة فلم يجدها. لذلك يرى العلام مسخرة، ضاحكة، لكنه لا يزال يرى المستقبل في رؤية الأطفال والشباب بل في رؤية محمد الصغير، وفي الجدران التي تهتز بفعل القادم. لا بد أن يتجه الجميع ناحية البوابة وباب البحر، بل لا بد أن يخرجوا من باب الفتوح ويعودوا من باب النصر.

هذه رواية امتزج فيها العجائبي بالواقعي، والشعري بالكابوسي، والواقع بالحلم، وأعطتنا - في نهاية المطاف - ذلك المزيج الروائي الممتع.

الينابيع

رصد الكاتب المبدع عبد الله خليفة في روايته "الينابيع" تاريخ البحرين ابتداءً من القرن الثامن عشر، والتاسع عشر وانتهاءً بأيام الهاتف النقال الحالية، وجعل محمد العواد مدخلا لعصر التنوير، وبداية لتاريخ التدخل الأوربي المباشر في شؤون المنطقة العربية، ومنها البحرين.

ومن البديهيات المعروفة أن كل بلد في العالم بحاجة ماسة إلى ملحمة أدبية، فكرية، فلسفية، وحكاوية تؤرخ تكوينه السياسي، وتكوين شرائحه الاجتماعية، ونضوجه، وتسجل ماضيه الإنساني خلال قرن أو أكثر.

وإذا لم يكن هناك ما يلبي هذه الحاجة الضرورية فالبلد سيبحث عن مؤرخ له، ويبقى ينتظر ولادة المبدع المطلوب ونبوغه لإنجاز هذا العمل الأدبي، فالبلدان الحية بحاجة ماسة لمن يسجل ذاكرتها الإنسانية في جميع مراحلها التاريخية.

ف نجد في عصرنا الحاضر الكثير من هذه النماذج الأدبية الكبيرة إبداعيا، التي آخت بين فن الرواية الحديثة، كما كتبها المحدثون في هذا الصنف الأدبي، والملحمة التي كتبت في اللغات الأخرى شعرا منذ قديم الزمان.

ورواية "الينابيع" لعبد الله خليفة رواية متشعبة الموضوعات، غنية بالفولكلور (التراث الشعبي) البحرينى والخليجى، وهي أيضا تنهل من التاريخ السياسى للبحرين، وتقرأ اجتماعيا واقتصاديا التحولات الديموغرافية في البلاد عبر امتلاك الأراضي ووسائل الثروة والسلطة.

ابتداءً من امتلاك سفن البحث عن اللؤلؤ، في زمن ازدهار هذه التجارة في البحرين ودول الخليج العربى، وحتى أفولها بسبب اللؤلؤ المزيف الذي جاء من اليابان، وانتشر في أسواق المنطقة، وأفقد اللؤلؤ الحقيقي سوقه وقيمه الأولى. وكذلك أرخت الرواية لظهور ثروة النفط والغاز في البحرين، مما

مهّد لتحوّلات سياسية واجتماعية هامة في المجتمع البحريني. أدت بدورها إلى تغييرات اجتماعية جذرية في بنيات المجتمع وطرائق معيشته، ونفسيته غيرت سلوكه وتطلعاته نحو العالم ونظرتيه للتقدم العلمي، وطبيعة الحياة وتقدمها في المجتمعات الأكثر تطورا وغنى، ويرد في مقطع مؤثر من الرواية عن اكتشاف أول بئر نفط الذي ينعته الروائي في روايته بالماء الأسود، ويفرد له جزءا كبيرا من السرد الروائي.

"المهندسون والموظفون يعانقون بعضهم البعض، ويهتفون، وتصيح الآلات المعدنية رسالة لغتها العجيبة عبر الفضاء، ويجمع الأوربيون كرات من الماء الأسود الممزق المتناثر على التربة، ويجرون بها نحو مكاتبهم"⁵⁸. وباكتشاف النفط تمد أعمدة الكهرباء لأول مرة في شوارع المنامة، ويدهش أهلها من رؤية أضواء المصابيح الكهربائية.

محمد العواد

وابتداء من الجزء الأول في الرواية المعنون ب الصوت، والجزء الثاني ب الماء الأسود يهيئ الروائي للجزء الأخير من الرواية "الفيضان"، بسرد التحولات الكبرى في حياة أهل البحرين. وذلك من خلال شخصية محمد العواد، الذي يتمرد على سلطة الأب والعائلة، ويقرر أن يصبح مغنيا في عصر يعتبر أهله الغناء عارا، ومثابة وفي العادة لا تتشرف أي عائلة معروفة في البلاد بانتماء المغني إليها في ذلك الزمن القبلي.

فيعيش حياته معبدا عن كنف العائلة منبوذا من جنتهم، باحثا في أغنام عوده عن بحرين الجديدة تتناغم مع تطلعاته الفنية، وحلمه الدائم بلقاء حبيبته مي، التي يحيل بينها وبينه، وضعها الطبقي الجديد بزواجها من متنفذ غني، فتحيل بينها وبينه أسوار.

⁵⁸- رواية "الينابيع" لعبد الله خليفة، دار الانتشار العربي، بيروت، عام 2012م، ص: 199.

ولكن بالرغم من هذه الأسوار العالية إلا أن صوته من خلال أغنياته، التي يغنيها في الأعراس، والحفلات تصل إلى سمع هذه الحبيبة الحلم.

لقد امتدت أحداث الرواية الملحمة إلى أمكنة عديدة كالمنامة والمحرق، ومومبائي ودلهي ودمشق، وشملت أزمنة عديدة ابتداء من زمن القحط بسبب تغير نمط الاقتصاد على نحو مفاجئ في البحرين بفقدان اللؤلؤ لسوقه، وأسعاره الحقيقية.

ومجيئ الميجر البريطاني بيلى وتبشيريه للناس بأنهم لن يكونوا عبيدا بعد الآن إلى فترة الرخاء والعمران باكتشاف النفط.

كائنات حقيقية:

تتضمن الرواية مشاهد أدبية وصفية قل مثيلها في الأدب الروائي العربي، اتسمت بالشعرية الخالصة، وقد بناها الروائي بحنق الفنان وتأنى المفكر وحرفية النقاش الماهر، والشاعر الملهم مؤسسا على الصور الشعرية، وليس على الحدث الدرامي المتنامي في السرد مبانيه التخيلية، ولا أدري كم من الوقت والجهد استغرقت كل صفحة من النثر الجيد في هذه الرواية من مبدعها؟

كما أن تأملات أبطال الرواية العميقة والصادقة تشي بأنهم كائنات حقيقية، أخذ عنهم الكاتب كل ما تفوهوا به أو فكروا به، وما صادفهم من حوادث ومصاعب وكوارث، وقدمهم للقارئ بمشاهد ساخنة، كأنما حدثت قبل وقت قصير، لا قبل مائة سنة أو أكثر.

ذلك ما نشعره على توالي الصفحات وعلى امتداد 400 صفحة من القطع الكبير عن عشق محمد العواد المستحيل ل "مي" التي اقترنت بأحد المتنفيين، وعلاقته الموازية بأنثى أخرى، والتي كانت مجرد علاقة حسية علاقته ب "في" التي حملت منه سفاحا.

ورفض الاقتران بها مبررا ذلك الرفض بقوله الساخر: "أنا فنان أحلم أن أصعد إلى النجوم لا لأعيش بين بول الصغار"⁵⁹، بالرغم من حب في له، لكنها اضطرت للزواج من النواخذة الكهل سعيد المناعي درءا للفضيحة"⁶⁰.

العربي الكادح: إن وراء رواية "الينابيع" هما وطنيا عميقا يتلخص بسؤال الهوية، والبحث عن حلول لمعايشة التحولات الكبرى التي تمر بالعالم، وتفرض شروطها الموضوعية على أهل البلاد، وحاكميهم لمواكبة التقدم، وبناء مجتمع العدل والرفاهية والمستقبل الأفضل للأجيال القادمة. والينابيع تذكر بواقعية مكسيم غوركي الاشتراكية في روايته "الأم"، وروايات تورجنيف، فهي تتسج نسيجها من الطبقات الكادحة في المجتمع البحريني، فتنقل لنا حياة الصيادين وأقنان الأرض وعمال النفط المياومين والمشردين وفناني الهامش.

وتحاول الرواية من خلال ذلك بناء النموذج العربي للكادح، الذي يراوح بين مفاهيمه البرجوازية المتوسطة، والقيم الطبقيّة، التي استقاها في الكثير من عاداته وتصرفاته بشكل مغلوّط عن الفكر الاشتراكي العالمي.

فنرى تذبذب محمد العواد الفكري حين يدخل قصر معذبه، وسارق حبيبتة "مي"، فيرى القصر متألئنا بالأنوار وحشود العباءات والثياب البيض والخيول، التي ملأت الساحات وبنادق العرضة حين راح أصحابها يطلقون النار على المساء الهابط بقوة فوق الشيطان المقبوضة الروح، فنسمعه يردد في منلوج ما ينم عن ندمه على ماضيه، فهو حين تأتيه الفرصة لدخول بيت أحد المتنفذين يشعر بالمهانة ويتذكر كيف كان يجر إلى القلعة ويوضع في زنزانة مع اللصوص والقتلة، وكيف كان يهان من قبل أي شرطي

⁵⁹ - المصدر نفسه، ص: 65.

⁶⁰ - المصدر السابق، ص: 71.

جلف، لأنه غني كلمات عن الحرية، التي سرعان ما تخرى عنها أصحابها.
جمعة بن العبد:

إن الحكى السردى فى الرواية يفتح على عوالم تخيالية متشعبة، ويحمل فى مضامينه المختلفة دعوات للتعايش بين الثقافات والديانات، ونبذ التطرف، والاستغلال الطبقي، والجهل والتخلف.

إذ بالرغم من أن الدعوة للتحدث فى المجتمع البحريني الناشئ بدرت من أجانب كالميجر البريطانى "بيلي"، وسكرتيره "جون سميث" الذى ادعى: "أنه عالم آثار دنماركى جاء لبحث فى آثار ديلمون وتاريخها"⁶¹. فيعجب بأهل البلاد وتقاليدهم، ويعتبر أن حياتهم أفضل بكثير من حياة الغربيين فيقول عنهم إنهم يتصرفون ببساطة مذهلة، يجلسون على الأرض وتتدفع أيديهم فى الأرز يكورونه ويقذفونه فى أفواههم، ويحكون القصص والأشعار طوال الليل عند الشيطان، وفى الساحات الرملية.

وتسمع أصوات مضاجعاتهم من وراء السعف الرقيق، وكل إنسان يسلم على الآخر الغريب ويصادقه فى دقائق، ويدعوه إلى أكله، فيقبل الآخر دون خجل، وعادات زوجته "مارجريت" المدمنة على قراءة مسرحيات شكسبير ومارلو، وقصص ديكنز وبلزاك وتولستوي والمهتمة بأساطير الشرق، إلا أن سرعان ما يتلقف بعض أبناء البحرين هذه الدعوة ويدعون إليها.

ومن هؤلاء جمعة بن العبد الذى يفخر بالحرية فى بلاد الميجر الأجنبية، والذى يتلقف دعوة المستير بيلي للتحرك من ديون المرابين والتجار الذين كانوا يستعبدون الناس بديونهم التى لا تنتهى بسبب الرباء، وعدم إيفاء رحلات صيد اللؤلؤ بسداد الديون المتركمة على الصيادين والفقراء العاملين فى صيد اللؤلؤ.

⁶¹ - رواية "الينابيع" لعبد الله خليفة، ص: 104.

يقول مستر بيلى للناس: "ستحصلون على كل شئ. لن تكونوا عبيدا بعد الآن. ألقوا بهذه الأوراق الحقيرة التي سجلوا فيها الزور والديون والقيود"⁶².

البحرين قارة كبيرة:

ولا يكتفي الروائي بإيراد مبادرة هذا الإنجليزي بل يسرد ممارساته الحداثية داخل مجتمع البحرين البدائي قبل أكثر من قرن، فهو يمارس فعلا حدثا لم يسبقه إليه أحد في البلاد حين يدخل للبلاد السيارة إلى البحرين لأول مرة، فتحدث ردة فعل عنيفة عند أغلب الناس، الذين اعتادوا على الجمل والفرس والعربة، التي تجرها الخيول، والحمير في تنقلاتهم. فيقول الروائي واصفا تلك الدهشة وعدم تصديق الناس لما يرونه حين يدخل الميجر بيلى السيارة أول مرة إلى البلاد فيندهش الناس لرؤيا هذا الكائن المعدني الذي يسير من دون مسيرة مستر بيلى، الغرائبية في مجتمع أمي بدأ ينهض ببطء من كبوة التخلف والفقر وحتى نهايته المفجعة عندما أصيب بطلق ناري من مجهول فيما بعد.

فلا شك أن رواية "الينابيع" للمبدع عبد الله خليفة عمل روائي كبير رسم مسارات إنسانية لعشرات الأبطال من الناس العاديين من البحرين عاشوا حياتهم في قاع المجتمع، وآخرين في أعلى قمة المجتمع، والرواية تؤثر كثيرا على القارئ، الذي لم يعرف عن البحرين من قبل كثيرا وتجعله يفكر، ويعيد التفكير في الكثير من مسلماته السابقة عن بلاد صغيرة جغرافيا، بنفوسها القليلة نسبة للبلدان الأخرى، لكنه سيجدها في رواية "الينابيع" بلادا كبيرة جدا وأكبر بكثير من قارة بأهلها وتاريخها، وحب كاتب الرواية لها.

⁶² - المصدر نفسه، ص: 31.

التمثيل

في لغة تفاعلية بين الفكرة والصورة، وبين الصوت السياسي والاجتماعي، والتأليف الجمالي الشعري، يسعى الكاتب البحريني عبد الله خليفة لإرساء بناء روائي لا ينقطع عن إحالته الواقعية والتاريخية، ومرجعياته الأيديولوجية. فمناط الكاتب في روايته "التمثيل" كما فيما سلف من قصصه ورواياته، قضايا اجتماعية وفكرية، ينطلق منها لكشف مرتكزات وأشكال الاستغلال الاقتصادي والزيغ السياسي، ومرد التلوث الأخلاقي والسلطوي، والإضاعة على عالم المفارقات والتحويلات. وتتراوح رواية عبد الله خليفة بين استرجاعات فردية وجماعية، واستدمجات واقعية وحلمية. وتفتح على اليومي والمعيش، كما على التاريخي والأسطوري. كذلك يتداخل المونولوج مع الديالوج، أو بعبارة أخرى، يتحول الديالوج في الغالب إلى مونولوج، ليشكل بؤرة ذاتية وشعورية ومتفجرة، تتكون من خلالها لغة وجدانية شاعرية، وهذانية في أغلب الأحيان. وهذا التداخل يلائم وضعية بطله "حسان" المتوحد والمتوتر والمفجوع بعالم يتداعى أمام نظريته، وتتراخى فيه التقاليد والأعراف والسنن. وتنبثق عن هذا الانهيار ظواهر وسلوكيات اجتماعية وأوضاع سياسية متردية، تنعكس على عقله ووجدانه. فلا يرى مناصم من رثاء زمنه الضائع، والتشبث بأطيافه المترجعة.

فالروائي البحريني عبد الله خليفة في روايته الجديدة "التمثيل" يؤشر لنا مدى أهمية هذا الجنس الأدبي في فهم المجتمع البحريني، خاصة والمجتمع العربي عامة، الذي ينتمي إليه الروائي ويعبر عنه أدبيا، فالرواية التي يكتبها الكاتب تحيلنا دائما إلى الحلم، والنظر إلى الواقع من خلال حلم ثري بالصور تبدو من خلاله تفاعلات المجتمع البحريني، وتطور مزاج الناس،

وصعود مفاهيم اجتماعية معينة واندثار مفاهيم سابقة كانت سائدة، كما أن الوجوه دائمة التغير والمواقف كذلك، ولا شئ ثابت على حاله مطلقا، وثمة حركة ديناميكية، تحرك الأبطال والمصائر، إنه يعطيك صورا من واقع الحياة البحرينية لا كما هي بل كما تنبت الأرض الأشجار المثمرة من مكوناتها الأولية، فتري برتقالا وكثرى وتمرا برحيا، وأوراقا خضراء وزهورا يانعة، وكل ذلك أتى من تراب الأرض وعرق الناس. وذلك ما يفعله الفنان الصادق، الحقيقي مع نفسه ومع فنه، شكلا ومضمونا، إنه يأخذ مكونات رواياته من شخصيات الحياة البحرينية البسيطة، ويملأها بالآمال والأحلام، وحب الحياة، ثم يجعلها تعيش حياتها، وسط المطامع وصراعات المجتمع، ويضعها على الورق كما هي في نقائها وخبثها، فقرها وغناها، وبساطتها وعقدها النفسية، ولا يفوته أن يضع جملة ساخرة هنا ونكتة هناك، وهو يسخر دائما من أبطاله ومن الناس، ومن الحياة، خيرها وشرها.

كتابة عبد الله خليفة الفكهة، تجعلنا نقف أمام مبدع استطاع عبر السخرية، والنكتة، والمفارقة الاجتماعية، والتعليق الفكه، أن ينقل لنا آراءه بالحياة وموقفه من الخير والشر في المجتمع، فهو على سبيل المثال يقدم لنا صديقه ياسين كافود في رواية "التمثيل" تقديما كاريكاتيرا، فانظر كيف قدمه للقارئ: "كان ياسين كافود غريبا وظهر فجأة إلينا كأنه غدا ممسوسا. صحيح إنه كان طفلا نزقا، كثير الحب للأكل وسرقة البيض والكعك من الدكاكين، لكنه يظهر بغتة هادئا، صامتا، وينزوي عند الشاطئ، ويتوارى في غرفته، ويدمن القراءة، فهذه كلها كانت علامات لدينا على الخلل!"⁽⁶³⁾. أو قوله عنه حين اختار دراسة الطب البيطري في جامعة خارج البحرين: "وسمعت أن بعض أصحابنا حاولوا ثنيه عن هذا التخصص، حيث لم يكن

⁶³ - رواية " التمثيل" لعبد الله خليفة، ص: 5.

يرسل حيناً طائراً أو حيواناً ما إلى العلاج، بل إلى المسلخ أو القدر، ولعل ذلك بسبب شقاوة طفولته وكثرة قتله للقطط والكلاب في الحارة، حيث كان يتفنن في شنقها. أو كما يصف والده: "لم يكن أبي ذا قيمة في المجتمع، فعامل بسيط أمي ماذا يمكن أن يقدم لابنه؟"⁶⁴.

أو قول مسؤوله في العمل في المحاكم، وهو يوصيه عن حكمة العمل في وظيفة حكومية: "دعك من كل هذه السوالف، وركز على قبض المعاش آخر الشهر وكفى بالله حسيباً، ثم طوى بشته تحت ساعده وخرج كطائر الفينيق"⁶⁵. أو قوله عن يومه الأول في الوظيفة الحكومية: "كان للوظيفة دوي مخيف في حياتي، ويوم أن قبلت واستعددت للخروج لأول نهار عمل، كان إخوتي وأمي وأبي في لحظة تجل تاريخية، أحاطوني من كل جهة، ونظروا لثوبي، وعلقوا على غترتي التي لم تكن مكوية بشدة، وأعطوني عطرا وورقة مالية صغيرة، بعد أن قدموا لي لأول مرة فطوراً، ولم يتعاركوا معي!"⁶⁶. أو قول الكاتب عن بدرية البدنية التي ستكون المرأة الأولى التي تبيعها الهوى العابر، عند غياب زوجها: "رأيت بدرية تتحامل على نفسها لكي تعبر مسطحاً مائياً صغيراً، قلت في نفسي: هذه امرأة تصلح لمثل هذا الشتاء الكئيب!"⁶⁷. وهذه البدنية ستكون في السنوات القادمة هي ونسلها من الإناث العمود الفقري لحياته الجنسية، إذ لا يعرف غير نسلها من بنات حواء ليقيم معه علاقة، كأنها لعنة صبت فوق رأسه، يقول عن لقائها الأول بها: "وقد حسبت بدرية أنها معجبة بفتوتي وفحولتي دون خلق الله أجمعين، ولكن المرأة حين تمكنت من الانفراد بها قرب مزبلة الحي، فأجأتني بالسؤال عن السعر، بل طرحت سعراً مرتفعاً، وأنا الذي

64 - المصدر نفسه، ص: 11.

65 - المصدر نفسه، ص: 12.

66 - المصدر السابق، ص: 15.

67 - المصدر نفسه، ص: 17.

كنت أتسلل إلى غابة الأكواخ وأدفع أقل من نصف روبية وأعتبره قيمة عالية، فإذا بها تطالب بخمس روبيات دفعة واحدة، وهي بذات البرميل من الشحم واللحم المتكدس"68.

ونرى من خلال تتابع الأحداث في الرواية تطور المجتمع البحريني، وتقدمه المادي، بسبب طفرة أسعار النفط في السبعينات من القرن الماضي، وبروز ظواهر اجتماعية جديدة كجئ العمال والوافدين من دول آسيوية وعربية للعمل في البحرين، من خلال انتشار العمارة والبناء العمودي في البلاد، واختفاء البيوت الصغيرة التي كانت تؤوي العائلات الفقيرة في الخمسينيات والستينيات، وبدلها صارت بنايات من عدة طوابق مؤجرة للعمال الوافدين.

تنقسم الرواية إلى 42 فصلا، والكاتب يستخدم تقنيات روائية متعددة في عمله، فهو يستخدم السيرة الذاتية، فتبدو الرواية كما لو كانت سيرة لحسان يوسف تحكي حياته من الطفولة حتى بلوغه الكهولة لتختم بدخول السجن في قضية تؤدي بصاحبها إلى الإعدام أو السجن المؤبد، وهي أيضا سيرة لياسين كافود غير مكتملة، تحكي صاعده وتحوالاته الدراماتيكية من بطل في مجموعة ثورية لم يسمها المؤلف إلى سارق آثار، ومن كاتب تهمة أحوال الناس، ويرغب في جعل حياتهم أفضل مما هي، إلى صاحب مؤسسة صحفية ودار نشر، واعتماده أهم قواعد الميكافيلية الفلسفية والبرجماتية في إدارتها وشعاره الأوحده: الغاية تبرر الوسيلة، وحتى نهاية السيرة، كذلك استخدم الكاتب تقنيات الرواية - اللارواية - فالرواية لا تنهج أي المناهج الروائية المعروفة، بل هي أقرب إلى اليوميات التي يرويها راو عارف بكل شيء، فهو يكلمنا عن وجهة نظره حول الآخرين، ولم يسمح لأحد غيره أن يحدث القراء عن وجهة نظر مغايرة، فنحن لم نعرف من

68 - المصدر نفسه، ص: 19.

"نرجس" زوجة ياسين دوافع خيانتها لزوجها مع حسان حين كان في السجن وهل أحبته حقاً؟! أم الموضوع برمته من خيال حسان، ولا نعرف أيضاً ما هي مبرراتها لقبولها به زوجها لابنتها ندى وهو أبو أخيها علي منها! والأخير هو ثمرة الخيانة التي وقعت والزواج في السجن، وكذلك استخدم الكاتب في نصه ما يسني المتواليات القصصية، ضمن النسيج العام للعمل، فهناك قصة علي البحراني الموغلة في القدم، وقصة عبد الحسين العارف بأمكنة الآثار وخرائطها وأسرار تواريخها ومواقعها حتى تصير هذه المعرفة وبالاً عليه فيقضي بالسجن على يد ياسين كافود بدس السم له، أسمعه يخاطب ولده كريم عبد الحسين: "ماذا فعلت لك؟ لم أقتل أباك بل ياسين هو الذي فعل، دس مواد كيميائية في أكله، وقلت لك ذلك ولكنك لم تصدقني وقدتني إلى الخرابة"⁶⁹. والراوي يستخدم المونولوج الطويل، الذي يحيلك إلى لغة الحلم، ويستخدم الدايولوج، المشبع بكلمات دارجة بحرينية، كأنما ينقلك من تحليقتك في السماء إلى أرض الواقع الصلبة.

والرواية التي أرغم أنها من نوع روايات "الحساسية الجديدة"، التي كتبها كتاب مثل إدوار خراط في نصه الرائع "يابنات الإسكندرية" و"رامة والتين" وإميل حبيبي في نصه "المتشائل" وغيرهما. وأرغم أن الكاتب تجاوز أساليب هذه الحساسية ونجح في نقل القارئ إلى عالم غريب غير معهود، لم يسبق لكاتب عربي آخر أن كتب عنه، أو حكى فيه عن مصير الإنسان، الذي لا يستطيع أن يقول لا للمغريات التي تعرض عليه، ولا يعرف فضائل أن يقول لا في بعض الأحيان، ولو أنه قال: "لا" لياسين كافود منذ أول لحظة طلب فيها منها خدمة، لتجنب كل المصائب التي أحاطت به وأحالت حياته إلى جحيم حقيقي. تبدأ رواية "التمثيل" بـ "حسان

⁶⁹ - رواية "التمثيل" ص: 182.

يوسف" ابن العائلة البحرينية الفقيرة، وهو يبحث عن حياة أفضل، له ولعائلته، وتنتهي الرواية به، وقد عاش حياة كاملة في وحل الحياة، فقد عاش موظفا صغيرا في توثيق المحاكم ثم طرد من عمله بعمل خسيس من صديقه ياسين، ودخوله السجن، ومن عابر لذة مع امرأة هوى غليظة تخون زوجها، "بدرية" إلى عشيق لابنتها المتزوجة من صديقه ياسين، ويتردى أكثر من ذلك فيصير زوجا لابنتها ندى، التي أنجبت له فاتن، وهي بعمر بناته، وهناك شك مريب لديه بأنها أخت "علي" ابنه من أمها، ويقضي حياته من سجن إلى آخر ومن تهمة إلى أخرى، وانتهى في النهاية نهاية تراجيدية في المستشفى، والشرطة تلقي عليه القبض بتهم عديدة، أولها الإرهاب وآخرها سرقة أموال، وحياسة آثار تاريخية تعود للبلاد.

وكما قاده صديق طفولته وشبابه ياسين كافود، إلى ما هو عليه من وضع سيئ، فإنه يطل عليه أيضا في نهاية الرواية كما يفعل الشيطان عادة قبل الموت ليعرض عليه أن ينقذه، مقابل ما يريد أن يميله عليه، إنه يشبه الشيطان الذي يطلب روح من يوشك على الموت ليغلق بوجهه الأمل الأخير برحمة وغفران من الله تعالى، أسمعته يقول له وهو في المستشفى، والشرطة تحيط به: "اندفع نحوي ياسين، السلامة يا أخي، لن يخرجك أحد من هذه الحبسة سواي. أصبحت عنقك مهددة الآن. لدي مشروع لا يمكنك إلا أن ترحب به في مثل وضعك البائس من كل جهة، هذه آخر فرصة لك.. لدي أوراق"⁷⁰. وياسين كافود الذي اشتهر فيما بعد بياسين الفينيقي، قاد صديقه السابق إلى الضياء التام وخسران وظيفته البسيطة بنشر ما كان يزوده له من معلومات عن ملكيات العقارات وأصحابها، في مقالاته وبعد ذلك بنشر مقال باسم صاحبه الصريح، مما دفع إدارة المحاكم للتحقيق معه

⁷⁰ - رواية "التمثيل"، ص: 183.

وطرده من عمله، كموثق في المحكمة، وبعد ذلك أدخله السجن بتهمة بيع الآثار. رواية "التمثيل" للروائي الراحل عبد الله علي خليفة من الأعمال المتميزة له، وقد استطاع أن يحرك لقراء روايته الذين عاشوا في البحرين في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، والذين غابوا في طيات الماضي، وجعل القارئ كأنما يتابع فيلماً، بلغة تصويرية شفافة ومقاطع نثرية تقترب في وصفها للشخصيات إلى شخصيات حقيقية، لا يزال قسم منهم يعيشون ويمارسون حيواتهم، بعضهم تحول من السيئ إلى الأحسن والقسم الآخر بقي على حاله متبوعاً بإدانة الكاتب ورفضه له.

محمد ثائرا

لا شك أن هذه الرواية غوص حميم غنائي سردي في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، حيث تتجسد البطولة في المفردات الإنسانية الطفولية الأولى، وتنمو بشكل درامي مع الواقع والآخرين، في نأيه عن عبادة الأحجار والتحامه بالمغمورين من البشر، وبنذور المعرفة والنضال، وفي تساؤلاته وبحثه عن طريق متحضر لجماعة غارقة في التخلف والتمزق. هي رواية محمد الإنسان، في حبه لزوجته خديجة الكبرى رضي الله عنها، ونمو علاقتهما وسط الوثنيين، وفي عملهما المشترك المضني المتصاعد. ويتجسد من جهة مضادة الوثني الأناني الاستغلالي المتخلف، الذي يريد كرسيا ومكافوق رقاب البشر، ويستعين بكل شئ لوقف التقدم والحرية ودولة الجمهور.

يقسم الروائي البحريني عبد الله خليفة سرده في هذه الرواية إلى خمس وخمسين فصلا قصيرا، وهو التكنيك الذي دأب على استخدامه في معظم رواياته السابقة، ابتداء من الأقف، التماثيل، ذهب مع النفط، وغير ذلك من الروايات التي تناولت سيرة الخفاء الراشدين، وقد أعطت هذه التقنية الروائية للكاتب المبدع حرية التنقل السريع بين شخصيات روايته، كما يفعل عادة كتاب السيناريو السينمائي، مما يعطي القارئ صورة شاملة عن الحدث في أماكن عدة في زمن متقارب، كما يتيح معرفة واسعة لدخيلة كل شخصية، ولم يبتعد الكاتب عن السيرة الحقيقية لأبطاله بالرغم من أن الرواية غير محكومة بالتوثيق، وغير مسؤولة عن صدق ما تروييه من أحداث، فهي تنقل رؤيا المؤلف، حول موضوع مهم أثره على غيره، ليقول لنا عبر ما يمتلكه من فن روائي، ما عجزت عن تعبير باقي الفنون البلاغية. والرواية العربية التي بدأت تميل في عقدها الأخير إلى تسجيل

السيرة، وروايتها، إن كانت سيرة الكاتب ذاته، أو سيرة لشخصية مهمة تماهى معها الروائي، وجعلها تعيش حلمه في الاعتناق من واقع ما، والحلم بواقع آخر أكثر حرية فيه لشخصه، وهذا بالضبط ما فعله الروائي في هذه الرواية، فنقرأ في الرواية شخصية النبي الكريم ﷺ الثورية، التي جاءت في زمن راكد، تتقاسمه إمبراطوريتان قويتان هما: الإمبراطورية الفارسية والرومانية، وبينهما مكة البلد الفقيرة النائية، قليلة الموارد، في صحراء جزيرة العرب القاحلة، وقد زهد في احتلالها الفرس والرومان لأنها شحيحة الموارد، قاسية الطبيعة، لقد استطاع الكاتب عبر مونولوجات مركزة في داخل الشخصيات، وحوارات بين شخصيات الرواية، وتقنيات روائية سردية، أن يوضح لنا هذا الجانب الثوري في شخصية الرسول الأمين عليه التحية والتسليم.

* الغرائق العلى:

يتفاعل السارد والمحكي عنه والمتلقي في صنع أحداث الرواية، ومرة يتحدث السارد فيروي حتى نشعر أن السارد شخصية من ضمن العمل الروائي ثم يلوح في لحظة ما خلال القراءة أن السارد هو الروائي ذاته، وفي الحقيقة هذه الطريقة من السرد تجعلك في يقظة دائمة، لمتابعة الشخصيات في لحظات تأزمها الذي تعيشه، وتنبهر بشخصيات كالسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، التي كانت ذات ثروة بحق من نوات ثروات وأموال بمكة، وكانت قد وضعت جميع أملاكها وأموالها تحت قدمي الرسول ﷺ لخدمة الدين الحنيف، حتى أنها في مرة من المرات طرحت ما تملك من مصوغات ذهبية، وحلى ثمينة حتى غطت المسافة بينها وبين الرسول ﷺ، وكانت لكي تنظر إليه تميل برأسها إلى جانب التل الذي صنعتها تلك المجوهرات، لكي لا تحرم من رؤية النبي الكريم ﷺ، بسبب تل

الجواهر ودنانير الذهب والفضة ذاك، وكانت تقول له: "أموالي تحت قدميك يا رسول الله ﷺ، فتصرف بها ما شئت"⁷¹.

وفي مقطع مؤثر من الرواية يروي الرسول ﷺ لزوجته خديجة الكبرى رضي الله تعالى عنها عن الرسالة التي كلف بها من الله عز وجل، فتقول له، مصدقة ما نزل على محمد ﷺ: "والله إنك لرجل خير، تصل أهلك وتعطف على الناس، فأنت الجدير بالنبوة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله"⁷².

وتنقل لنا الرواية ما نقلته قريش عن رسول الله ﷺ من إشاعات كاذبة لتبرير غرورهم، وصالفهم وتمسكهم بشركهم، فادعوا: "أن الرسول الكريم عاد إلى شركهم، ومجد آلهتهم واخترعوا له قولاً قاله، ووصفاً مجد به أصنامهم، بقوله بأنها الغرانيق العلى"⁷³، ولكن الرسول ﷺ، الذي لا يقول إلا ما يوحى إليه من الله الأحد الصمد، هيهات أن يقول هذا القول، الذي يدحض رسالته التوحيدية، فتبرأ لهم مكذبا ومعه الصحابة، الذين آمنوا بمحمد بن عبد الله ورسالته السامية.

* مقابلة كسرى:

لقد أحب الكاتب البحريني عبد الله خليفة شخصياته الروائية حبا جما، وتابع شؤونهم الصغيرة والكبيرة في المتن الروائي مما خلق ألفة حقيقية بين القارئ، وما تعيشه الشخصيات من أحداث، فشخصيات مثل ميسرة، خادم خديجة الكبرى وبلال وعمار بن ياسر، وأبي طالب، وورقة بن نوفل، شخصيات تشعرها تنفس على الورق، وتعيش الأحداث كأنما تؤدي دورها، الذي قامت به قبل قرون، ولكنها تؤديه هذه المرة على الورق، مخلوقات تتألم وتحلم، وتعيش حلمها، وتصنع نضر الثورة على ما تعيشه قريش من

⁷¹ - رواية "محمد ثائرا" لعبد الله خليفة، ص: 121.

⁷² - نفس المصدر، ص: 143.

⁷³ - نفس المصدر، ص: 175.

وثنية، وتردي حياة معظم الناس الاجتماعية في ظل بطشهم وظلمهم، للفقراء والعييد، وانعدام الكرامة الإنسانية للإماء والنساء عامة في ظل جاهليتهم، وفي جهة أخرى نرى شخصيات كهشام بن الحكم، وأبي سفيان، والمغيرة، وهم يتنافسون لكي يصير أحدهم ملكاً على مكة، ويسافر أبو سفيان ومعه المغيرة إلى بلاد فارس، ويقابلان كسرى على أمل أن يعترف بأحدهما ملكاً على مكة من دون أن يكلف نفسه احتلال مكة، وقد حملاً إليه هدية، هي "التمر واليقظ وسط ضحكات حاشية كسرى"⁷⁴، لبؤس الهدية، وقلّة قيمتها لدى الإمبراطور الفارسي، الذي أخبرهما بزهد في بلادهما، وهي الصحراء التي لا زرع فيها ولا ماء ولا كلاً ولا وجه حسن، وأهدى كلا منهما ثوباً، وسط سخرية الحاشية بالتاجر العربيين.

* السهل والصعب:

تبدأ الرواية بولادة الرسول الكريم ﷺ، وتتناول حياته في مكة قبل البعثة النبوية المشرفة، وبعدها وصراعه وأصحابه في المدينة المنورة مع اليهود والمنافقين، وتتوقف أحداث الرواية بعد معركة بدر الكبرى، وانتصار المسلمين فيها، وتنتهي بجملة معبرة عما حدث بعد ذلك، ومؤشرة لانتصار كبير حققه المسلمون فيما بعد فتح مكة، ومشى في الملك العريض فقيراً بسيطاً عادلاً⁽⁷⁵⁾.

رواية "محمد ثائراً" إحدى أهم الروايات التي كتبها عبد الله خليفة، فقد أعادت الحياة لعادات وميثولوجيا مندثرة، كما أن موضوعها السهل والصعب في الوقت نفسه، يصعب على الكثيرين ممن كتبوا الفن الروائي في الوطن العربي، فإعادة الحياة كما فعل عبد الله خليفة في هذه الرواية، لمجتمعات مضت على اندثار عاداتها، وميثولوجياتها، وما كان يعيشه أهل مكة في

⁷⁴ - المصدر نفسه، ص: 65.

⁷⁵ - المصدر السابق، ص: 223.

الجاهلية من أحوال وأفكار وقيم، فهي مهمة عسيرة حقا، وتتطلب من الروائي بحثا دؤوبا لما كتب عن تلك المرحلة، وما كان يعيشه الناس في تلك العهود البعيدة، ومن مزايا الرواية الأخرى أن عبد الله خليفة جعلنا نتلمس شخصية الثائر على القيم القديمة، والظلم الاجتماعي في شخصية الرسول الكريم ﷺ، كما أنه استطاع أن يجسد الروح الإنسانية، والأخلاق النبيلة التي اتصف بها النبي الكريم ﷺ خلال صراعه مع أعدائه من مشركي قريش وكفار مكة⁷⁶.

⁷⁶- راجع فيصل عبد المحسن، جريدة "الزمان الدولية"، العدد: 4178، التاريخ، 19 - 4 - 2012.

علي بن أبي طالب شهيد

تتناول رواية "علي بن أبي طالب شهيدا" لكاتبنا البحريني عبد الله خليفة فترة من التاريخ الإسلامي وسير رجاله غمضت تفاصيلها على الكثيرين، ولم يقتصر الغموض، واختلاف الروايات على الناس العاديين فقط، بل غمضت حتى على الباحثين في شؤون تلك الفترة.

وبالرغم من الكاريزما التاريخية المشعة، لشخصية الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، التي تناولتها الرواية، وبالرغم من مهارات المؤلف الروائية، المشهود له بها، ولغته المؤدية، فقد كتب من قبل رواياته المهمة "محمد ثائرا"، "عمر بن الخطاب شهيدا"، "رأس الحسين"، "التمثيل"، "ذهب مع النفط"، "الينابيع"، "الأقلف"، و"ساعة ظهور الأرواح" وغيرها من الروايات والمجموعات القصصية.

إلا أنه في هذه الرواية ظل مغلول القلم، لأنه كان حائرا لا يعرف من أي زاوية من حياة هذه الشخصية يبدأ، بسبب سعة أبعاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقوة تأثير سيرته في صنع التاريخ إلى عصرنا الحاضر، وهكذا شخصية مؤثرة تدخل على العمل الروائي ستحيله حتما إلى سيرة، مهما اجتهد الكاتب في جعلها رواية كما يريد، تحتل أحداثها الخيال، والإبداع الأدبي.

مجازفة كبرى:

لقد خاض الروائي بحرا غائر الأعماق، واسع الضفاف، كثير المخاطر، مملوءا باللؤلؤ والمرجان، والأحجار الكريمة، والأمواج الخطرة، والأسرار، وباختياره شخصية الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليكتب عنها فإنه اختار الطريق الأصعب في كتابة الرواية. فهي أولا وأخيرا مجازفة كتابية كبرى، لا يجرؤ على الكتابة في شؤونها إلا قلة من العارفين

في تاريخ الدعوة الإسلامية، والمتابعين لحيوات أوائل الدعاة إلى التوحيد بعد رسول الله ﷺ، ولا يقدم على هذا العمل إلا أديب كثير الجرأة واسع الثقافة تجشم عبور المصاعب والمزالق الخطيرة.

ولا تهمه في قول كلمة الحق لومة لائم، وكتابة من هذا النوع، فإنها إما ترفع كاتبها إلى نرى الإبداع أو تطيح به إلى مهاوي اللعن والرجم من قبل كثيرين.

لقد وضعنا الروائي منذ الصفحات الأولى للرواية أمام إشكالية حقيقية، هي قرب الإمام من رسول الله ﷺ، منذ طفولته، والتصاقه به، فهو قد كبر في بيت النبي ﷺ، وتعلم منه، مما جعل له الكاريزما الدينية والحياتية، المعروفة لنا على مر التاريخ. وربما ما طرحه النص وما هدف إليه، ويمكننا أن نتناوله كثيمة رئيسية للأحداث، هو ما جاء في بداية الرواية التي فيها ذكره منذ كان فتى وهو يقاتل، منذ أن ضحك القرشيون عليه وهو يرد على النبي ﷺ حين سأل متصفاً الوجوه بين عصبتهم: "من معي؟ فهتف هو أنا معك يا رسول الله!"⁷⁷.

سيف مسموم: فالثيمة الرئيسية في الرواية تتناول هذا الجانب العقائدي والحياتي لشخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من خلال قوله أنا معك يا رسول الله ﷺ وهذه المعية هي التي رسمت بقية حياة علي رضي الله عنه في الحياة الحقيقية والروائية. وما أسبغته على شخصيته من رضا البعض، وحسد الآخرين، الذي تحول إلى بغض وعداوة.

والرواية تتناول في خمسة وستين فصلاً حياة علي رضي الله عنه منذ طفولته وحتى استشهاده، بضربة غادرة من سيف مسموم لابن ملجم أثناء إقامته لصلاة الفجر في مسجد الكوفة خلال شهر رمضان من عام 40

⁷⁷ - رواية "علي بن أبي طالب شهيداً" لعبد الله خليفة، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ص: 8.

هجرية، بعد أن أغرته قطام بالزواج منها وطلبت أن يكون دم علي رضي الله عنه مهرها. وهذه القطام من الخوارج امتلأت بروح العداوة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب بسبب فقدائها لأخيها وأبيها في معركة النهروان، التي خاضها جيش الخليفة علي رضي الله عنه ضد الخوارج، الذين خرجوا على جيشه بعد التحكيم أثناء معركة صفين ضد جيش معاوية بن أبي سفيان والي دمشق في ذلك الوقت.

وتعددت قراءات الروائي عبد الله خليفة لشخصية علي رضي الله عنه في رواية شهادته، وذلك من خلال، نثر بارع، وجمل قصيرة مؤثرة، ووصف جميل، ذكرنا بعين الكاميرا، التي تنقل الأحداث، وما يدور في المدن والبادي والمدامر من خلال فصول نثرية قصيرة كتبت بروح الشعر.

الفتنة:

ومن هذه القراءات نقرأ أمير المؤمنين كفدائي يحمي رسول الله ﷺ بالنوم في فراشه ليلة هجرته المشرفة إلى المدينة المنورة، واعتماد الرسول عليه الصلاة والسلام عليه برد أمانات أهل مكة، التي كانت مؤمنة لدى الرسول الكريم ﷺ لهم قبل هجرته.

وهي قراءة مستقبلية لحياة علي رضي الله عنه كأمين على عقيدة المسلمين وأموال الناس، لأنه جعل حياته فداء لرسول الله أو بمعنى آخر جعل نفسه فداء للدين الإسلامي من خلال فدائه لحياة الرسول ﷺ وصار أمينا على أموال الناس، أي على حياتهم الدنيوية، التي تركها الرسول ﷺ في عهده.

يمر على هذه القراءات من خلال حوار أو سرد أو يرد تضمينا في الرواية، ويقرأ ما عاشه علي رضي الله عنه من ظروف اجتماعية وثقافية وتاريخية مختلفة قبل الهجرة وحتى نهاية العقد الرابع الهجري. ونقرأ في تلك الفترة ظروف الفتنة التي أدت إلى استشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي

الله عنه، وإرسال علي رضي الله عنه ولديه الحسن والحسين رضي الله عنهما للدفاع عن خليفة المسلمين عثمان رضي الله عنه، واجتماع الصحابة على مبايعة علي بن أبي طالب كخليفة للمسلمين.

ورسم الروائي بعباراته الرائعة المؤامرات والدسائس التي حيكّت في المدينة المنورة لإحداث الفتنة بين المسلمين بعد استشهاد الخليفة الثالث، فيقول ابن عامر: "نعم، نعم... ولكن من نحن؟ نريد وجوها كبيرة من الصحابة، يثيرونها معنا، ودون معاوية والزبير بن العوام وطلحة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ولن تستعر النار"⁷⁸.

الحكم والمال:

يستخدم الروائي تقنيات المنالوج والديالوج بمهارة، وينتقل من رسم أجواء المعارك، وما يدور فيها إلى ما يدور في خيام المحاربين ليلا من أحاديث، وينتقل بالقارئ إلى مدن البصرة ودمشق والكوفة، لينقل له من خلال أزقة هذه المدن وحواريها ما يدور على لسان العامة من أحاديث وتعليقات. ولا تهدأ المؤامرات في مختلف أنحاء الجزيرة العربية والشام والعراق منذ تولي أمير المسلمين علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة، ويحلل الروائي أسباب ذلك على لسان أحد أبطال الرواية: "الناس لن يكونوا مع علي، الناس تافهون، متكالبون على المال، ينشدون للصلوات، يصومون بصبر، لكنهم عبيد للثروة والحكم"⁷⁹.

وقد سأل رجل عليا كرم الله وجهه ما بال المسلمين اختلفوا عليك، ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر؟ فقال رضي الله عنه: "لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي، وأنا اليوم وال على مثلك"⁸⁰.

⁷⁸ - رواية "علي بن أبي طالب شهيدا" لعبد الله خليفة، ص: 31.

⁷⁹ - المصدر نفسه، ص: 173.

⁸⁰ - المصدر نفسه، ص: 261.

وما قاله علي كرم الله وجهه واضح لا يحتاج إلى شيء من التفسير، أن الوازع الديني عند الناس ضعف، وتكالبت النفوس على المغانم، وطمحت إلى السلطة، والحكم من أجل جمع المال، والتمتع بمباهج الحياة.

الغياب: لقد تشابكت المصائر في الرواية جهينة، عمار بن ياسر، الحسن بن علي، الأشتري والي مصر وأحد أصحاب علي بن أبي طالب، الذي سمم في البادية ومات قبل أن يصل مصر، لتقع مصر غنيمة سهلة بيد عمرو بن العاص ويصير واليهما. ويذهب والي البصرة عبد الله بن عباس في أوج فتنة الخوارج إلى الحج، تاركا المدينة للمتأمرين، أمثال بن ملجم وجماعته لتعيث في المدينة، وتؤلب الناس على عصيان الخليفة الشرعي.

نقلت الرواية بمنالوج طويل ما كان يفكر فيه علي رضي الله عنه عقب إصابته، يفكر أنه كيف قاوم كل هذه السنين وسار مسافات شاسعة في فجاج الأرض، والعمل والعلم، ولم يزالوا بعد لا يقرأونه؟ ثم غاب، وهو الفعل الأخير الذي اختتم به الكاتب روايته، وهي خاتمة في غاية الرمزية والروعة، تليق بشخصية كبيرة كشخصية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

ويروى أن الحسن بن علي رضي الله عنهما صبيحة تلك الليلة خرج ينعى للناس خليفة المسلمين أيها الناس انه قتل فيكم رجل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعته، فيكتنفه جبريل عليه السلام عن يمينه، وميكائيل عن يساره، فلا ينتهي حتى يفتح الله له. ومات ترك لأهله حين استشهاده إلا ثلاثمائة درهم.

روي أن معاوية رضي الله عنه سأل ذات مرة ضارا الصدائي أن يصف له علي بن أبي طالب، فقال الصدائي: "تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله

غزير العبرة، طويل الفكرة. يحاسب نفسه إذا خلا، ويقلب كفيه على ما مضى، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، وأشهد لقد رأيتَه في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضا على لحيته. يتلمل مل المدوغ، ويكي بكاء الحزين، ويقول يا دنيا غري غيري، إلي تعرضت أم إليك تشوقت، هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وحظك حقير. أه من قلة الزاد وبعد السفر، ووحشة الطريق. فبكي معاوية، وقال: رحم الله أبا الحسن، فوالله لقد كان كذلك"81.

81- المصدر السابق، ص: 186.

عقاب قاتل

ليس من شأن الروائي الفنان أن يطل بفكره عبر سطور روايته وبشكل مباشر كي يعظ أو ينصح أو يرسم خارطة طريق للمستقبل، لأنه إن فعل ذلك فإنه يضحى تماما بفنه الروائي الذي قد يتحول إلى جنس كتابي آخر هو المقال الاجتماعي ذو الهدف الإصلاحي. وما ذكرته بشأن الفن الروائي ينطبق على الفن السردي عامة، وهو مما لا يخفى على كاتبنا عبد الله خليفة ذي الخبرة الواسعة في مجال الفن الروائي، فقد أبدع في مجال القصة القصيرة والرواية منذ أواسط السبعينيات من القرن العشرين إلى آخر أوانه من حياته حتى أضاف إلى رصيده السردي المتميز روايته الجديدة: "عقاب قاتل" التي أخرجتها دار الفراشة للنشر والتوزيع في الكويت إخراجا جميلا مع لوحة غلاف لبشاير الشمري تتسق مع مضمون الرواية وأجوائها. إذن نحن أمام روائي تمتد خبرته السردية على مدى ما يقارب من أربعين عاما، فضلا عن دراساته الفكرية والنقدية ورؤيته الخاصة للفلسفة العربية والإسلامية، مما يؤهله لأن يكتب رواية ذات مضمون ساخن له صلة بحاضرنا ومستقبلنا الفكري وآفاق ذلك المستقبل.

وبعنوان الرواية "عقاب قاتل" نلمس عناية المؤلف عبد الله خليفة بانتقاء عنوانه الذي ينطوي على تورية تعكس معنيين، أولهما: يخبر بأن "عقاب" وهو اسم بطل الرواية هو القاتل، والآخر: شبه جملة تفيد بأن القاتل سيلقى جزاءه. مع أن "عقاب" لم يقتل - داخل النص - بل كان يضمر نية القتل لخليل بائع المخدرات.

وعلى مدى أحداث الرواية ندرك قدرة الروائي على رسم الشخصيات النامية التي تتغير بتغير الموقف وبما يتناسب مع سياق الأحداث، رغبة من الروائي في أن ينفذ إلى دخيلة شخصياته وأن يرصد أسلوب تفكيرهم

وردود أفعالهم إزاء الأحداث المستجدة داخل النص. وحرصاً من الروائي على أن تكون شخصياته نابضة وتلقائية. فقد بدأ عقاب بطل الرواية حاقداً على شخصية "خليل" بائع المخدرات ومتعاطفاً مع زوجته "منيرة" التي كانت تستعين بعقاب كي ينقذها من ضرب زوجها، وبحماس الشاب واندفاعه يقرر قتل خليل وإزاحته من الوجود لأنه من وجهة نظره مسؤول عن فساد المجتمع. وكان أمام عقاب نموذجان اثنان يمكن أن يسلكهما علاجاً للموقف، أحدهما: الشيخ سعد ذو الرؤية المنفتحة المرنة، إذ يرد على لسانه: "لن أحدثكم عن السيوف وأمطار الرصاص التي تجتاحنا، بل سوف أحدثكم عن المشاعر الإنسانية النبيلة الكبرى"⁸². والآخر: الشيخ عطية ذو الآراء النارية إذ يرد على لسانه: "المؤمن كائن جبار يحرك الجبال وينزل الصواعق على أعداء الله"⁸³، وينجح الشيخ عطية في أن يطيح بزميله الشيخ سعد الذي يمثل الجيل السابق من الشيوخ، نظراً لاختلاف رؤيتهما حد التناقض.

وكان عقاب قد مل مما رآه ضعفاً واستكانة من الشيخ سعد، فلجأ إلى الشيخ عطية قطبه المضاد، ولكن الشيخ عطية كان مخيباً للآمال فهو أقرب إلى أن يكون مجرماً يتخذ من الدين قناعاً لنزوعه الإجرامي وليس رجل دين حقيقي، في حين تثبت أحداث الرواية اللاحقة نبيل الشيخ سعد وأن أسلوبه المرن في الحوار المقنع وإنسانيته وأفكاره هي تماماً مما ينسجم مع روح هذا العصر، فضلاً عن اتساقها مع الطبيعة الإنسانية المتغيرة ومع روح التدين السمج المرتكز على الإقناع وليس العنف والإجبار وإلغاء الآخر المختلف في عقيدته وانتمائه. لأن الحكم المطلق على الآخر باطل، فالآخر من وجهة النظر القاصرة هذه إما خير (بتشديد الياء) لأنه يطابق معتقداتنا

⁸² - رواية "عقاب قاتل" لعبد الله خليفة، دار الفراشة للنشر والتوزيع، الكويت، عام 2014م، ص: 88.

⁸³ - المصدر نفسه، ص: 134.

أو شرير (كافر) لأنه لا يطابق معتقدنا تماما، وفي هذه الحالة ينبغي التخلص منه. إذن هي دعوة ضمنية لمناهضة التطرف في الحكم على الآخر المختلف عنا عقيدة وفكرا، وقد وردت هذه الدعوة في إطار التقنية الروائية المتقنة لرواية "عقاب قاتل" للروائي البحريني عبد الله خليفة.

أما نمو الشخصيات داخل النص فهو مبدأ واضح وفلسفة يعتنقها الكاتب في هذه الرواية. فهذا عقاب بطل الرواية يبدأ بارا بأمه وناصحا لأخيه السكير ومخلصا في عمله ومجيرا نزيها لجارته "منيرة" زوجة "خليل" بائع المخدرات. ولكن ثمة سياقات في الرواية تقلب موازينه، فإذا هو يعتنق فلسفة العنف والقتل تحت غطاء ديني من أجل إزاحة العوائق التي ظن أنها تعيق نهضة مفترضة ستتحقق في إطار مجتمع ديني ذي لون واحد، يرد على لسان الشيخ عطية: "سيأتي والله إنه سيأتي، وترونه، وعلاماته تدفق المؤمنين وانكسار الجبابرة الأشرار وأنهار من الدماء تتدفق"⁸⁴.

وهذا خليل بائع المخدرات يراجع نفسه وتأتيه لحظات ندم، ولو أتيح له أن يعيش حياة أطول، فإنه قد يتحول إلى إنسان خير، لولا ماضيه الذي لاحقه وأطاح به إذ قتله أعوانه في تسويق المخدرات وبيعها. وينطبق هذا على منيرة زوجة خليل من حيث أنها شخصية نامية تسعى طوال صفحات الرواية إلى أن تتجاوز ظروفها الصعبة وأن تتعلم وتفيد من معطيات هذا العصر، مما يرجح من وجهة نظري أن تكون قسيما رمزيا للوطن، لا سيما أن منيرة نجحت في أن تنطلق إلى آفاق جديدة وأن تعلم ولدها عامر، على الرغم من أنها مكبلة بسياقات مفروضة عليها.

وانسجاما مع مبدأ نمو الشخصية الذي بدا واضحا وعبر أكثر من شخصية رئيسية في الرواية، طالعتنا شخصية الشيخ عطية الذي بدا في الصفحات

⁸⁴ - رواية "عقاب قاتل" لعبد الله خليفة، ص: 114.

الأولى بإهاب رجل الدين الشاب المتعلم "كان طالبا فقيرا، سافر ودرس في بلاد الغربية، وفيها حاور معاندين ومرضى وهداهم"⁸⁵، بيد أن الشيخ عطية ذاته يسفر عن وجه آخر مختلف في غضون الرواية. وعلى النقيض من ذلك شخصية فرحان الذي كان يرفقه علياء المومس، وقد وصفه السارد في الصفحات الأولى من الرواية بأنه: "خادم علياء شبه الرجل"⁸⁶، بيد أن شخصية فرحان تنمو باتجاه آخر تماما، حين ترى فرحان الآن تذهل، أين ذلك الكحل في عينيه؟ كيف خشنت يده؟ بمعنى أن شخصيات عبد الله خليفة ليست نمطية، فهي قد تبدأ خيرة وتتحرف بعد ذلك بسبب ظروف قاهرة، أو أنها تظهر شريرة ثم يتعدل مسارها بناء على أحداث الرواية ومستجداتها. وتركز الرواية على هذا العنف وتلك الكراهية المتوارثة للآخر المختلف فكرا وانتماء، على الرغم من أن الطرفين يجمع بينهما السجن: "شجار عنيف، يرى القبضات وهي تضرب الوجوه بقسوة، الكراهية فظيعة، وهي تنز كلمات وتنز دما وبصاقا"⁸⁷.

وفي نص آخر نلمس تلك الرسالة التي تضمنتها هذه الرواية رامزة إلى مشكلة الراهن في ظل من يدعي أنه يتحدث نيابة عنه جل شأنه أو هو مندوب عن الإله - كما تعبر الرواية - يرد من خلال وعي عقاب بطل الرواية، لكن، أهذا الرجل غير الكهل (الشيخ عطية) يعرف الخير من الشر؟ أهذا المنزلق نحو غرور الدنيا وزواجه السريع من حورية يمكن أن يكون بمنزلة الشيخ سعد واسع العلم الصبور؟ إنه الصراع من أجل التخلص من إسهام الأحكام المطلقة التي تدعي إدراك الحقيقة، وتتبنى فرضها قسرا، وإن ما يفتي به غير قابل للنقاش ويحرم فيه الحوار من أجل الإقناع.

⁸⁵ - رواية "عقاب قاتل" لعبد الله خليفة، ص: 114.

⁸⁶ - المصدر نفسه، ص: 114.

⁸⁷ - المصدر نفسه، ص: 245.

الرؤية الفكرية والفنية لروايات عبد الله خليفة

أولاً: الإنسان قضية جوهرية: إن أول ما يلفت الانتباه في الإبداع الروائي لعبد الله خليفة هو ذلك الحضور المكثف للإنسان البحريني بصفة خاصة، والإنسان العربي بصفة عامة، والإنسان الكوني بصفة أكثر شمولية. إذ ينطلق المبدع من عالمه الخاص عبر مساءلة الواقع الذي ينتمي إليه، والبحث في مظاهر تهاافته، وآثار تحولاته، ومن هنا تتحول الذات إلى مرآة تعكس وجوهاً من الواقع، وتكشف معاناة ذات جماعية تمثلها الفئات المقهورة والمعذبة، جاعلاً منها مادة للحكي، ومعطى لبلورة الوعي، فلم يكن عبد الله خليفة في أي عمل من أعماله، على تعدد أصواتها، واختلاف أنماط صوغها الفني، بعيداً عن ذاته، ولم يكن بعيداً عن مجتمعه ووطنه، ولم يكن بعيداً عن جوهره الممتد في بعده الإنساني. لقد كان، وهو يكتب تجربته العميقة، يطلق العنان لفكره الغزير، وأحاسيسه الصادقة، وحواسه كافة لتسبر غور هذا العمق أينما كان، والجمال حيث تبدى، والقبح أنى تخفى، مازجاً الكل في طين المتخيل. فالذات الإنسانية هي التي يسعى الروائي إلى التأكيد على استحضارها عبر الشخصيات المتخيلة، من ناحية، وعبر تقمص الرواة أدوارها الاجتماعية والسياسية والثقافية من ناحية ثانية.

على هذا النحو تتحدد الرؤية الأولى للمتخيل الروائي لعبد الله خليفة، فهو قبل كل شيء رواية للإنسان المرجعي في نضاله اليومي، وصراعه الدرامي المحتدم ضد العوائق والمعضلات التي تحدد كيانه الإنساني. وكان الراحل سخر موهبته ورؤاه لخدمة تلك القضايا التي تشكل الرأس مال الرمزي للإنسان. وبالانطلاق من موقفه المسؤول عنه، وبهذا المعنى يغدو السرد أحد مكونات الهوية الإنسانية.

ثانياً: العالم المتخيل عند عبد الله خليفة: إن أهم ما يسم عالم خليفة الروائي، تبعاً للمكونات السردية، ما يأتي:

1- اللغة السردية:

يستخدم الكاتب لغة أشبه ما تكون بالقريرية التي تقترب من لغة الخطاب اليومي، ولكنها تسمو عن الابتذال، فهي أقرب ما تكون إلى لغة وسطى بين الفصحى والمحكية (اللغة الثالثة). تحس معها أن الشخصيات هي التي تتكلم وليس الكاتب، فهذا الأخير يتنازل، ما أمكن لرواته وشخصياته، من أجل أن تبتكر لها لغة خاصة ووظيفية، تكون فيها الجملة على مقاس الفكرة. وتلك هي لغة السرد التي تصل إلى المتلقي بسلاسة لا يحتاج معها إلى جهد فكري. ويمكن للقراء، على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم، تقبلها وفهمها دون عوائق أو متطلبات، وهذا مما يوسع من مقروئية النصوص.

2- الرؤية السردية:

تعتبر مسألة الرؤية من المسائل الضرورية في فهم عناصر العالم القصصي، وأبعاده الدلالية الفنية، إذ إن أحداث هذا العالم القصصي لا يمكن أن تتبدى في صورتها التخيلية إلا من خلال مبرر ينهض بتقديم المادة الحكائية. وقد تبنى عبد الله خليفة المنظور السردى التقليدي في الرؤية، حيث يعتمد الرؤية من الخلف فهي تتيح للراوي حضوراً دائماً إلى جانب الشخصيات، وتكفل له معرفة متعالية إزاء جميع ما يقع من أحداث، وحرية واسعة في كيفية تركيب الوقائع، وطرائق تقديم الشخصيات. ورواة عبد الله خليفة وإن تظاهروا في تضاعيف النصوص باستعمال أنماط متعددة من الرؤى السردية، فإنها لا تعدو، متى نظرنا في إخراجهم لها، أن تنضوي تحت رؤية أكثر اتساعاً هي رؤية الراوي العليم. ويكشف ذلك عن تعامل رواة خليفة مع الأحداث والشخصيات تعاملًا فيه الكثير من التصرف

والانحياز بحسب غاياتهم، وزوايا نظرهم. وفي الحقيقة لا يخلو هذا التصرف والانحياز من غايات ومقاصد تجعل رؤية الراوي الخيالي تشاطر رؤية كاتب متعال يقلب نظره في الأحداث انطلاقاً من اعتقاداته وتصوراته الإيديولوجية ذات التوجه الماركسي الذي يصدر عنه، فيلتقط ما يؤكد رؤيته، وينتصر لمذهبه، ويكشف ما يخالفه من آراء، فيقف منها موقفاً مضاداً، وبذا تعددت وجوه حضور الراوي - الكاتب في الروايات بين راو مناوئ ومناكف لوجهة نظر الشخصية، وراو متعاطف ومتآلف مع رؤيتها، وراو ساخر ومتهكم منها، وراو متظاهر بالموضوعية ومتنكب عن نسبة ما يروي إليه مفسحاً للشخصية مجال التعبير والتأثير. ويأتي هذا التعدد في الرؤى والمواقف لتشييد رؤية الكاتب واختياره الفكري، ومذهبه الإيديولوجي المحرض دائماً ضد الطبقة، والداعي أبداً إلى الحرية والمساوات والعدالة الاجتماعية.

3- الشخصية الروائية:

يستلهم عبد الله خليفة شخصياته من الواقع البحريني، لا سيما تلك التي تعيش على هامش الحياة تكابد أشكال الفقر والظلم والقمع، وتعكس تفاصيل طويلة وممتدة من حكايات البؤس والعسر والكفاح. هذه الشخصيات تعين بأسماء وقد تفتنر بألقاب منتزعة من البيئة البحرينية. واختيار أسماء الشخصيات أو نحتها لا يأتي عفويًا، وإنما يلبي مقاصد اجتماعية وثقافية تساهم في إرساء المعنى الرمزي للتجربة، فضلاً عن دلالاتها النصية المرتبطة بالرؤية العامة للمحكي. كما تتسم تلك الشخصيات بأوصاف فيزيولوجية وثقافية تعكس مرجعية لصيقة بالواقع. وأغلبها يلبس زي الإنسان البحريني بما يتناسب وبيئته المحلية وتحولات واقعه. ولسانه ينطق لغة الشعب في بساطتها وعفويتها، ومخزونه اللغوي التراثي في رمزيته

وإحياءاته. فتحس بأن هذه الشخصيات الورقية تعيش معك بلحمها ودمها، تتألم، وتصرخ وتحتج، وتغني، وتضحك، وتكافح في سبيل لقمة العيش، وتتكفى على ذاتها في مونولوجات صاخبة، أو تحلم وتقاوم وتناضل من أجل واقع أفضل من الراهن. وكل ذلك يدرجها في نطاق خطاب إيديولوجي يتجاوز السياق الذاتي، ومجاله الشخصي، إلى سياق الواقع بإشكالاته وتحولاته.

4- الفضاء الروائي: إن الفضاءات الواردة في روايات عبد الله خليفة تعزز حضور الميثاق المرجعي بشكل واضح. فرواياته لا يبتكرون أفضية وأمكنة وأزمنة هلامية من محض الخيال الشخصي، بل إنهم ينزلون إلى الواقع الفعلي لتقف الشخصيات في أمكنة بحرينية مدنا كانت أو قرى، بأكوخها المبعثرة الصغيرة، وبيوتها البسيطة، وأسواقها ودكاكينها ومقاهيها وأزقتها الضيقة ونوافذها وأبوابها وسقوفها وحمامها السارح وغنمها ودجاجها وأطفالها وفتياتها ونسائها ورجالها وسفنها وأشروعها، وكل ما يلامس طبيعتها الساحلية أو الزراعية، وما يتصل بكل بيئة من أوضاع اقتصادية واجتماعية وذاتية وثقافية وفكرية وسياسية، وما يرتبط بتاريخها العطر، وملامح التطور فيها. وهذا يعني أنه لا وجود، في روايات خليفة، للنقل الحرفي للمكان الجغرافي أو العمراني بطريقة تصويرية فوتوغرافية، بل النقل الذي يخضع إلى التذويت، لتنبص طبيعة المكان على الشخصية الإنسانية، وتفرض عليها منطقا في التعامل، وميزة في الصفات الفيزيولوجية، وإيقاعا واختلافا على مستوى اللغة، وعلى مستوى الحركة، وأيضا على مستوى طبيعة التفكير، ونمط العيش. وكل ذلك يؤدي دورا وظيفيا على الأحداث والشخصيات، ويتمشى وسيرورة التصوير الفني، وما يتولد عنه من تفاعلات وصراعات، وبالتالي يفتح باب التأويل والتحليل

بما يعكس تصورا معيناً، ورؤية للعالم، وأفقا لصوغ متجدد، ويرفع التصور القرائي من عتبة التخيل إلى عتبة الترميز، ومن الإبداع إلى الإثنوغرافي إلى الإنثروبولوجي.

5— الأحداث أصوات لرؤية فكرية: تتركز الأحداث في روايات عبد الله خليفة، على تلك التي تعني بتصوير أزمة الفرد والمجتمع، وتلتقط كل ما يعكس طموحاتهما وإحباطاتهما، وهو ما يمنحها أهميتها وثقلها المرجعي، ويكشف تجربة مطبوعة وعميقة دفنت في أغوار الكاتب، ويحاول بعثها من جديد في عالمه الروائي متخطياً الحيز الذاتي إلى الواقع لمحاورة ما ينطوي عليه من إشكالات وتحولات أو مجادلتها والاعتراض عليها. ومن أجل هذه الغاية غالباً ما ينيط الكاتب بمفوضه الخيالي الراوي مداخل السرد ومخارجه، فلا تخرج الأحداث عن ترتيبه ومعرفته ورؤيته وموقفه، وإن كان ذلك على حساب حدود السرد ومحظوراته.

والجدير بالذكر هنا أن بناء الأحداث وفق السيرورة المؤدية إلى الحكمة، لا تأتي بشكل اعتباطي، بل هي جزء من تصور إيديولوجي وطرح معرفي نقدي يتبناه الكاتب في إطار مشروعه الثقافي ورؤيته الفكرية ورسالته الفنية، وجميع هذه الأطر يتبناها الكاتب بقوة الفعل، فهو مثقف تنويري، وأديب ملتزم، وناقد فذ، ومشارك فاعل في كثير من التحولات السياسية والثقافية والفكرية والاجتماعية والأدبية، ومنخرط باليومي وما ينضج به من أسئلة وموضوعات، ومتحرر من حدود ذاته الضيقة، ومقترب من الجماهير، وواقف على همومها وتطلعاتها، ومؤمن بضرورة التغيير نحو الأفضل. وكل ذلك يكفل لتجربته الروائية جاذبية إضافية تكتسب من ورائها مقرئية واسعة، وتستفز القراء إلى تبني رؤية أكثر اتساعاً تنشط معها قوى الوعي والفعل.

الخاتمة

الخاتمة

تطرقنا أولاً إلى أوضاع البحرين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال القرن العشرين، وقد مرت هذه البلاد خلال هذا القرن بأحداث ومتغيرات مهمة انعكست عليها بالسلب والإيجاب. فانتهدنا إلى نتائج عدة، أبرزها:

أولاً: يعتبر القرن العشرين نقطة تحول مهمة في تاريخ البحرين الحديث والمعاصر، إذ تمثل نقطة انطلاق البحرين نحو تأسيس الدولة الحديثة ذات الطابع المركزي من حيث اعتماد ميزانية سنوية للبلاد، وتأسيس دوائر ومؤسسات حكومية، وتنظيم الحياة العامة، وانخراط المجتمع في ظل قوانين وأنظمة قوية. وهذا بالطبع يفيد الحكومة في تبني سياسات قائمة على أساس التحليل العلمي والدراسات المستفيضة في هذا الجانب.

ثانياً: الاهتمام بالدراسات التاريخية لهذه الفترة المهمة، خاصة من الجانب السياسي بسبب حساسيتها المفرطة، يعزز من مسيرة البحث التاريخي المحلي، والتي توفر للأجيال القادمة فرصة البحث والاطلاع على تاريخهم وتراثهم الوطني، مما يؤثر على روح المواطنة التي تتبناها مؤسسات المجتمع المدني كافة.

ثالثاً: الأهمية الجغرافية والاستراتيجية والاقتصادية للبحرين، والتي كانت دافعا قويا للقوى الأجنبية للسيطرة عليها، ولهذا عملت بريطانيا على انتهاز الفرص للتفريق بين القوى الشعبية من خلال الاختلافات الدينية والمذهبية والقبلية والعنصرية، وذلك من أجل إبقاء نفوذها السياسية والتجارية في البحرين والمنطقة الخليجية بأسرها. ومما تقدم نرى أن العوامل المذكورة ما زالت قائمة، مما يجعل الفرصة متاحة لبعض القوى الإقليمية لانتهازها والضرب على هذا الوتر من أجل تحقيق مآثره، ونظرا لذلك ينبغي على

شعوب المنطقة الحذر من تبني مفاهيم مغلوطة ورؤي فكرية ضيقة قائمة على التعصب والانفراد بالرأي لأن ذلك سيؤدي بالجميع إلى الانزلاق في الخطر.

رابعاً: تمثل البحرين عامل جذب قوي للعمالة الوافدة خاصة الرخيصة منها، وذلك للعمل والاستقرار في البحرين. وقد بدأت الهجرات الأجنبية بالتوافد إلى البحرين منذ بداية مطلع القرن العشرين إلى يومنا الحالي بتشجيع أجنبي، وتأييد حكومي، مع تدافع وإصرار من أصحاب رؤوس الأموال على استمرار هذه العمالة الوافدة بشكل واضح يثير معه الحمية الوطنية، والمطالبة بسرعة تبني برنامج يؤدي إلى تفعيل العمالة الوطنية.

خامساً: ينبغي تفهم الأحداث التاريخية على أنها ناتجة عن ظروف سياسية محلية وخارجية، لها من الخصوصية التاريخية مما ينبغي عدم الزج أو التلويح بها عند أي مواجهة سياسية أو حوار وطني.

أما إذا حاولنا النظر إلى تاريخ الرواية البحرينية فلا يخفى علينا أن كتابة القصة والقصيدة سبقت الكتابة الروائية في هذه المنطقة، إذ نعتقد إن الرواية في البحرين باتت معروفة مع عقد الثمانينيات من القرن العشرين، عندما كتب كل من محمد عبد الملك وفوزية رشيد وعبد الله خليفة رواياتهم الأولى لتكون بدء العمل الروائي في البحرين.

وما كتب قبل هذه الفترة فهو محاولات روائية وبدايات أولى لم يقيض لها الاستمرار، وقد يعود هذا إلى أسباب عدة عند الكتاب أنفسهم. فما من شك أن القصة في البحرين سبقت الرواية، وذلك لأن عالم القصة مختلف عن عالم الرواية في مكوناتها وبعدها المكاني والزمني، والتطلع الذي يبينه كل من كاتب القصة وكاتب الرواية، فضلا عن حاجة كاتب الرواية الماسة في أن يكون كاتباً مختلفاً في التعامل مع الأحداث وطرائق تلقيها ونسجها وبناء

متخيلاتها، وهذا بلا شك يختلف عن كتابة القصة التي تحتاج إلى التثقيف والتركيز وحصر الزمان والمكان والأصوات المتكلمة في سردية القص.

إن الرواية بالأساس لا تأتي إلا ضمن حاجة لفهم المجتمع الذي تعقدت أطرافه وتشابكت، إنها تأتي لفهم، لذلك فإن انطلاقة الرواية مع عقد الثمانينيات في البحرين هي تعبير قوي عن المجتمع البحريني والخليجي بشكل عام، هذا الإنسان البحري/ الزراعي، تسعى الرواية الآن إلى إعادة اكتشافه، ليفهم ذاته، رغم بروز روايات بحرينية قبل هذه الفترة، مثل: رواية (نكريات على الرومال) للروائي البحريني فؤاد عبيد والتي صدرت عام 1966م، وهي فترة مبكرة لمحاولة تأسيس نص روائي محلي في الساحة الأدبية البحرينية.

فظهرت أول رواية بحرينية إلى حيز الوجود على يد الروائي البحريني فؤاد عبيد في وقت سيطر فيه الشعر وألوان أخرى من الأدب على المشهد الثقافي البحريني، وهو ما خلد ولادة الرواية الأولى وفتح الطريق أمام أوراق وكلمات لرويات أخرى سجلت بحضورها على ساحة الفن والأدب ليست منافسا للشعر بل خيارا إبداعيا أضاف لونا جديدا على الساحة الفكرية والأدبية.

ومثل طفل صغير يحبو في خطواته الأولى اتسمت مسيرة الرواية البحرينية في تاريخها المعاصر بمحاولات متواصلة لمواكبة عصرها لكنها لم تتجاوز حدودها المحلية لأسباب من أهمها تأخر تعاطي مفاهيم الحداثة في المجتمعات الخليجية.

بدأت في عقد الثمانينات نهضة حقيقية في مجال الكتابة الروائية في البحرين من خلال أسماء أبرزها محمد عبد الملك الذي بدأ قاصا أولا، وصدر له في هذا المجال: "موت صاحب العربة" سنة 1972م، و"نحن نحب الشمس"

عام 1975م، و"السياج" عام 1982م، و"النهر يجري" عام 1984م، و"ثقوب في رئية المدينة" عام 1997م، ثم أصدر روايته الأولى "الجنوة" في عام 1980م، وأتبعها برواياته الثانية "ليلة الحب" التي صدرت عن دار الكنوز الأدبية في سنة 1998م.

وفي نفس السياق يذكر كاتبنا عبد الله علي خليفة الذي صدرت روايته الأولى "اللآلى" في عام 1981م، كما أصدر في 1982م، رواية "القرصان والمدينة"، وفي 1988م، رواية "أغنية الماء والنار". وله إنتاجات مهمة أخرى في هذا المجال. ومن أبرز الروائيات في البحرين فوزية رشيد التي أصدرت عددا من القصص القصيرة ومجموعة من الروايات مثل: "الحصار" في 1983م، و"تحولات الفارس الغريب في البلاد العاربة" في عام 1990م، وغيرهما.

وسجلت مرحلة الثمانينات وما بعدها اقتحام عدد من الأدباء البحرينيين لمعترك الرواية، ومن هؤلاء أحمد المؤذن الذي بدأ بالقصة القصيرة من خلال "أنثى لا تحب المطر" و"من غابات الاسمنت" و"رجل للبيع"، أتبعها برواية "وقت للخراب القادم". وهناك أمين صالح الذي بدأ روايا، وحسين المحروس ووليد هاشم وفريد رمضان وفتحية ناصر وغيرهم.

أما في الحديث عن أول امرأة بحرينية كتبت الرواية فهي فوزية رشيد، ولديها ثلاث روايات منشورة وبعض المجموعات القصصية، بالإضافة إلى ليلى صقر التي أصدرت رواية واحدة ثم توقفت، وفتحية ناصر التي صدرت لها ثلاث روايات، ومنيرة سوار وهدى عواجي وغيرهن. وهذه الأعمال لا تشكل منعطفا ملحوظا في الكتابة الروائية على المستوى الإقليمي عدا تجربة فوزية رشيد، ويكمن ذلك في الرؤية والهدف وراء الكتابة عامة، والكتابة الروائية على وجه الخصوص.

ومن اللازم علي أن أذكر هنا رائد الرواية البحرينية، ألا وهو الكاتب والروائي الكبير عبد الله خليفة، فهو يعد بلا شك من أبرز كتاب الرواية في البحرين حتى الآن، وأحد الذين استمدوا أعمالهم من الواقع الاجتماعي لبيئته، وأحد الذين عبروا بأعمالهم القصصية والروائية عن هموم المجتمع المحلي والخليجي بكل خصوصياته، ربما يعتبر عبد الله خليفة رائد الرواية العربية بجانب أنه يستمد خصوصيته في هذا المجال من احتفائه بصفة خاصة بعالم البحر والغوص وما يتصل به من أعمالها وبيئتها وأثرها وموروثها الخاص. تصور رواياته الصراع الاجتماعي في البحرين، ومنها إشكاليات العلاقات الاجتماعية والإنسانية في المدن والقرى الساحلية.

سطع نجم الروائي عبد الله خليفة عبر إصداراته في حقبة الثمانينيات، فمنذ العام 1981م، حتى العام 1988م، صدرت له روايات عديدة هي: "اللآلي" في العام 1981م، و"القرصان والمدينة" في العام 1982م، و"الهيئات" في العام 1983م، و"أغنية الماء والنار" في العام 1988م.

وتوالى له الإصدارات واحدا بعد آخر في عقد التسعينيات برواية "امرأة" في العام 1990م، ورواية "الضباب"، في العام 1992م، وبعدها أصدر المركز الثقافي العربي في العام 1994م، روايتين هما: "سهرة" و"نشيد البحر". وله الكثير من الروايات والأبحاث والمقالات والمشاركات، ومنها الإصدارات المهمة في مجال الرواية التاريخية: "رأس الحسين" في العام 2006م، و"عمر بن الخطاب شهيدا" في العام 2007م، و"عثمان بن عفان شهيدا" في العام 2008م و"علي بن أبي طالب شهيدا" في العام 2008م، و"محمد ثائرا" في العام 2010م، وغيرها.

لقد أبرزت تجربة عبد الله خليفة الروائية واقع الفئات البحرينية المقهورة، واستفاضت في نقل همومها وأحلامها، وتصوير مآلات هذا الواقع المأزوم

على الذات الإنسانية. كما جسدت ما ينخر المجتمع من عاهات تفكك لحمته وتخرم وحدته، وتفضي به إلى تعطيل حركة التقدم وعجلة التغيير المنشود.

هذا ما بدالي من خلال هذه الدراسة، ولا أدعي العصمة من الوقوع في الخطأ والتقصير، لأن الإنسان مركب من الخطأ والنسيان، فالمجال مفتوح لمن يأتي بعدي ويحاول الدراسة والبحث عن هذا الصدد.

ومن المشاكل والصعوبات التي واجهتها أثناء كتابة هذا البحث هي عدم تواجد الكتب والروايات المتعلقة بالموضوع عندنا في الهند، فنجحت في جمع المواد لهذا البحث بعد محاولة مستمرة وجهد كبير من شتى الكتب والمجلات والصحف.

وتمت كتابة هذا البحث المتواضع فقط بفضل الله وتوفيقه الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الرئيسية:

- ابن منظور، لسان العرب، ج4، لبنان، بيروت، دار صادر، 2010م.
- أحمد، محمد عطية، كلمات من جزر اللؤلؤ (دراسة في أدب البحرين الحديث)، مصر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988م.
- أمين صالح، أغنية ألف صاد الأولى، لبنان، بيروت، دار الفارابي، الطبعة الأولى، 1982م.
- البحارنة، تقي، أوراق ملونة، مملكة البحرين، مكتبة فخراوي، 2000م.
- البستاني، بطرس بن بولس بن عبد الله، دائرة المعارف، ج5، بيروت، مطبعة المعارف، عام 1983م.
- البكري، أبو عبد الله، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج1، بيروت، عالم الكتب، 1983م.
- بلجريف، جيمس، البحرين ترحب بكم، البحرين منشورات وكالة الخليج للإعلان والخدمات، 1970م.
- بو شعير، الرشيد، مساءلة النص الروائي - في السرديات العربية الخليجية المعاصرة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010م.
- جبيل، عبد علي محمد، تطور إعداد معلم الابتدائي وتدريبه لدولة البحرين 1948 - 1981م، (رسالة ماجستير)، جامعة القاهرة، كلية التربية، 1988م.
- حسين، رملة عبد الحميد، البحرين ما بين 1919 - 1939م، دراسة للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية (رسالة ماجستير)، الكويت، جامعة الكويت، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، 2009م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، مصر، القاهرة، 1906م.

- خاطر، مبارك، مضبطة المشرع الأول للتعليم الحديث في البحرين (1919) - (1930م)، البحرين، 2000م.
- خليفة، عبد الله علي، أغنية الماء والنار، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1988م.
- خليفة، عبد الله علي، الأقف، وزارة الإعلام البحريني، إدارة الثقافة والفنون، 2002م.
- خليفة، عبد الله علي، التماثيل، 2007م.
- خليفة، عبد الله علي، ذهب مع النفط، لبنان، بيروت، الانتشار العربي، ط1، 2010م.
- خليفة، عبد الله علي، ساعة ظهور الأرواح، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004م.
- خليفة، عبد الله علي، عقاب قاتل، الكويت، دار الفراشة للنشر والتوزيع، 2014م.
- خليفة، عبد الله علي، علي ابن أبي طالب شهيدا، لبنان، بيروت، دار الرياض الريس للكتب والنشر، 2008م.
- خليفة، عبد الله علي، القرصان والمدينة، بيروت، دار الفارابي، 1982م.
- خليفة، عبد الله علي، اللآلي، لبنان، بيروت، دار الفارابي، 1982م.
- خليفة، عبد الله علي، محمد ثائرا، مؤسسة الانتشار العربي، 2010م.
- خليفة، عبد الله علي، نشيد البحر، المركز الثقافي العربي، 1994م.
- خليفة، عبد الله علي، الهيرات، 1983م.
- خليفة، عبد الله علي، الينابيع، لبنان، بيروت، دار الانتشار العربي، 2012م.
- خليفة، مي محمد، مائة عام من التعليم النظامي في البحرين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999م.
- الخوري، فؤاد إسحاق، القبيلة والدولة في البحرين، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1983م.

- الخيري، ناصر بن جوهر بن مبارك، قلائد النحرين في تاريخ البحرين، الأيام للنشر.
- د. محمد أحمد عبد الله وديشير زين العابدين، تاريخ البحرين الحديث (1500 - 2002م)، جامعة البحرين، مركز الدراسات العربية، الطبعة الأولى 2009م.
- الرميحي، محمد غانم، البحرين - مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي - بيروت، دار الجديد، 1995م.
- الزيناني، أمل إبراهيم، البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي (رسالة ماجستير)، القاهرة، جامعة القاهرة، 1976م.
- الزيناني، أمل إبراهيم، مجتمع البحرين وأثر الهجرة الخارجية في تغيير بنائه الاجتماعي، القاهرة، مطبعة دار التأليف، 1977م.
- الزيدي، مفيد، البحرين من الإمارة إلى الملكية الدستورية، عمان، دار أسامة، 2005م.
- سرحان، منصور محمد، واقع الحركة الفكرية في البحرين (1940 - 1999م)، بيروت، دار البلاغة، 1993م.
- السليطي، مريم، تطور نظم تعليم الفتاة في البحرين 1928 - 1988م، البحرين، مركز المعلومات والتوثيق، وزارة التعليم والتربية، 1988م.
- الشاعر، سوسن والجاسم عبد القادر، البحرين قصة الصراع السياسي (1004 - 1956م)، البحرين، 2000م.
- الشائجي، هلال، الصحافة في الكويت والبحرين منذ نشأتها حتى عهد الاستقلال، البحرين، مطبوعات بانوراما الخليج، 1989م.
- فائق، حمدي طهبوب، تاريخ البحرين السياسي - 1783 - 1870م -، الكويت، دار السلاسل، 1983م.

- فريد رمضان، التنور، البحرين، منشورات أسرة الأدباء والكتاب، الطبعة الأولى، 1994م.

- فريد رمضان، السوافح، بيروت، ماء النعيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 2006م.

- مجموعة من المؤلفين، عبد الله خليفة.....عرض ونقد عن أعماله، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، عام 2018م.

- المحروس، كريم، البحرين بين الأصالة ومظاهر التغيير السياسي، لندن، مؤسسة الرافد للنشر والتوزيع، 1997م.

- محمد عبد الملك، الجذوة، لبنان، بيروت، دار الفارابي، الطبعة الأولى، 1981م.

- المحميد، علي حسن، تاريخ البحرين الحديث، أبو ظبي، 1938م.

ثانياً: المصادر الثانوية:

- البيل، د. فارس، الرواية الخليجية - قراءة في الأنساق الثقافية، الأردن، عمان، شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، 2016م.

- التميمي، عبد الملك، التبشير في منطقة الخليج العربي، الكويت، شركة كاظمة للنشر والتوزيع، 1982م.

- التميمي، عبد الملك، الكويت والخليج العربي، الكويت، مؤسسة الشراع العربي، 1992م.

- الجاسر، حمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (المنطقة الشرقية)، الرياض، دار اليمامة، 1979م.

- جمال، زكريا، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، القاهرة، دار الفكر، 1997م.

- الخليفة، مى، تشارلز بلجريف: السيرة والذكرات (1926 - 1957م)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000م.

- الزيدي، مفيد، التيارات الفكرية في الخليج العربي (1938 - 1971م)، رسالة الدكتوراه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2000م.
- صراى، حمد محمد، اليهود والخليج العربي - رؤية تاريخية نقدية، الكويت، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، 2001م.
- العقاد، صلاح، التيارات السياسية في الخليج العربي من بداية العصور الحديثة حتى أزمة 1991م، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1991م.
- فارتيماء، رحلات فارتيماء، ترجمة وتعليق عبد الله الشيخ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة لكتاب، 1994م.
- فوزي، مفيد، التيارات الفكرية في الخليج العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- فهد حسين، أمام القنديل - حوارات في الكتابة الروائية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2008م.
- قاسم، جمال زكريا، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الأوضاع الداخلية في امارات الخليج وعلاقات الجوار (1914 - 1945م)، القاهرة، دار الفكر، 1997م.
- القاسمي، نورة، الوجود الهندي في الخليج العربي 1820 - 1947م، الشارقة، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، 1996م.
- لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج3، 1976م.
- المحادين، د. عبد الحميد، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001م.
- مى، محمد بن خليفة، (1813 - 1890م)، الأسطورة والتاريخ الموازي، بيروت، دار الجديد.

- النبھانی، الشیخ محمد، التحفة النبھانیة فی تاریخ الجزيرة العربیة، البحرین، المكتبة الوطنیة، 1999م.

- یوسف، شوقی بدر، غوایة الروایة - دراسات فی الروایة العربیة، الإسكندریة، مؤسسة حورس الدولیة، 2008م.

ثالثاً: الدوريات العربیة:

- أبا حسین، علی، مقتطفات من تاریخ الشیخ حمد بن عیسی آل خلیفة، البحرین، مركز الوثائق التاریخیة، مجلة "الوثیقة"، ینایر 2007م.

- أبا حسین، علی، الشیخ حمد بن عیسی آل خلیفة، مركز الوثائق التاریخیة، مجلة "الوثیقة"، العدد: 34، 2003م.

- إبراهیم بن هندي، وفاة الروائی البحرینی عبد الله خلیفة بعد مسیرة حافلة بالعطاء، صحیفة "الأیام" البحرینیة، العدد: 9326، الأربعاء، 22 أكتوبر، 2014م.

- أحمد رضی، (شاعر وكاتب من البحرین)، الروایة والمدينة، مجلة "البحرین الثقافیة"، الأربعاء، 30 مارس، عام 2016م.

- بدر، محمود إسماعیل، الروایة فی الخلیج..... البحث عن الواقع والهویة، جریة "الرأی" تاریخ النشر: الجمعة، 26 / 11 / 2004م.

- بلجریف، جیمس، مذكرات بلجریف (ترجمة مهدي التاجر)، بیروت، دار البلاغة، 2000م.

- الجمري، جعفر، رحیل عراب الروایة البحرینیة عبد الله خلیفة، صحیفة "الوسط" البحرینیة، العدد: 4428، الأربعاء، 22 أكتوبر، 2014م.

- الجمري، د. منصور، قراءة معاصرة فی تاریخ البحرین، صحیفة "الوسط" البحرینیة، العدد: 3822، 23 فبرایر، 2013م.

- حسن، عثمان، الرواية البحرينية... تتطلع إلى المستقبل، الإمارة العربية المتحدة، الشارقة، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، صحيفة "الخليج"، تاريخ النشر: 3 يوليو، 2010م.
- حسين صالح، عبد الله خليفة... البحرين تودع أحد كبار كتابها المبدعين، جريدة "أخبار الخليج" اليومية، 22 أكتوبر، 2014م.
- خليفة، محمد، "الإصلاح السياسي في البحرين: المظهر والدولة" شؤون خليجية، مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية، العدد: 25، 2001م.
- د. حسن مدن، عبد الله خليفة..... وداعا، صحيفة "أخبار الخليج" البحرينية، تاريخ النشر: 25 أكتوبر، 2014م.
- د. حسن مدن، الوجوه المتعددة لعبد الله خليفة، الحوار المتمدن، مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي، 14 ديسمبر، 2014م.
- الديري، جعفر، الرواية البحرينية ارتدت لباس التغيير بالمعطيات العصرية، صحيفة "الوطن"، العدد: 3104، الثلاثاء، 10 يونيو 2014م.
- الديري، جعفر، نقاد وروائيون: عبد الله خليفة الأب الروحي للرواية البحرينية، صحيفة "الوطن"، العدد: 3238، الأربعاء، 22 أكتوبر، 2014م.
- روبرت هفري، تيار الوعي في الرواية الحديثة، ترجمة د. محمود الربيعي، القاهرة، دار المعارف.
- الزباني، أمل إبراهيم، ملامح من حياة الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة الحاكم الرابع، الوثيقة، العدد: 7، يوليو 1985م.
- الشاهين، أين الرواية من المشهد الثقافي في البحرين، "جسد الثقافة"، 11/22 /2004م.
- الشرقاوي، علي، عبد الله خليفة..... الروائي المنحاز لمعذبي الأرض، صحيفة "الوطن"، الجمعة، 27 سبتمبر، 2013م.

- صفوة، نجدة، الادعاءات الفارسية بالبحرين، لندن، مركز الدراسات العربية، مجلة "الباحث العربي"، العدد: 18، مارس 1988م.
- الطواش، سكينه، البحرين تودع عبد الله خليفة قبل "لحن الشتاء"، صحيفة "الأيام" البحرينية، العدد: 9326، الأربعاء، 21 أكتوبر، 2014م.
- عبد الجليل، زيد مرهون، الشيخ حمد ونموذجه القيادي - المبادئ الأساسية، جريدة "الرياض"، 14-12-2001م.
- عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أبو حسين، دراسة في دولة العيونيين، الوثيقة، العدد: 1، 1982م.
- الغريري، غازي، الروائي البحريني عبد الله خليفة يترجل بعد مسيرة حافلة بالعطاء، صحيفة "البيان" اليومية، مؤسسة دبي للإعلام، 22 أكتوبر، 2014م.
- فهد حسين، الرواية البحرينية، الرياض، مؤسسة الإمامة الصحفية، جريدة "الرياض"، العدد: 15550، 20 يناير، 2011م.
- فيصل، عبد المحسن، عبد الله خليفة كاتب رصد يوميات البحارنة لحظة بلحظة، لندن، صحيفة "العرب"، العدد: 10161، 21 يناير، 2016م.
- القاهري، عباس، لقاء مع السيد محمد رضاء القاهري حول كتب التراث في البحرين، البحرين، مجلة "المواقف" العدد: 127، نوفمبر 2002م.
- محمد أحمد عبد الله، مصادر المياه في البحرين، مجلة "دراسات الخليج والجزيرة العربية" العدد: 10، إبريل 1977م.
- مكّي، يوسف، طفلي يمزق الرسائل..... أو من بواكير الرواية في البحرين، البحرين، جريدة "أخبار الخليج" اليومية، العدد: 13336، السبت، 27 سبتمبر، 2014م.

- ناصيف، عبد الكريم، قضية المرأة في الروايات الخليجية.... عبد الله خليفة أنموذجاً، مجلة "الأدب العربي"، العدد: 421، السنة الخامسة والثلاثون، أيار 2006م.

- الوادي، علي، عبد الله خليفة....مناضل وطني وكاتب تنويري، صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 1057، الجمعة، 29 يوليو، 2005م.

رابعاً: الصحف والمجلات:

- صحيفة "أخبار الخليج" اليومية، العدد: 13336، السبت، 27 سبتمبر، 2014م، الموافق، 3 ذو الحجة، 1435هـ.

- صحيفة "أخبار الخليج" اليومية، الأربعاء، الموافق، 22 أكتوبر، 2014م.

- صحيفة "أخبار الخليج" البحرينية، السبت، الموافق، 25 أكتوبر، 2014م.

- صحيفة "الأيام" البحرينية، العدد: 9326، الثلاثاء، 21 أكتوبر، 2014م.

- صحيفة "البيان" اليومية الصادرة عن مؤسسة دبي للإعلام، 22 أكتوبر، 2014م.

- صحيفة "جسد الثقافة"، تاريخ النشر، 22 نوفمبر، 2004م.

- صحيفة "الخليج" الشارقة، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، تاريخ النشر: 3 يوليو، عام 2010م.

- صحيفة "الرأى" تاريخ النشر: الجمعة، 26 نوفمبر، 2014م.

- صحيفة "العرب" لندن، العدد: 10161، 21 يناير، 2016م.

- صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 1057، الجمعة، يوليو 2005م، الموافق 22 جمادى الآخرة 1426هـ.

- صحيفة "الوسط" البحرينية، العدد: 4428، الأربعاء، 22 أكتوبر، 2014م.

- صحيفة "الوطن" اليومية، الجمعة، 27 سبتمبر، 2013م.

- صحيفة "الوطن" العدد: 3104، الثلاثاء، 10 يونيو، 2014م.

- صحيفة "الوطن" العدد: 3238، الأربعاء، 22 أكتوبر، 2014م.

- صحيفة "الوطن" اليومية، الأربعاء، 15 نوفمبر، 2017م.
- مجلة "الأدب العربي" العدد: 421، السنة الخامسة والثلاثون، أيار، 2006م.
- مجلة "الباحث العربي" لندن، مركز الدراسات العربية، العدد: 18، مارس 1988م.
- مجلة "البحرين الثقافية" الأربعاء، 30 مارس، 2016م.
- مجلة "دراسات الخليج والجزيرة العربية" العدد: 10، إبريل 1977م.
- مجلة "الرياض"، الرياض، مؤسسة الإمامة الصحفية، العدد: 15550، 20 يناير، عام 2011م، الموافق، 16 صفر 1432 هـ.
- مجلة "المواقف"، البحرين، العدد: 127، نوفمبر 2002م.

المحتويات

المقدمة.....	10 - 1
الباب الأول: الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في البحرين خلال القرن العشرين.....	11
البحرين: موقعها وأهميته من منظور تاريخي.....	13
أصل التسمية لمملكة البحرين.....	13
الموقع الجغرافي وأهميته.....	15
مختصر تاريخ البحرين.....	16
* الأحوال الاجتماعية في البحرين خلال القرن العشرين:.....	19
1- العرب.....	19
2- الجاليات الأجنبية.....	21
أ - الفرس.....	21
ب - الهنود.....	23
ج - اليهود.....	24
الهجرة: أسبابها وتداعياتها.....	25
* الأوضاع السياسية في البحرين خلال القرن العشرين:.....	27
السياسة البريطانية تجاه البحرين قبل فرض الحماية عليها.....	29
تولي الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حكم البحرين.....	31
بسط الحماية البريطانية على البحرين.....	33
رد الفعل الوطني ضد الحماية البريطانية وانسحابها من البحرين.....	35

38.....	تطور النظام السياسي والإداري عقب الاستقلال.
41.....	المشاريع الإصلاحية لجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة.
44.....	* الموارد الاقتصادية للبحرين:
46.....	أولاً: الغوص على اللؤلؤ.
49.....	ثانياً: الجمارك.
49.....	ثالثاً: الزراعة وصيد الأسماك.
51.....	رابعاً: التجارة.
55.....	إنتاج النفط في البحرين.
57.....	أثر النفط على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البحرين.
57.....	1- التطور الاقتصادي وأثره على التنمية البشرية.
59.....	2- النفط وأثره على الحياة الاجتماعية.
61.....	* الحركة الثقافية في البحرين خلال القرن العشرين:
61.....	الفن.
61.....	المسرح.
62.....	اللغات واللهجات.
63.....	الصحافة.
64.....	الصحف والمجلات الوافدة.
64.....	الصحافة المحلية.
66.....	لمحة تاريخية عن التعليم في البحرين.
67.....	1- المدارس السنوية (مدارس الإدارة الخيرية).
67.....	2- المدارس الجعفرية.

68.....	3- المدارس الفارسية.
68.....	4- مدارس أهلية أخرى.
69.....	انتقال التعليم من المجالس الأهلية إلى إدارة المعارف.
69.....	التطورات المهمة في التعليم.
71.....	التعليم الآن.
72.....	الجامعات في البحرين.
75.....	الباب الثاني: الرواية في البحرين - نشأتها وتطورها
77.....	الرواية في المحيط العربي.
78.....	مدخل عن الرواية الخليجية.
82.....	لمحة عن ظهور الرواية في البحرين.
84.....	تطور الرواية في البحرين.
91.....	سبب تأخر ظهور الرواية في البحرين.
96.....	مكانة الرواية في المشهد الثقافي البحريني.
97.....	الرواية البحرينية فسحت مكانا أوسع على الخريطة الإبداعية.
100.....	ملامح التجربة الروائية في البحرين.
103.....	الرواية البحرينية ليست مغيبة في اللحظة.
106.....	الرواية البحرينية ارتدت لباس التغيير بالمعطيات العصرية.
108.....	كتاب الرواية في البحرين ورواياتهم.
109.....	الروائيات في البحرين ورواياتهن.
111.....	دراسة تحليلية لبعض روايات ممتازة من التجربة الروائية في البحرين.
111.....	* رواية "الجنوة" لعبد الملك.

117.....	* رواية "أغنية ألف صاد الأولى" لأمين صالح
122.....	* رواية "السوافح" لفريد رمضان
129.....	الباب الثالث: عبد الله خليفة...حياته وأعماله:
131.....	عبد الله خليفة...حياته وأعماله
133.....	نبذة عن حياة عبد الله خليفة
133.....	كسبه للعلم
135.....	عبد الله خليفة في مجال العمل
136.....	عبد الله خليفة كمناضل وطني
139.....	عبد الله خليفة كاتب المقال الصحفي
139.....	صاحب البوصلة السياسية الصائبة
141.....	في مجال كتابة القصة والرواية
147.....	عبد الله خليفة - الأب الروحي للرواية البحرينية
149.....	نتاجه الأدبي والفكري والنقدي يتنوع على النحو التالي:
149.....	أولاً: القصة القصيرة
152.....	ثانياً: الأعمال الروائية
154.....	ثالثاً: الدراسات النقدية والفكرية
155.....	رابعاً: مقالات الكاتب عبد الله خليفة
162.....	الجوائز الأدبية:
163.....	عبد الله خليفة في ذمة الله
164.....	نعي ورتاء على وسائل التواصل
166.....	الوحدة الوطنية تجلت في يوم وفاة عبد الله خليفة

166.....	كان الراحل مواظبا على الكتابة الصحفية
167.....	عبد الله خليفة وداعا
170.....	عبد الله خليفة في عيون الأدباء والكتاب
174.....	عبد الله خليفة من خلال رواياته
179.....	الباب الرابع: روايات عبد الله خليفة - دراسة تحليلية انتقائية
181.....	عبد الله خليفة روائيا
184.....	تجربته في الرواية
190.....	دراسة تحليلية لبعض روايات عبد الله خليفة
190.....	رواية "اللآلئ"
195.....	القرصان والمدينة
199.....	الهيرات
204.....	أغنية الماء والنار
209.....	ذهب مع النفط
217.....	الأقلف
228.....	ساعة ظهور الأرواح
234.....	نشيد البحر
242.....	الينابيع
248.....	التمثيل
255.....	محمد ثائرا
260.....	علي بن أبي طالب شهيدا
266.....	عقاب قاتل

270.....	الرؤية الفكرية والفنية لروايات عبد الله خليفة
277.....	الخاتمة
283.....	المصادر والمراجع
298 - 293.....	المحتويات

**Development of Arabic Novel in Bahrain with special
focus on the novels of Abdullah Khalifah: An analytical
study of selected novels**

For the award of the degree of

DOCTOR OF PHILOSOPHY

By

Ziaul Haque

Under the Supervision of

Dr. Rizwanur Rahman



Centre of Arabic and African Studies

School of Language, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi- 110067

2019